رجاء جارودي

وحضارة الإسلام

بقلم

أمينه الصاوي - د. عبد العزيز شرف

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤسسة الثقافية الإسلامية
جنيف

FONDATION CULTURELLE ISLAMIQUE
GENÈVE

التاريخ ١١/٩/١٤٠٢هـ
الموافق ٢/٧/١٩٨٢م

شهادة اشهار اسلام

— ان الدين عند الله الاسلام —

تم بفضل الله و توفيقه اشهار اسلام صاحب هذه الشهادة — في المؤسسة الثقافية الاسلامية — في مدينة جنيف يوم الجمعة وتاريخ ١١ رمضان ١٤٠٢ الموافق ٢ يوليو ١٩٨٢م

اسم العائلة : جارودي

الاسم الاول : روجيه جان شارل

الاسم الاسلامي : رجاء

من مواليد مدينة : مارسيليا/فرنسا بتاريخ : ١٧/٧/١٩١٣م

ديانته السابق : كاثوليكي

المهنة : كاتب

الحالة الاجتماعية : متزوج

العنوان : .... رقم الهاتف : ....

الجنسية : فرنسية

رقم جواز السفر : .... صادر في : .... /فرنسا بتاريخ : ١٠/٢/٧٨

تاريخ اشهار الاسلام : ١١/٨/١٤٠٢ الموافق : ٢/٧/١٩٨٢م

الشاهد الأول
الدكتور/محمد ... الأرقم

الشاهد الثاني
السيدة/... نور الدين ...

صاحب الشأن
رجاء جارودي

امام المسجد : ....
(الشيخ محمد ...)



الاهــداء

الى الحيارى الظامئين السائرين فى بيداء الحياة وهجــيرها ..

نهدى رحلة جارودى ـــ من الشك الى اليقين ....
والسلام على من اتبع الهدى ..

المؤلفــان

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم العالم الكبير فضيلة الشيخ

احمد حسن الباقورى

رئيس ومدير جمعية ومعهد الدراسات الاسلامية بالقاهرة
والرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية

.. هذا كتاب جليل القدر عن الأستاذ الدكتور جارودى فى حياته الحافلة بجلائل الأعمال التى لا ينهض بها الا أصحاب العزائم .. ولا يصبر على لأوائها الا أحرار العقول الذين يؤثرون شرف العدل والانصاف على خسة الجور والميل والاعتساف .

وقد استعرضت الكاتبة الفاضلة الأستاذة أمينة الصاوى مع زميلها المفضال الدكتور عبد العزيز شرف ـ زاده الله عزة وشرفا ـ حياة العلامة الفيلسوف من بدايتها الى يوم الناس هذا ثم لم يفتهما مع ذلك الوقوف بقرائهما وقفة فاحصة مدققة ناقدة ـ حيال الرحلة الجارودية من حيرة الشك الى سكينة الايمان . كل ذلك فى حرص من الكاتبين الفاقهين على استجلاء الحقيقة من مصادرها واستخراج النتائج من مقدماتها .

والذين يعرفون الكاتبة أمينة الصاوى لا ينبغى لهم أن يجهلوا السر الذى نشأها تنشئة مهدت لها السبيل الى عناية بالبحث وقدرة على التعبير ذلك أن والدها الفاضل الشيخ مصطفى الصاوى ـ كان مدرسا

للأدب العربى فى معهد القاهرة الدينى الأزهرى — وقد أدرك بعاطفة الأب وحس الأديب أن ابنته أمينة تمتاز بالقدرة على البحث ومصابرة المشاق فى القراءة والاطلاع ، ولذلك عنى رحمه الله بتنمية هذه المواهب فيها ، حبا لأولاده أو حبا لنفسه فى أولاده القادرين على أن يخلفوه فى الناس — بما كان يمتاز به من غزارة معرفة وسعة اطلاع .

ولم تخيب أمينة ظن والدها بها ولا كذبت صدق فراسته فيها فاذا هى — على ذلك — كاتبة ذات رأى سديد فى شئون الاجتماع بظاهره بصر جديد بدخائل الأعلام الذين تترجم لهم أو تتحدث عنهم فى كتب أو مقالات أو تصورهم فى أعمال درامية تقدمها للناس من خلال التلفزيون والاذاعة والصحافة والمسرح . وأصدق شاهد لهذا الذى نقول — هذا الكتاب الذى تنفح به الغيارى على الصدق التاريخى والصدق التحليلى للأستاذ العلامه الفيلسوف جارودى — جنبه الله تعالى حماقة الحمقى وتربص المتربصين .

والذين يعرفون أمينة الصاوى فى حرصها على الاستعانة بكبار الهمم فيما تخرج من أعمال كبار يشكرون لها ان استعانت برجل سوى الفطرة عميق النظرة حريص على احقاق الحق وابطال الباطل ومعرفة أقدار الناس .. أستاذ قد تخصص فى الأعلام — وراد فيه الدراسات الحديثة للاعلام الاسلامى والتى نسأل الله أن ينفع بها رجال الدعوة الاسلامية .

والذين يعرفون الدكتور عبد العزيز شرف لا يعرفون انه شاعر مطبوع له من القصائد روائع تقف الى جوار دراساته النقدية للشعراء المصريين والعرب على قدم المساواة .

أما بعد .. فشكر الله تعالى للكاتبين الفاضلين ما بذلا من جهد صادق فى اخراج هذا الكتاب عن رجل سبقه الى الاعتزاز بحرية الرأى وانصاف الحق سلفه العظيم دكتور جوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » ثم اقتفى أثره ونسج على منواله الأستاذ موريس بوكاى فى كتابه « دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة » .

ولا ريب فى أن الأستاذ جارودى ومن سبقه ومن سيأتى بعده — من الذين أنصفوا الاسلام فى كتاباتهم — انما ردوا تحية الاسلام لهم بتحية مثلها .

ذلك أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم قامت رسالته على احترام العقائد الدينية لمخالفيه ، وقد أضفى على المسيح تكريما كريما فى مثل قوله الشريف « أنا أولى الناس بابن مريم فى الدنيا والآخرة .. ليس بينى وبينه نبى .. والأنبياء أخوة دينهم واحد وشرائعهم شتى » والله سبحانه وتعالى يقول الحق وهو يهدى الى السبيل .

مصر الجديدة

فى ٤ جمادى الآخرة ١٤٠٤ هـ — **أحمد حسن الباقورى**

٧ مارس ١٩٨٤ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقــــدمة المؤلفـــين

منذ سنوات أعلن جارودى أنه لم يعد يستطيع التزام الصمت ــ ذلك أنه لاحظ أن الحركة الشيوعية الدولية فى أزمة . من مظاهرها ــ الانفصال الصينى ، غزو تشيكوسلوفاكيا فى عام ١٩٦٨ ، مؤتمر موسكو فى شهر يونيو عام ١٩٦٩ ، وتخلى الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى ــ ذلك التخلى الذى فرض عليه فرضا .

ولم يلبث جارودى أن أعلن ــ الحقيقة كلها ــ فى كتاب يحمل هذا العنوان متجاوزا مراحل فكرية فى مسيرته الخصبة : ليواجه ما سماه حينئذ بالمشكلة الجوهرية التى تفرض نفسها على كل فرد منا فى نهاية القرن العشرين .. وان أدراك هذه المشكلة وشعور الشخص بأن المرء مسئول عن حلها يعتبران شيئا واحدا . ويتوقف على ذلك احتضار عالم أو بعثه من جديد .

هذه المشكلة الجوهرية فى فكر جارودى هى التى قادته الى الاسلام .

ذلك أن جارودى قد نبه الى الطريق المسدود الذى تسير فيــه الشيوعية وكان فى مسيرته الفكرية حريصا على دراسة وسائل الخروج من هذا الطريق المسدود ــ منذ أيقظته من غفوته « الستالينية » فضيحة « البيان السرى » الذى ألقاه خروشوف عام ١٩٥٦ ــ وجعلته ــ كما يقول ــ ينطلق الى البحث عن ملاذ ليقينه من جديد .. فعل ذلك لا عن تصميم بألا يؤمن بشىء بعد ذلك بل تصــميم بألا يؤمن الا وعيونه مفتوحة .

وبهذه العيون المفتوحة استقرأ رروح عصره ، ومن استقرائه ذهب

الى أن التغييرات الكبرى المعاصرة يساعد ادراكها على اجتناب عدد من الأخطاء فى ميدان الثقافة ، ومنها خطأ الاعتقاد بأن الظروف الاقتصادية والاجتماعية للشيوعية يؤدى بالضرورة الى قيام بنيتها الفوقية .. وأن الانسان سيتغير بصورة آلية . ومنها خطأ الاعتقاد بأن الثقافة ليست أكثر من وسيلة لتحقيق الأهداف القصيرة الأجل فى خطة اقتصادية أو مشروع سياسى .

ويرى جارودى فى انحسار الاستعمار عن قارتى آسيا وأفريقيا مغزى تاريخيا عميقا ، هو أن الغرب — أى أوربا وأمريكا الشمالية — لم يعد وحده مركز المبادرة التاريخية كما لم يعد وحده مبتدع القيم والحضارة والثقافة .

يقول جارودى فى كتابه « ماركسية القرن العشرين » :

« ولئن كانت شعوب آسيا وأفريقيا لم تبدع علما تقنيا فى مثل جدوى ما أبدعنا فلن يكون أقل قتلا لروح الانسانية فى عصرنا من منعها على أن تستقصى وتحترم القيم التى أبدعتها شعوب أوقفها الاستعمار عن متابعة نموها وسلبها تاريخها » .. وهذا القول من جارودى فى تقديرنا يمثل كشفا حقيقيا عن تمرده على الماركسية من جهة ، وبداية الانفتاح على الثقافة الاسلامية من جهة أخرى .

ذلك أن جارودى فى هذه المرحلة السابقة على « مبشرات الاسلام ووعوده » اللاحقة ، أعلن ثورته على أنصار السلبية الأحادية المتزمتة ، التى نجد من أمثالها فى « المعجم الفلسفى » المكتوب من وجهة النظر الشيوعية : موسكو ١٩٦٧ — أن الدين لا يزال « أفيون الشعوب » ولا تعرف هذه النظرة الماركسية عن الاسلام الا الهراء الذى سجله المعجم الفلسفى الشيوعى ، وهنا يتكشف لنا مغزى الثورة الجارودية على الماركسية ، والاقبال على الاسلام ثم اعتناقه . ذلك أن القول الماركسى الهراء عن الدين هو أول وصف ينطبق على مذهب كارل ماركس بجميع معانيه ، ذلك أن « الشعور بالمسئولية والمسكرات نقيضان » ، على

حد تعبير العقاد • فما من دين الا وهو يوقظ فى نفس المتدين شعورا حاضرا بالمسئولية فى السر والعلانية • ويجعله على حذر من مقارفة الذنوب بينه وبين ضميره ، ويوحى الى الفقراء والأغنياء على السواء أنهم لن يستحقوا أجرا من السماء بغير عمل وغير جزاء •

ولذلك يؤكد جارودى بعد اسلامه أن « وعى الغرب بكونه مدينا للحضارات الأخرى هو الشرط الوحيد لانقاذه من الانقراض » • ويقول فى الرد على القاموس الشيوعى الأحادى ونظائره ، بعد أن يفند الأكاذيب والمزاعم الخاطئة التى وردت به :

« ان الاسلام هو الحل الوحيد لانقاذ البشرية » التى تقف الآن على المنحنى الخطر فى مواجهة المشكلة الجوهرية التى تفرض نفسها على كل فرد منا فى نهاية القرن العشرين ، ويتوقف على حلها احتضار العالم أو بعثه من جديد •

وتأسيسا على هذا الفهم ، حرصنا فى هذا الكتاب على تتبع الرحلة الجارودية العظيمة من بدايتها فى دياجير الظلام الى منتهاها فى عالم النور ، فى رحاب الاسلام •

وقد اقتضانا المنهج العلمى لدراسة هذه الرحلة أن نقسم هذا الكتاب الى سبعة أبواب ، تناولنا فى الباب الأول منها : الفكر الأوربى وعبقرية الاسلام ، حيث استعرضنا اتجاهات مفكرى العالم نحو الدين الحنيف ، وآرائهم المختلفة فيه وحوله • وانتهينا منه الى دراسة الرحلة الجارودية من الشك الى اليقين ، واستعرضنا أهم كتبه التى تمثل علامات مميزة على طريق الرحلة من القلق والضباب الى سكينة النفس ونور الايمان •

أما الباب الثانى ، فقد خصصناه لدراسة الماركسية ونقد جارودى لها ثم نقضه اياها • حتى يتسنى لنا أن نتعرف على « الحقيقة كلها » فى الباب الثالث •

وفى الباب الرابع ننتقل مع جارودى الى كشف جديد للقناع المزيف للصهيونية وأضاليلها استمرارا لمنهجه النقدى المستنير فى كشف الحقيقة كلها .

ولقد خصصنا الباب الخامس لدراسة الفكر الاسلامى عند جارودى ، والذى أدى اقتناعه به شكلا ومحتوى الى أن يؤكد أن « الاسلام هو الحل الوحيد » .

وختمنا الكتاب ببابين مستفيضين عن الاسلام ومستقبل الحضارة من خلال ما تكشف عنه الرؤيا الفكرية للمفكر الكبير جارودى ، الذى يؤكد لنا أن الاسلام فيه مستقبل الحضارة الجديدة ، ذلك أن الحضارة تنبع من الاسلام عقيدة ومنهج حياة .

ولذلك يشير جارودى باعجاب الى الحديث النبوى الشريف « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » . ويعقب عليه جارودى بقوله : « يعد هذا الحديث النبوى الشريف درسا هاما لكثير من « الثوريين » الذين يحاولون تغيير كل شيء ما عدا أنفسهم !! » .

وهذه الحضارة الجديدة هى حضارة الاسلام » التى تنبع — كما يذهب الى ذلك جارودى — من القرآن الكريم والسنة الشريفة « فهذا الدين ينبذ الازدواجية المزيفة فى شئون العقيدة أو السياسة أو المجد أو الدولة . ولا شك فى مقدرة الاسلام على السيطرة على الأزمة الحضارية المعاصرة « حيث مصير المعمورة مرهون بالاسلام » .

لقد سعدنا فى القاهرة بجارودى فيلسوف الحضارة الجديدة فى رحاب الاسلام : ولا نملك فى هذه المقدمة : الا أن نوجه اليه خطاب الأستاذ الامام محمد عبده الى تولستوى : آملين أن يجد فيه جارودى ما نكنه كمسلمين لكل من ينصف الاسلام ؛ ويهدى الانسانية الى الحضارة الجديدة .. حضارة الاسلام .

يقول الأستاذ الامام محمد عبده :

« أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى ..

« سطع علينا نور من أفكارك ، وأشرقت فى آفاقنا شموس من آرائك ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك ، هداك الله الى معرفة سر الفطرة التى فطر الناس عليها ، ووفقك الى الغاية التى هدى البشر اليها . فأدركت أن الانسان جاء هذا الوجود لينبت بالعلم ، ويثمر بالعمل ، والآن تكون ثمرته تعبا ترتاح به نفسه . وسعيا يبقى ويربى جنسه ، وشعرت بالشقاء الذى نزل بالناس ، لما انحرفوا عن سنة الفطـرة . وحينما استعملوا قواهم التى لم يمنحوها الا ليسعدوا بها فيما كدر راحتهم ، وزعزع طمأنينتهم .

« ونظرت نظرة فى الدين مزقت حجب التقاليد ، ووصلت بها الى حقيقة التوحيد ورفعت صوتك تدعو الناس الى ما هداك الله اليه . وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه . فكما كنت بقولك هاديا للعقول كنت بعملك حاثا للعزائم والهمم ، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى بها الضالون كان مثلك فى العمل اماما يقتدى به المسترشدون » .

وكذلك أنت أيها المفكر الاسلامى الكبير :

رجاء جارودى

مفكر الحضارة الجديدة ..

حضارة الاسلام ..

حضارة الأمس واليوم والمستقبل ..

واننا نقدم هذا الكتاب بالتعاون مع الأستاذ سعيد جوده السحار

صاحب مطبعة ومكتبة مصر نفع الله به الاسلام والمسلمين ، فقد تحمس مشكورا لمضمونه ، وعمل على اخراجه فى وقت قصـــير حتى تتعـرف الأجيال على رحلة من أعظم الرحلات الفـكرية فى التـاريخ .. من الشك الى الايمان .

القاهرة فى ٤ جمادى
الآخرة ١٤٠٤ هـ .
٧ مارس ١٩٨٤ م .

امينـة الصـاوى
و
عبد العزيز شرف

بسم الله الرحمن الرحيم

(أولئـك الذين هـداهم الله
وأولئـك هم أولوا الألبـاب)

« صدق الله العظيم »

الباب الأول

الفكر الأوربى وعبقرية الاســـــلام

تمهيـــــد :

.. أعظم الايمان ما نبع من القلب وأمَّن عليه العقل باقتناع وثقة — وأعظم المؤمنين هم أولئك الذين جمع الله لهم رؤية الحق وقوة الفهم ونفاذ البصيرة ونقاء الضمير وشفافية الروح وقوة الذاكرة فأخضعوا كل هذا لمعرفة الحقيقة وفرضوا على أنفسهم التفكير الصارم الدقيق دون يأس أو ملل حتى وصلوا الى شاطىء اليقين واستقروا على مرفأ الايمان الصحيح ..

واليوم نقدم للقارىء المسلم أنموذجا من نماذج البطولة الشامخة السامقة فى التفكير الانســـانى .. نقدم رجاء جارودى .. المفـــكر الفيلسوف الأديب الناقد السياسى — الذى أنفق من عمـــره أكثر من ثلاثين عاما باحثا منقبا بين الأديان والعقائد والأيدولوجيات المختلفة ثم انتهى به الطواف الى الاسلام حيث أعلن أنه الدين الحق للناس كافة فى كل مكان وزمان . وأن عقيدة التوحيد هى العقيدة المثلى التى لا يصل اليها الباطل ولا يستطيع النيل من قوتها مهما حاول .. وأن مستقبل العالم يقطن فى الاسلام — ثم أكد أن الحلول الاسلامية هى وحدها القادرة على انقاذ المجتمع الانسانى من المشكلات العويصة التى تأخذ بخناقه والأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى تتقاذفه بضراوة — وأن المنهج الاسلامى هو المنهج السليم الذى يتحتم على الانسانية أن

تنهجه وأن تسير على هديه لتحقق أملها فى الحياة الكريمة الآمنة القائمة على العدل والسلام •

لقد اهتم جارودى بالقضايا الانســانية وكان فى كل منها صاحب موقف وكان موقفه ينبثق دائما عن عقيدة — ومن أهم وأبرز مواقفه دفاعه عن انسانية الانسان ومهاجمته للعنصرية بكل صورها — قديما وحديثا — ومطالبته بالمساواة بين البشر وتحقيق العدل والحرية من خلال منهج سليم يربط الأرض بالسماء •

مفكرو العالم يتجهون الى الاسلام

اتجه الى الاسلام قبل جارودى كثير من مفكرى العالم ، والجميل الذى يشد الانتباه حقا هو أن معظمهم من بلد الحرية والاخاء والمساواة — من فرنسا — أول بلد عرف حقوق الانسان وأقرها وعمل على تعميمها وتطبيقها ، ولن نستطيع هنا أن نتحدث عن كل المفكرين العالميين أو الفرنسيين الذين بهرتهم عظمة الاسلام فتوفروا على دراسته سنوات طويلة ثم أعلنوا أنه الدين الأمثل وأهابوا بالانسانية أن تهتم به وتستدرك ما فاتها خلال الثلاثة عشر قرنا الماضية — وقد دخل الاسلام عديد من هؤلاء المفكرين — وقد كتب الجميع مؤلفات عظيمة القيمة ترجمت الى مختلف اللغات وانتشرت فى أنحاء العالم كالفيلسوف موريس بوكاى والدكتور جوستاف ليبون والكاتب العالم كارليل والكونت هندى دى كاسترى واللورد هيدلى والفيلسوف رينيه جينو والفنان دينيه وزميله روبرت ولسلى والدكتور جرنييه ..

لقد اندفع المفكرون الذين أسلموا الى الاسلام اندفاع الظامىء الملهوف القادم من جوف الصحراء القاحلة وقت الهاجرة الى النبع العذب الصافى فارتشفوا من مائه البارد حتى سكن عطشهم ثم نهلوا منه حتى ارتووا فحمدوا الله أن هداهم الى هذا النبع بعد رحلتهم الطويلة المضنية .

لورد هيــــدلى

يقول لورد هيدلى : « فكرت وابتهلت أربعين عاما لكى أصل الى حل صحيح — ولابد أن أعترف أن زيارتى للشرق ملأتنى احتراما للدين المحمدى السلس الذى يجعل الانسان يعبد الله حقيقة طول مدة الحياة لا فى أيام الآحاد فقط وأنى أشكر الله أن هدانى للاسلام الذى أصبح حقيقة راسخة فى فؤادى فقد التقيت بسعادة وطمأنينة لم أعرفها من قبل •• أصبحت كرجل فر من سرداب مظلم الى فسيح من الأرض تضيئه شمس النهار وأخذ يستنشق هواء البحر النقى الخالص » •

ويشيد لورد هيدلى بالاسلام فيقول : « لا يوجد فى الاسلام غير اله واحد • نعبده ونتقيه أنه أمام الجميع وفوق الجميع وليس هناك قدوس آخر نشركه معه •• وأن المدهش حقا أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والألباب على هذا القدر من الغباوة فيسمحون للمعتقدات والحيل الكهنوتية أن تحجب عن نظرهم رؤية السماء •• رؤية ربهم القاهر المتصل دواما بكل مخلوقاته سواء أكانوا عاديين أم أولياء مقدسين •• مفتاح السماء موجود دائما فى مكانه ويمكن ادارته بأقل المخلوقات دون مساعدة نبى أو كاهن أو ملك •• انه كالهواء الذى نستنشقه مجانا لكل خلق الله •• أما هؤلاء الذين يجعلون الناس يفهمون غير ذلك فهم أصحاب منفعة وما دعاهم الى هذا العمل الا حب الفائدة •• ليس غرضى الرئيسى أن أهاجم أى فرع من فروع الديانة لأبين جلال وســلاسة الديانة الاسلامية — ولكن الكثيرين قد افتروا على الاسلام ولا يسعنى الا أن أقول ان هؤلاء المفترين لم يتعلموا — حتى — ولا أول مبادىء دينهم والا لما جرءوا على أن ينشروا فى جميع أنحاء العــالم تقارير يعرفون جيدا أنها محض كذب واختلاق •

ان تعاليم القرآن الكريم قد نفــذت وموروست فى حيــاة محمد

الذى — سواء فى أيام تحمله الألم والاضطهاد أم فى زمن انتصاره ونجاحه — أظهر أشرف الصفات الخلقية التى لا يتسنى لمخلوق آخر اظهارها — فكل صفات الصبر والثبات فى عصره كانت ترى أثناء الثلاث عشرة سنة التى عاناها بمكة فى البداية دون أن تتزعزع ثقته بالله أو يتراجع عن تأدية واجبه بشمم وحمية ، كان صلى الله عليه وسلم مثابرا جامدا لا يخشى أعداءه .

لقد أثارت تلك الشجاعة التى لا تعرف الجفول — تلك الشجاعة التى كانت حقا احدى مميزاته — اعجاب واحترام الكافرين وأولئك الذين تمنوا قتله ومع ذلك فقد انتبهت مشاعرنا وازداد اعجابنا به بعد ذلك فى سنواته الأخيرة عندما حقق الانتصار وأصبحت له القوة والمقدرة على الانتقام والأخذ بثأره فلم يفعل .. بل عفا عن جميع أعدائه — ولقد أدى هذا التصرف منه الى أن يفضل العديد من الكافرين دين الاسلام على معتقداتهم — عفا عن الذين اضطهدوه وعذبوه وآوى الذين نفوه من مكة وأحسن الى فقرائهم وصفح عن أخطائهم بينما حياتهم فى قبضة يده وتحت رحمته — تلك الأخلاق الربانية التى أظهرها النبى الكريم أقنعت العرب بأن صاحبها لا يمكن أن يكون الا من عند الله وأن يكون رجلا على الصراط المستقيم حقا — وتلك الأخلاق الربانية هى التى حولتهم من أشد البغض والكراهية الى الصداقة المتينة والمحبة الصادقة » .

ويتحدث لورد هيدلى عن شخصية محمد بن عبد الله باعتبارها المثل الكامل فيقول « نحن نعتبر أن نبى بلاد العرب الكريم ذو أخلاق متينة وشخصية حقيقة وزنت واختبرت فى كل خطوة من خطى حياته ولم نر فيه نقصا على الاطلاق — وبما أننا نحتاج الى نموذج كامل يفى بحاجاتنا فى خطوات الحياة — فحياة النبى المقدس تسد تلك الحاجة — فهى كمرآة تعكس علينا التعقل الراقى والسخاء والكرم والشجاعة والاقدام والصبر والحلم والوداعة والعفو وباقى الأخلاق الجوهرية التى تكون الانسانية ونرى ذلك فيها بألوان وضاءة » .

كارليـــــل

أما كارليل الكاتب الانجليزى الذى أغرم بالبطولة وتتبع أصحابها فى مختلف المجالات فقد أودع كتابه « الأبطال » فصلا كاملا عن رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم طالب فيه المتحدثين من أبنـــاء جيله أن لا يصغوا الى ما يشاع عن الاسلام من أكاذيب وما ينشر عن نبيه من افتراءات وادعاءات وطالبهم بأن يحاربو' هذه السخافات مؤكدا لهم أن الرسالة التى جاء بها محمد بن عبد الله « ظلت سراجا منيرا أربعة عشر قرنا من الزمان لملايين كثيرة من الناس » ثم يسألهم : « أمن المعقول أن تكون هذه الرسالة التى عاشت عليها تلك الملايين وماتت أكذوبة أو خديعة ؟ وهل رأوا رجلا كاذبا استطاع أن يخلق دينا وأن يتعهده بالنشر على هذه الصورة التى انتشر بها الاسلام ؟ » ثم يقول : « ما الرسالة التى أداها محمد الا الصدق والحق وما كلمته الا صوت حق صادر من العـــالم المجهول .. وما هو الا شهاب أضاء العالم أجمع . ذلك أمر الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .. لقد أحببت محمدا لخلو نفسه من الرياء والنفاق وبراءتها من التصنّع والطمع وحب الدنيا .. لقد كان منفردا بنفسه العظيمة وخالق الكون والكائنات وقد رأى سر الوجود يسطع أمام عينيه بأهواله ومحاسنه — وقد جاء صوته من قلب الطبيعة الصحراوية النقية الطاهرة لهذا دلف من الآذان الى القلوب واستقرت كلماته فيها .. لم يكن محمد متكبرا ولا ذليلا ولم يرض بالأوضاع الكاذبة ولم يتحرك خوف الأوهام الباطلة ومن مكانه المتواضع وثوبه المرقع خاطب الملوك والقياصرة والأكاسرة موجها ومرشدا ومنذرا أيضا لم يخش فى الحق لومة لائم ولم يقبل ما عرض عليه من مال وجاه وسلطان وعاش زاهدا متقشفا مجتهدا فى الله عاملا على نشر دينه غير عابىء بما يلاقى من أهوال وما يعترض سبيله من عقبات حتى مكن الله للدين الحق فى الأرض فانتشر وازدهر .

رينيــه جينيــو

ومن الذين أحدث اسلامهم ضجة كبرى فى أوربا وأمريكا وكان سببا فى دخول الكثيرين الى الاسلام وارتباطهم فى جماعات وجمعيــات الفيلسوف « رينيه جينيو » الذى تسمى بعد اسلامه باسم « عبد الواحد يحيى » •

يقول عنه الشيخ عبد الحليم محمود فى كتابه أوربا والاسلام : « لقد أراد أن يعتصم بنص مقدس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فلم يجد ــ بعد دراسة عميقة ــ سوى القرآن فهو الكتاب الوحيد الذى لم ينله التحريف ولا التبديل لأن الله تكفل بحفظه وقد حفظه حقيقة « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » لم يجد رينيه جينيو ــ أو عبد الواحد يحيى سوى القرآن نصا مقدسا صحيحا فاعتصم به وسار تحت لوائه فغمره الأمن النفسى والسكينة الروحية فى رحاب الفرقان •

وقد ألف عبد الواحد يحيى الكثير من الكتب من بينها « أزمة العالم الحديث » الذى تحدث فيه عن المعاناة الرهيبة التى تعانى منها أوربا بعد أن انحرفت عن الجادة وابتعدت عن طريق الله فغرقت فى بحار المادية والالحاد والانحلال والدمار الخلقى •

ومنها كتابه « الشرق والغرب » الذى أشاد فيه بمكانة الشرق وبين أنه أصل الحضارة فى العالم ومنبع التفكير ومهد العلوم والفنون ومصدر المبادىء الانسانية الرفيعة ثم قارن بينه وبين الغــرب وقام بتعــرية المجتمعات هناك وأوضح ما هى عليه من خواء روحى وضراوة مادية أدت الى سحق الانسان وتدمير كل القيم والمثل فى نفسه •

واذا كان الاستعمار قد دأب على تغطية أمجاد الشرق والحط من قدر الحضارة الشرقية والتقليل من شأن كل الجماليات التى جاء بها

الاسلام خاصة فان عبد الواحد يحيى قد تعمد الكتابة فى هذا مرات كثيرة قلب فيها الوضع رأسا على عقب وبين للشرقيين قدرهم وعرفهم بقيمتهم وأنهم منبع النور والهداية ومشرق الوحى والالهام ثم كتب فى « الثقافة الاسلامية وأثرها فى الغرب » وقال لولا علماء الاسلام وفلاسفتهم لظل الغربيون يتخبطون فى دياجير الجهل والظلام •

مايكل هارت

وفى كتاب « الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله » الذى وضعه مايكل هارت وترجمه أنيس منصور — والمؤلف ليس مسلما ولكنه باحث أمريكى استعرض عظماء التاريخ جميعا ثم اختار منهم محمداً صلى الله عليه وسلم ليكون أعظم العظماء •

يقول المؤلف : « ان محمدا عليه السلام هو الانسان الوحيد فى التاريخ الذى نجح نجاحا مطلقا فى المجال الدينى والدنيوى فهو قد دعا الى الاسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات وأصبح قائدا سياسيا وعسكريا ودينيا ورغم مرور ١٣ قرنا على وفاته فان أثره لا يزال قويا متجددا — وقد استطاع المؤمنون بدعوته أن يقيموا امبراطورية واسعة ممتدة من حدود الهند حتى المحيط الأطلسى وهى أعظم امبراطورية أقيمت فى التاريخ حتى اليوم وقد نشروا الاسلام فى كل بلد دخلوه ورغم انفصال بعض البلاد عن تلك الامبراطورية فان الاسلام بقى فيها واستقر وانتشر منها الى غيرها •

والرسول محمد صلى الله عليه وسلم هو المسئول الأول والأوحد عن ارساء قواعد الاسلام وأصول الشريعة والسلوك الاجتماعى والأخلاقى وأصول المعاملات بين الناس فى حياتهم الدينية والدنيوية كما أن القرآن قد نزل عليه وحده •• وفى القرآن الكريم وجد المسلمون كل ما يحتاجون اليه فى دنياهم وآخرتهم •

دكتـــور جرنييـــه

أما الدكتور جرنييه فيقول عن سبب اسلامه : « انى تتبعت كل الآيات القرآنية التى لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية التى درستها من صغرى وأعرفها جيدا فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة •• وقد أسلمت لأنى تيقنت أن محمدا صلى الله عليه وسلم أتى بالحق الصراح من قبل ألف سنة دون معلم أو مدرس من البشر — ولو أن كل صاحب فن من الفنون أو علم من العلوم قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم كما فعلت أنا لأسلم بلا شك ان كان عاقلا خاليا من الأغراض •

الفـــونس اتيين دينيـــه

أما ألفونس اتيين دينيه فهو واحد من كبار الفنـــانين المصـــورين العالميين — وقد اهتم بالحياة العربية وعكف على تصويرها حتى أطلقوا عليه اسم المصور العربى — وقد أسلم بعد سنوات طويلة قضاها مع المسلمين فى الجزائر — ويذكر الشيخ عبد الحليم محمود أنه كان كثير التفكير جم التأمل يسرح بخياله فى ملكوت السموات والأرض يريد أن يخترق الحجب ليصل الى الله ••

وقد اقترن فيه الفن بالدين فكان مثالا واضحا للانسان الملهم •• كان يفكر فى لوحاته ويفكر فى مصيره ويعمل جاهدا ليبلغ الذروة فى الفن ويعمل جاهدا لازالة الظلمة المتكاثفة فى دائرة اللانهاية •• والشك القاتل الذى يعصف بروحه فى الديانة التى فرضت عليها ثم وقعت فى يده نسخة من مجلة انجليزية فاذا فيها سؤال يقول : « لماذا صار بعض

الانجليز وغيرهم من الأوربيين مسلمين ؟ » واذا الاجابة : « ذلك لأنهم كانوا يتلمسون عقيدة سهلة عملية فى جوهرها ملائمة لأحــوال جميع الشعوب وعاداتهم وأعمالهم •• عقيدة دينية يقف بها الخالق أمام المخلوق دون وسيط » •

اهتم دينيه بما قرأ وأخذ يبحث الأمر ثم سافر الى الجزائر واختلط بالمسلمين فيها وناقشهم وسمع منهم وتأمل وفكر ثم اهتدى وأصدر رسالته « أشعة خاصة بنور الاسلام » ثم « حياة العــرب » فكتاب « السراب » فكتاب « ربيع القلوب » فكتاب « الشرق كما يراه الغرب » ثم كتابه الضخم عن السيرة النبوية وكتابه « الحج الى بيت الله الحرام » •

يقول دينيه : « العقيدة المحمدية لا تقف عقبة فى سبل التفكير •• قد يكون الانسان صحيح الاسلام وفى الوقت نفسه حر التفكير » •

ويقول : « الدين الاسلامى لم يتخذ فيه الاله شكلا بشريا أو ما الى ذلك من الأشكال — ان ياهو الذى يمثل به اليهود طهارة التوحيد يجعلونه فى مظاهر متهالكة وكذلك نراه فى متحف الفاتيكان وفى نسخ الأناجيل المصورة — أما الله فى الاسلام فقد حدثنا عنه القرآن ولم يجرؤ مصور أو نحات أن تجرى به ريشته أو ينحته أزميله — ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لا صورة له ولا حدود محصورة وهو الواحد الأحد الفرد الصمد لم يكن له كفوا أحد » •

ويتحدث دينيه عن الصلاة والنظافة فيقول :

« ان الحركات والاشارات فى الصلاة الاسلامية هى ذات بساطة ولطافة ونبالة ولم يسبق لها مثيل من نوعها فى صلاة غيرها كما أنها لا تدعو الوجوه الى التظاهر والتكلف ولا العيون بالشخوص الى السماء واستنزال الدموع التى تذكرنا بالدموع الجلسرينية التى يفتعلها ممثلو السينما — حقا أن الصورة الاسلامية خالية من تلك الأمور الشائنة ، والأقوال والحركات التى فى الصلاة الاسلامية ذات دلالة على الرزانة

والهدوء والاطمئنان وهى خالية من مبالغات الورع وتكلف الخضـوع والتظاهر بذلك — لأن الله سبحانه وتعالى عليم بذات الصدور وهو الغنى الحميد » ٠

وعندما أسلم دينيه اختار لنفسه اسم ناصر الدين وخصص حياته لنصرة الدين سياسيا وعلميا ، لأنه وجد أن عنصرين هامين من عناصر الشر يتألبان على الاسلام ويهاجمانه فى عرينـه (رجال السياسـة الاستعماريون ورجال الدين المتعصبون) ٠ ولما كان دينيه من غير محترفى السياسة فقد لجأ الى كل منصف من ذوى النفوذ واجتهد لكى يجعله يتبنى قضية الشرق المظلوم ٠٠ ومن أمثلة ذلك كتاب « استعباد الاسلام » لمسيو أوجين يونج وكيل حكومة التونكين الفرنسية سابقا — وهذا الكاتب معروف أنه من خيرة الفرنسيين وفى كتابه يقول : « اننا نهيىء من اليوم مقدمات حرب دينية شديدة الفزع والهول » ٠ ثم أظهر أن مصالح فرنسا الحيوية انما هى فى التفاهم والاتفاق الودى مع الاسلام ٠

كذلك أخذ دينيه ينشر ما يصحح فكرة الأوروبيين عن الشـعوب الاسلامية وبين أنها بعيدة كل البعد عن الهمجية والتوحش — وأنها تمتاز بالوفاء وعرفان الجميل والكرم والشجاعة والفضائل المحمودة ويبين أن ماضيها المجيد خير نبراس يرسل أشعته على الفكرة الخاطئة الموجودة عند الغربيين ٠

ومن ألذع توجيهاته للفرنسيين فى هذا الميدان أنه حينما ألف كتابه فى السيرة النبوية أهداه لأرواح الجنود الذين استشهدوا فى الحرب الكبرى وهم يحاربون فى صفوف الفرنسيين ٠

هذا وقد أخذ يصول ويجول فى ميدان الدفاع العلمى عن الاسلام باعتباره دينا سماويا ومما زاد من قيمة دفاعه تلك الموازنات الكثيرة الدقيقة بين الاسلام والمسيحية فى كثير من الأصول وفى كثير من الفروع ولكنه كان يعلن دائما — شأن كل مسلم — احترامه للمسيح عليه السلام لأنه رسول الله ويعلن احترامه للمسيحية التى تحدث عنها القرآن ، كذلك

كان يعلن أن دين الله واحد وأن الاسلام جاء مصدقا لما سبقه مصححا لما ناله من تحريف وقد وعد الله بحفظ القرآن الكريم بقوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » ، فالقرآن الكريم فى عصرنا الحاضر هو الكتاب السماوى الوحيد الذى لم ينله ولن يناله تحريف أو تبديل .

وظل دينيه يصحح الأخطاء ويرد هجوم أعداء الاسلام ويناضل عن المسلمين كشعوب الى عام ١٩٢٨ حيث قام بأداء فريضة الحج ووضع كتابه « الحج الى بيت الله الحرام » . وفى ديسمبر ١٩٢٩ توفى بباريس وصلى عليه جمع من المسلمين بمسجدها الكبير ثم نقل جثمانه الى الجزائر حيث دفن فى المقبرة التى بناها لنفسه فى بلدة (بوسعادة) .

تولستوى

ولابد لنا هنا أن نذكر تلك الكلمة التى دافع بها أديب روسيا وكاتبها الكبير — تولستوى — عن الاسلام عندما رأى سهام الظلم توجه اليه من كل جانب .. لقد كتب رأيه مؤكدا أنه قد أحب الاسلام وأحب رسوله وأنهما معا قد نالا اعجابه واكباره — قال تولستوى :

« لا ريب أن هذا النبى من كبار المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ويكفيه فخرا أنه هدى أمة برمتها الى نور الحق وجعلها تجنح الى السلام وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا — ويكفيه فخرا أنه فتح طريق الرقى والتقدم وهذا عمل عظيم لا يفوز به الا شخص أوتى قوة وحكمة وعلما ورجل مثله جدير بالاحترام والاجلال » .

وقد كتب اليه الامام الشيخ محمد عبده يقول :

« أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى — لم نحظ بمعرفة شخصك ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك . سطع علينا نور من أفكارك

وأشرقت فى آفاقنا شموس من آرائك ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك هداك الله الى معرفة سر الفطرة التى فطر الناس عليها ووفقك الى الغاية التى هدى البشر اليها فأدركت أن الانسان جاء هذا الوجود لينبت بالعلم ويثمر بالعمل ولأن تكون ثمرته تعبا ترتاح به نفسه وسعيا يبقى ويربى حسه • وشعرت بالشقاء الذى نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة وحينما استعملوا قواهم التى لم يمنحوها الا ليسعدوا بها فيما كدر راحتهم وزعزع طمأنينتهم •

ونظرت نظرة فى الدين مزقت حجب التقاليد ووصلت بها الى حقيقة التوحيد ورفعت صوتك تدعو الناس الى ما هداك الله اليه وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه ـ فكما كنت بقولك هاديا للعقول كنت بعملك حاثا للعزائم والهمم • وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى بها الضالون كان مثالك فى العمل اماما يقتدى به المسترشدون •• وكما كان وجودك توبيخا من الله للأغنياء كان مددا من عنايته للضعفاء والفقراء ـ وان أرفع مجد بلغته وأكبر جزاء نلته على متاعبك فى النصح والارشاد هو هذا الذى سماه الغافلون بالحرمان والابعاد فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين ـ فاحمد الله على أن فارقوك فى أقوالهم كما كنت فارقتهم فى عقائدهم •

هذا وأن نفوسنا لشيقة الى ما يتجدد من آثار قلمك فيما تستقبل من أيام عمرك وانا نسأل الله أن يمد فى حياتك ويحفظ عليك قواك ويفتح أبواب القلوب لفهم قولك ويسوق النفوس الى التأسى بك فى عملك والسلام .» •

بعد هذه الرحلات السريعة مع ذلك البعض من مفـكرى الغرب الذين أسعدهم الحظ فدخلوا رحاب الدين الحق واغتسلوا بأنوار هديه فأصبحوا الأوائل بين أقوامهم والطلائع المبشرة لهم بالخلاص من معاناة مريرة طال أمدها واشتد ألمها •

بعد هذه الرحلات آن لنا أن نبدأ رحلتنا مع المفكر الفرنسى جارودى •

(جارودى)

من الشك الى اليقين

من يقرأ رواية جارودى المسماة ...

(Qui dires — Vous que Je suis)

(من أكون فى اعتقادكم) . . .

من يقرأ هذه الرواية التى كتبها صاحبها بضمير المتكلم يشعر أن فيها شيئا من نفسه .. انه يتحدث عن تلك النفس خاصة فى فترة الطفولة المبكرة .

يقول جارودى : « .. كانت المدرسة كما لو أنها لن تنتهى أبدا .. فى البدء كانوا يعلموننا القراءة .. ليس فى الأشياء .. بل فى الكتب بحكايات بلهاء .. حكايات حيوانات لا تعنى لنا شيئا .. الأرانب هى الوحيدة التى جذبت اهتمامى .. وكنت قد رأيت بعضها فى المتجر الكبير مغلفة بالسيلوفان وكنت أظن أن ذلك اللحم بلون الثمر كان ينبت على شجرة كالبرتقال أو الكريز .. وحين قال لى أبى ان الأرانب كانت تجرى فى الحقول وأنهم قتلوها .. بكيت » .

طفل مرهف الحس رقيق الشعور فياض العاطفة — هكذا كان جارودى فى طفولته ، ولنعد الى الرواية لنسمعه يقول : « وكان هناك بعد ذلك درس اللاتينية .. لا شىء فيه يشبه حياتى .. ليس من انسان فى هذه الكتب أستطيع أن أحبه » نقطة البداية فى خط التمرد .. لقد بدأ الطفل الصغير يعى ما يقدم له من غذاء فكرى ويبدأ يرفض الاقبال على ما لا يتلاءم وفطرته النقية ، ولنتابع الرواية معه .. « ثم وضعونى فى المدرسة الاكليريكية من غير أن يسألونى رأيى والحق أنى لم أكن معارضا فى البدء على الأقل ولكنى كنت أطرح على نفسى العديد من الأسئلة وكنت آمل أن يساعدونى فى الاجابة عليها . وقد بدأت المغامرة بداية جيدة مع معلم « العهد الجديد » الأب كريستوف — كان الانجيل يشحذ أسئلتى

التى كنت أطرحهـا ولكن الآخـرين كانت لديهـم الاجابة على كل شيء الا الأسئلة التى كنت أطرحها على نفسى — وكانت لديهم مقدرة على معالجة الأمر جعلتنى فى النهاية أحس بأنى مذنب حين أطرحها •• » •

لقد شب الصبى على الطوق وبدأت عقليته تنضج وتتفتح وازدادت فطرته النقية نفوراً من الواقع المحيط بها ورفضا له وهكذا ازداد خط التمرد وضوحا وتحققا عند جارودى •

ومرة أخرى نتابع الرواية مع جارودى « •• والأسوأ كان مدرس الفلسفة — كان ابان آزمة — هوس اللغة — بكل ظروفها المضحكة •• فى أحد الأيام أحصينا احدى عشرة كلمة — مقالة — فى دقيقتين مقالة ماركس مقالة يسوع المقالة الشعرية •• المقالة از •• ال •• حتى ليحسب المرء أن العالم مصنوع من المقالات) •

قضى الأمر •• أصبح الصـبى فتى وأصبح التمرد أهم صـفاته •• ودرج نحو الشباب بنفس حائرة قلقة لا تجد من يهديها أو يضع حدا لحيرتها وقلقها •• كان أبوه وأمه بلا دين •• والبيئة التى يعيش فيها لا تعترف بالاديان ومع الأيام ازدادت حيرته وازداد قلقه ولم يلبث الضياع أن احتواه فعاش فى دوامته سنوات أفاق بعدها ليجد نفسه قد أتم العشرين من عمره ويجد السحب الثقيلة السوداء تزحف على العالم •• لقد سيطر هتلر على ألمانيا وأخذ يستعد للسيطرة على العالم •

هنا اندفع جارودى الى المسيحية بمنتهى الحماس والقوة •• قد يكون ذلك تمردا على الأب والأم والبيئة •• وقد يكون رد فعل لسنوات الضياع أو رغبة فى الانتماء الى شيء له صلة بالسماء •• وأخيرا قد يكون السبب رغبته فى مواجهة النازية مستندا الى قوة الكنيسة التى تزداد فى فترات الحروب والصراعات الدموية •

ومهما كان السبب فقد تصدى جارودى للنازية وعاداها معاداة كبيرة وقاسية ولم يكن فى ذلك معاديا للفكر الألمانى ولكن معاداته قامت على

كراهية الفرنسى الوطنى لفكرة عنصرية تدعى أن الجنس الآرى هو الجنس الأفضل والمتميز بين أجناس العالم ومن هنا يتضح لنا مدى كراهية جارودى للعنصرية أيا كان نوعها ومصدرها وحبه للعدل وحرصه على قيام المساواة بين الانسان وأخيه الانسان •

وأثناء الصراع الرهيب الذى كان دائرا بين النازية ودول أوربا كان هناك صراع رهيب آخر يدور داخل نفس جارودى •• لقد عادت تلك الأسئلة التى سألها وهو صبى ثم وهو فتى — عادت تلح فى طلب الاجابة المقنعة •• بل ان أسئلة أخرى وقفت الى جوارها •• أسئلة أكبر وأخطر أثارها نضج فكره وازدياد وعيه بعد أن أصبح شابا يقترب من الثلاثين ويعمل فى المجال الدينى •

أعاد قراءة الأناجيل من جديد فلم يقع على بغيته واصطدم بأمور أكثر غموضا أثارت مزيدا من الأسئلة الملحة •• بلغ الصراع بينه وبين نفسه القمة فاستنجد بالعقل يستمد منه العون ولكن العقل لم يسعفه • لقد كان عاجزا ولم يستطع قيادته الى النور ••

هنا •• قرر جارودى حسم الموقف مع نفسه •• قرر أن يطلق المسيحية طلاقا بائنا وقد فعل وانطلق يعدو بكل قواه نحو الماركسية •• وهنا كانت النازية قد طغت وبغت وبطشت بطش جبار عنيد واعتلى هتلر جبلا من جماجم ضحاياه وراح ينعق مؤكدا عظمة الجنس الآرى وتميزه وجدارته بأن يسود العالم •

دخل جارودى الحزب الشيوعى الفرنسى والعالم يعيش مأساة النازية وفى الوقت نفسه يوشك أن يختنق بالأزمة الاقتصادية التى أوصله اليها النظام الرأسمالى وكانت الشعارات الماركسية تبرق أمام الأعين فى تلك الفترة مدعية أنها تستطيع انقاذ البشرية من كل الشرور وأنها صانعة المستقبل الأفضل للملايين الكادحة فى مجتمع تتحقق فيه العدالة والمساواة والحرية والحياة الانسانية الكريمة بصفة عامة •

أصبح جارودى بعد ارتباطه بالحزب الشيوعى الفرنسى فى مقدمة

المقاومين للنازية من أصحاب الفكر وكان مفكرو العالم قد إتحدوا ضدها وأخذوا يوجهون سهامهم اليها فقد كتب ألبير كامى كتابه عن الثورة وقرر فيه أن النازية قد هزمت أيدلوجيا قبل أن تهزم عسكريا وعلل ذلك بأنها ارتكزت على نظرة عنصرية محدودة الأفق ضيقة النفع وسلحت نفسها بأسلحة عسكرية ضخمة كانت من الأسباب الأولى لهزيمتها — فالقوة القاهرة لا تحسم المواقف عندما يكون الصراع بين الحضارات أو المذاهب ولكن الحسم يتوقف دائما على طبيعة الحضارة أو المذهب — وقد كانت النازية عنصرية تعصبية حاكمة — وكانت الماركسية فى مظهرها الخادع انسانية تحررية تتجه الى العامل بصرف النظر عن وطنه — وقد أصدر جارودى فى هذه الفترة كتابه (التغير المادى لنظرية المعرفة) وازداد حماسه للماركسية وبدأ يجتهد ليحقق التطبيق الفعلى للماركسية ولكنه فوجىء بأمور لم يكن يتوقعها على الأطلاق •• فوجىء بافلاس الماركسية وعجزها عن تحقيق ما ادعته لنفسها من قدرة على اسعاد البشر وخلق مجتمع بلا طبقات كما فوجىء بأن القيادة الجماعية خرافة لا جود لها فى الواقع وأن القيادة الماركسية قائمـــة على ديكتاتورية الفرد والحـــزب والأيدلوجية وفى سبيل الاحتفاظ بها على هذا الوضع لابد من استعمال كافة وسائل الأرهاب والتعذيب والتجويع واهدار الكرامة الأنسانية •

فوجىء بأن العدالة والحرية كلمات جوفاء لا تحمل أى معنى وأن الظلم وسلب الحريات هما البديل لهما واكتشف جارودى أن الفكر الذى يرفض الدين فى قداسته ويحارب الكنيسة فى تمجيدها للمسيح هو نفسه الذي يضفى القداسة على زعماء الماركسية ويمجدهم ويفرض على الجميع أن يقدموا لهم فروض الولاء والطاعة العمياء والتسليم الكامل الشامل •

بل لقد اكتشف جارودى ما هو أدهى وأمر اكتشف أن هذا الفكر يحيط صاحبه بسياج من حديد ويرفض بمنتهى القسوة والعنف أن يسمح لواحد ماركسى أن يطلع على أى فكر آخر مهما كان •• أو يشغل تفكيره بطريقة أخرى غير التى اختطتها له الماركسية ومن يجرؤ على التفكير فالويل له •• ثم الويل •

أحس جارودى بخيبة أمل كبرى وبدأ يفكر فى الانسلاخ عن الحزب الشيوعى ولكنه تريث وأخذ يتلفت حوله باحثا عن مرفأ أمين لسفينته التى تتقاذفها الأمواج المتلاطمة من كل جانب •• استدار الى التاريخ والحضارات الانسانية القديمة والأديان الثلاثة وراح يعيد فيها النظر والتأمل والتفكير •• وقبل أن يصل الى نتيجة اشتبك فى خلافات مع بعض المذاهب التى طغت على السطح فى ذلك الوقت كالوجودية والفوضوية وغيرها من مذاهب ذوى العاهات وما كاد يفيق من هذا حتى بدأت أزمته الكبرى داخل الحزب الشيوعى الفرنسى الذى كان قد استكمل مقوماته واستمد من مقاومته للنازية قوة هائلة فتحت له الطريق الى الحكم •

وهنا ألف جارودى كتابه « التحول الكبير للاشتراكية » الذى قدمه بقوله : « لم يعد من الممكن التزام الصمت •• ان الحركة الشيوعية الدولية فى أزمة ومن الظواهر الواضحة على ذلك الانفصال الصينى ، غزو تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ ، مؤتمر موسكو فى شهر يونيو عام ١٩٦٩ وتخلى الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى — ذلك التخلى الذى فرض عليه فرضا — عن الاحتجاجات التى صدرت فى شهر أغسطس ١٩٦٨ •

هناك مشكلة جوهرية تفرض نفسها على كل فرد منا فى نهاية هذا القرن العشرين ، وان ادراك هذه المشكلة والشعور الشخصى بأن المرء مسئول عن حلها ، يعتبران شيئا واحدا ويتوقف على ذلك احتضار العالم أو بعثه من جديد •• وهذه المشكلة تفرض نفسها على المستوى العالمى وهى لا تخص الشيوعيين وحدهم لأن ليس هناك انسان فى هذا العالم لا يهمه حلها » •

ويستمر جارودى فى تقديم الكتاب فيقول :

« ان نقطة بداية هذه التأملات هى ربيع ١٩٦٨ المزدوج — ربيع باريس وربيع براج — هناك أولا التنبه الى الطريق المسدود الذى تسير فيه السياسة الفرنسية ودراسة وسائل الخروج من هذا الطريق المسدود

فليس أقل غرائب السياسة الفرنسية الحالية أن تكون المعارضة فيها تمثل الأغلبية وتتسم بالعجز فى الوقت نفسه .. ولهذا فهى لا تستطيع غير احراز انتصارات سلبية دون أن تتوصل الى بناء المستقبل .

لقد هبت فى شهرى مايو ويونيو عام ١٩٦٨ جميع القوى الحية فى الأمة — أى قرابة عشرة ملايين كانوا فى حالة اضراب تام وجموع من الطلبة والمثقفين والموظفين ثم الفلاحين — وقد أدانت الحركة نظام السلطة الشخصية ورأس المال الذى هو تعبير عنها . وأجريت بعد بضعة أسابيع انتخابات أحرز خلالها الحزب الذى يجسد النظام نصرا كبيرا .

وفى عام ١٩٦٩ أجبر الجنرال ديجول بعد استفتاء حصلت فيه كلمة « لا » على أغلبية الأصوات — أجبر على الانسحاب وبعد شهر انتخب خليفته المباشر رئيسا للجمهورية — وهناك وضع غريب مشابه داخل المعارضة فالحزب الشيوعى يتمتع داخل هذه المعارضة بالأغلبية ولكنه يتميز بالعجز فى الوقت نفسه — لقد حصل على النجاح فى الانتخابات التشريعية وانتخابات الرئاسة وهو حزب المعارضة الوحيد الذى لم يتهدم وقد نجح فى تدعيم مواقعه ولكنه وجد نفسه كقلعة معزولة بدون أى قوة منظمة خارجه أو الى جانبه فمن يستطيع هنا أن يأخذ المبادرات الضرورية للخروج من الطريق المسدود ؟ » .

ثم يستعرض جارودى أوضاع الشيوعية فى مختلف البلاد فيقول : « فى أمريكا اللاتينية لم تنجح حتى الآن سوى ثورة اشتراكية واحدة فى كوبا ولم يكن الحزب الشيوعى — على الرغم من قوته — هو محركها .. وفى أفريقيا السوداء حيث الحركات الوطنية المناهضة للاستعمار — — فى نضال مع الاستعمار الجديد بقوته وثرائه ودهائه — لا توجد عمليا أحزاب ماركسية .. وفى العالم الاسلامى تتخطى الحركة الوطنية وحتى الاشتراكية بدورها الأحزاب الشيوعية .. أما فى آسيا فتتخذ المشكلات طابعا مأساويا بسبب المواقف الارادية للحـزب الشـيوعى الصينى الذى يهدف الى تحقيق سيطرة عالمية للحركة الشيوعية . لقد

قضى على الحزب الشيوعى الاندونيسى والانقسامات ستقضى على الأحزاب الشيوعية الأخرى خاصة فى الهند واليابان •• ان أسمى تأكيد لحيوية الحركة يعطيه الشيوعيون الفيتناميون الذين يقفون بنجاح فى وجه أقوى امبرياليات العالم ولكن مقابل تضحيات لا حصر لها » •

ويستمر جارودى فى النقد المرير ثم ينتقل الى التحذير فيقول : « ومن الواجب أن نحاذر من « نزعة النصر » التى نجدها وراء العديد من فقرات « الوثيقة » التى تمخض عنها مؤتمر موسكو ثم يطلب معالجة المشكلات الحقيقة ليس فقط بالاعتراف وتحليل الأسباب العميقة للتناقضات القائمة بين الدول الاشتراكية بل بالبحث عن الأسباب التى تدفع بالعديد من القوى الثورية الى تخطى الأحزاب الشيوعية فقد أصبحت هذه « المراجعة الأليمة » ضرورية من الآن فصاعدا للشيوعيين ولغير الشيوعيين وللمعادين للشيوعية •• ذلك أنه يجب طرح المشكلة بكل عمومياتها بعد أن تزايدت امكانيات الانسان خلال عشرين سنة عنها خلال آلاف السنين » •

ثم يتساءل جارودى — ماذا فعلوا فى الدول الرأسمالية من أجل تكييف العلاقات الانسانية مع هذا التحول الضخم ؟ وماذا تم فى الدول الاشتراكية حيال الموضوع نفسه ؟

ثم يقرر جارودى أن الانتصار على « اللانهائيات » الثلاث قد قطع مرحلة حاسمة •

وفى ذلك يقول : « عند مستوى أصغر « اللانهائيات » فتحت السيطرة على الطاقة الذرية عهد التفتت المدروس للمادة الأمر الذى يتيح من الامكانيات قدرا تتلاشى معه الحدود أمام ثراء وسلطة البشر •

وعند مستوى أكبر « اللانهائيات » أتاحت اكتشافات الفضاء الأول أفاقا لا حصر لها للتغيرات الانسانية •• وربما لهجرتها عبر الفضاء •• قد تعدى الحدود العالمية للجنس البشرى •

وعند مستوى « أعقد اللانهائيات » حققت الثورة العلمية والتكنيكية أى ثورة العقول الالكترونية والتسيير الآلى للانتاج — فى خلال سنوات قليلة أكبر المساعدات فى ميدان الحسابات والتقديرات البشرية حتى ان عقل الانسان الذى تحرر من وظيفته الخلاقة قد اتسعت آفاقه فجأة الى درجة أن قدراته الحقيقية تجاوزت — لفترة من الزمن — خياله الذى أصيب بالدوار أمام الاحتمالات الممكنة — وأصبح المرء يشعر فى نفس الوقت أن كل شىء ممكن وأنه يوجد تخلف أليم بين الحياة التى هى فى طريق التكوين والحياة الحقيقية — ثم ان غالبية الطاقة الذرية تستخدم فى تكديس وسائل التدمير ولبس فى وسائل الانتاج وأصبحت ملحمة الفضاء الرائعة موضوع منافسة فى ميدان العظمة مع — نيات عسكرية غير معلنة — بين الدول الكبرى » •

وفى ختام المقدمة يقول جارودى « قد تم نقد سلوك القادة السوفيت الحاليين بدون تحفظ فى هذا الكتاب وليس فى هذا ما يمكن اعتباره عملا من أعمال المناهضة السوفيتية هذه ملاحظتى الأولى أما ملاحظتى الثانية فتنصب على علاقاتى الشخصية مع الحزب الشيوعى الفرنسى •• ان القيام بالنقد الذاتى فى هذا الميدان — وأنا أقول النقد الذاتى لأننى أنتمى الى قيادة هذا الحزب منذ أكثر من عشرين عاما وأعتبر نفسى مسئولا عن سياسته •

واذا كنت اليوم مضطرا الى اذاعة هذا النقاش على الملأ فان ذلك يرجع الى أن اقتراحاتى لم تستطع منذ أكثر من ثلاث سنوات اختراق ستائر السرية التى تغلف أعمال المكتب السياسى واللجنة المركزية •

وكثيرا ما قيل لى خلال السنوات الأخيرة : ان لك مطلق الحرية للتعبير عن وجهة نظرك بشرط أن يكون ذلك — داخل الحزب — ولكن هذا فى حد ذاته يعتبر مغالطة فالحزب ليس فقط المكتب السياسى واللجنة المركزية بل هو مجموع أعضائه المناضلين ومع ذلك فهم لا يسمحون لهذه القاعدة أى الأعضاء المناضلين — نتيجة للريبة والاحتقار — أن تتخذ حكما أو تناقش أمرا •• انهم يعتبرونها كالقاصر الذى لا يستطيع أن يفرق بين

الحسن والقبيح .. وليست هناك صحيفة واحدة من صحف الحزب سواء « لومانيتيه » أو « فرانس نوفيل » أو « كابيه دى كوميزم » تعمل على نشر الآراء التى تختلف ولو اختلافا طفيفا عن الخط الرسمى للحزب وهذا هو ما اضطرنى الى كتابة هذا المؤلف وجعل النقاش علنيا داخل الحزب وخارجه لأن الأمر يتعلق بمشكلات يتوقف عليها مستقبل حزبنا ومستقبل أمتنا .. نعم لم يعد من الممكن التزام الصمت » .

وبعد هذا التقديم يتحدث جارودى عن ما هية الثورة العلمية والتكنيكية الجديدة . عن الولايات المتحدة ونتائج الثورة العلمية والتكنيكية الجديدة وعن الاتحاد السوفيتى كنموذج اشتراكى — وعن امكانية وجود نماذج أخرى للاشتراكية . وعن احتمالات ومبادرات لمستقبل اشتراكى فرنسى — وعن الثورة العلمية والتكنولوجية الجديدة والعلاقات الدولية .

ويختم جارودى كتابه « التحول الكبير للاشتراكية » بقوله : « ان كل ما تم التفكير فيه حتى الآن — تبعا للدول المختلفة — هو التفكير بمقاييس سيطرة الأكثر قوة أو مقاييس اللحاق به من جانب الأقل قوة — وفى كلتا الحالتين فان ذلك يتم بمقاييس الكتل والمعسكرات المتجابهة سواء كمرحلة من المراحل المؤدية الى السيطرة أو كوسيلة لمقاومة السيطرة واللحاق بالآخرين بقدر المستطاع .

وعلى هذا المستوى فان جميع المفاوضات التى تجرى حول المشكلات التى تتوقف عليها حياة أو موت احدى الحضارات مآلها الفشل أو العجز سواء كانت مفاوضات كبرى بشأن نزع السلاح النووى أو بشأن تقديم المساعدة الى الدول المتخلفة أو بشأن المسائل التى تتناولها الأمم المتحدة كمشكلة الشرق الأوسط التى تطرح خلالها المشكلة الأساسية للعلاقات بين النمو والتخلف وهذه المشكلة تطرح هناك بمقاييس بالغة التعقيد بصورة أكبر بكثير مما كانت تطرحها به الدول الكبرى فى العصر الاستعمارى عندما كانت كل الأمور تسوى على حساب البلاد المستعمرة — كما أن ما يجرى الآن بهذا الشأن تشترك فيه هذه الكتلة وتلك وهكذا فانه

حتى اذا أمكن التوصل الى أى اتفاق على الورق — على الأقل — يصبح المجتمع الدولى عاجزا عن وضعه موضع التنفيذ •

ان كل معسكر يتحمل عبء الآثار الضارة للأيدولوجية التى يبرر بها النظام الأعمى الذى تسير عليه اقتصادياته وسياسته وقد حاولنا خلال هذا البحث أن نطرح هذه المشكلة فى كل دولة كبرى وبالنسبة لكل اتجاه •

وقد أوضحنا كيف أن الأيدلوجية المناهضة للشيوعية فى الولايات المتحدة بوصفها المبرر لسباق التسلح وللحرب فى فيتنام ودعم الديكتاتورية بين العتاة فى العالم بأسره انما تخفى تشويها عميقا للاقتصاد الأمريكى وسياسة سيطرة وقمع ، وعجزا عن حل مشكلة الزنوج والبؤس وتنمية عمياء ممسوخة لم تقتصر على أنها منعدمة الأهداف الانسانية وانما تبدد امكانياتها عن طريق الاستخدام الجزئى لقوتها الانتاجية والاستخدام المتحيز لامكانياتها فى البحث والخلق •

ثم أوضحنا كيف أن الاتحاد السوفيتى قد عمد نتيجة للرغبة الجامحة فى اللحاق بالآخرين والتفوق عليهم الى أعمال متتابعة شوهت اقتصاده بالأعباء الجسيمة لسباق التسلح النووى وسباق الفضاء — الذى ينفق فيه أكثر مما تنفقه الولايات المتحدة نظرا لأن الدخل الوطنى فيه أقل من الدخل الأمريكى بكثير — كما اضطر الى تراجع أيدولوجى مخيف وبالتالى الى تخلف رهيب فى تطوير هياكله العليا الى جانب مفهوم غير علمى وغير ديمقراطى للدولة وللحزب ترتب عليه أن أصبح من الصعوبة بمكان تحقيق الاصلاح الاقتصادى فضلا عن عرقلة الثورة العلمية والتكنولوجية — وهى شرط التحقيق الكامل للاشتراكية والانتقال الى الشيوعية •

وهناك ملاحظات يمكن تقديمها بصدد الصين والكثير من الدول الأخرى — ثم ينصح جارودى بقيام الحوار بين كل الذين يحبون المستقبل فلم يعد من الممكن التزام الصمت •



كان صدور كتاب التحول الكبير للاشتراكية صدمة كبرى للشيوعية الفرنسية بل للشيوعية الدولية فى كل مكان •• صدمة اهتزت بسببها أسس أحزابهم وتداعت أركانها — وكيف لا وقد خرج عليهم أحد أقطاب الحزب الشيوعى الفرنسى وأعلن أن تطبيقاتهم فاشلة ولا تصلح للحياة بل قال فى قوة وصراحة ان النظام الماركسى غير سليم ولا يساير التطور الانسانى ثم أنه يرهق الانسان وينكر حرياته ويهضم حقوقه ثم لا يحقق له شيئا من تلك الشعارات البراقة التى يرفعها •

تحركت الرؤوس الكبيرة فى الماركسية تبحث عن حل لهذه الكارثة •• وكان أول ما فعلت أن حاولت احتواء الرجل ولكنها فشلت فأخذت فى الضغط عليه ولكنها فشلت للمرة الثانية وأخذ جاروى يجمع نفسه وينسلخ عن الحزب •• أسقط فى يد القوم واحتاروا ماذا يفعلون به •• هل يفصلونه ؟ هل يطردونه ؟ هل يرجونه ؟ هل ؟ هل ؟ •• وكان العيد الخمسين للحزب الشيوعى الفرنسى على الأبواب فأعلنوا عن مؤتمر يعقد بهذه المناسبة لمناقشة العضو الذى سمح لنفسه أن (يحلم) يفكر تفكيرا لاماركسيا — أسموه مؤتمر جارودى — •

انعقد المؤتمر عام ١٩٧٠ ووقف جارودى فى اللجنة المركزية يوجه انتقاداته اللاذعة الى الشيوعية ثم أعلن افلاسها وقال انه دخلها معتقدا أنها الأيدولوجية الانسانية الشاملة القائمة على تحرير الانسان فى كل مكان وزمان بصرف النظر عن وطنه ولونه وجنسه وأنها القادرة على تهيئة الحياة الكريمة له — ولكنه لم يجد عندها ما يريد بل على العكس من ذلك وجد الجمود والزيف والظلم والقهر وكبت الحريات وتكبيل الفكر وتقييد العقل وتسلط طبقة الحزب وكل ما يؤدى الى مضاعفة فقر الفقراء وحرمان المحرومين وسفك دماء الأبرياء •

قدم جارودى استقالته فى هذا اليوم وخرج من الحزب مرفوع الرأس متفتح الوجدان واتجه الى دراساته وأبحاثه التى يحاول فيها الوصول الى ضالته التى يبحث عنها منذ عرف كيف يفكر •

هكذا رفض جارودى الفكر الماركسى وهو قد رفض من قبل البقاء فى المسيحية كما رفض النظام الرأسمالى •• فلم يعد أمامه الا اليهودية والاسلام •

اليهودية والفرار الى الاسلام

نظر جارودى فى اليهودية فوجدها تقوم على التوراة وهى مزيفة كتبها اليهود بعد أن فقدوا التوراة الموسوية وقد حملوها كل أهوائهم ومطامعهم وأحلامهم وأضاليلهم — جعلوا يهوه الههم يعطى ابراهيم وعدا بتفضيل الشعب اليهودى على جميع الشعوب — وجعلوا لهذا الاله صفات لا يمكن أن يتصف بها اله — فهو وحشى الرغبات شرير النزعات فاسد الخلق ميال لسفك الدماء — ثم انهم قد برروا الغدر والنفاق والعشق والفجور ما دامت تحقق لهم ما يريدون •

ووجد أن تلمودهم قد نبع من هذه التوراة المزيفة وقامت فلسفته على ضرورة اذلال البشر واستعبادهم ونسف المدنيات والحضارات وعدم الاعتراف بأى ديانة تقوم بعد اليهودية لكى تتحقق على الأرض مملكة بنى اسرائيل •

ووجد أن كتابهم الأخير بروتوكولات حكماء صهيون الذى اجتمعت فيه تعاليم التوراة المزيفة والتلمود الملفق يدعو الى السيطرة على العالم ولو أدى الأمر الى ابادة البشر وتدمير القيم وافساد النفوس باشاعة الفسق والترف والانحلال والمبادىء الهدامة والاباحية والالحاد •

هنا تراجع جارودى فزعا وقد ربط بين الصهيونية والنازية — فكل منهما حركة عنصرية متعالية تفيض بكراهية العالم والحقد عليه وتفيض بالظلم لكل من غير يهودى •

وقد وضع كتابه المعنون « أحلام الصهيونية وأضاليلها » وفيه

يثبت أن الفلسطينيين العرب سلالة أقدم شعب سكن كنعان أى أرض فلسطين .

★★★

وهكذا وجد جارودى نفسه متجها الى الاسلام .. وهنا يقول : لقد درست الاسلام كدين وحضارة وقارنت بين القرآن الكريم وبين الاكتشافات العلمية الحديثة .. وكلما تعمقت فى الدراسة والمقارنة ازددت اقتناعا بأنه هو الدين الذى أبحث عنه .

الاســـلام .. وعود الحــق

شرح الله قلب جارودى للاسلام بعد سنوات طويلة قضاها فى الدراسة والبحث والمقارنة والتمحيص .. أعلن اسلامه فى شهر رمضان المبارك ١٤٠٢ هـ الموافق ١٩٨٢ م ودخل الدين الحنيف مقتنعا بأنه الدين الحق وأنه النور الذى أرسله الله سبحانه وتعالى ليضىء الطريق أمام البشرية فينقذها من التخبط فى دياجير الظلام والضلال ويأخذ بيدها الى شاطىء الأمان .

وقد توج رجاء جارودى — وهو اسمه بعد الاسلام — توج اسلامه بكتاب قيم أسماه .. " Promesses de L'islam "

ولما كاد هذا الكتاب يظهر فى الأسواق حتى شنت عليه حرب شعواء وبذلت محاولات كبيرة على كل المستويات فى الغرب لمنع تداوله ورغم ذلك فقد أبت ارادة العلى القدير الا أن ينتشر ويذاع ويترجم ويصل الى كل الذين يحبون المعرفة ويريدون الوصول الى الحقيقة .

يقول المفكر الانسانى الكبير رجاء جارودى فى هذا الكتاب : « لا توجد أمة تحمل كلمة الله بأمانة وصدق اليوم غير الأمة الاسلامية ولا يوجد كتاب سماوى يمثل كلمة الله بحق ودون تحريف أو تزييف الا القرآن .. ذلك لأن الكتب السماوية التى سبقته قد ضاع بعضها أو احترق أو عدل

وبدل ودخلت عليه اضافات بشرية تتفق مع أهواء ومطامع بل وأحلام الذين أضافوها — ولو أنها كانت موجودة فى عصرنا هذا وكانت سليمة تماما وكما نزلت فما كانت تصلح لنا فقد انتهى مفعولها بانتهاء زمانها الذى نزلت فيه — والمعروف أن الانجيل قد جب التوراة وأن القرآن جب الانجيل وأن القرآن هو الكتاب الخاتم الخالد الذى نزل للناس كافة وسيظل الى أن يرث الله الأرض ومن عليها وقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه وقال : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » •

ثم يتجه المفكر الانسانى الكبير جارودى الى الغرب مهيبا به أن يقلع عن كبريائه الكاذب وصلفه وتعنته واصراره على تجاهل الاسلام وهو الدين الحق الذى يقوم على الوحدانية والسمو — راجيا اياه أن يفتح عينيه على الحقائق وأن يجعل نظرته للأمور أوسع وأشمل وإن يستدرك ما فاته عندما أهمل كل ما هو غير أوربى وشوه عامدا متعمدا الحضارات الأخرى •

وينتقل جارودى الى الحديث عن الثقافة الغربية فيقول أنها ثقافة مشوهة مبتورة بعيدة كل البعد عن الواقع الفعلى المعاش والجوهر الأساسى للحياة — وأنها استمدت بعض مقوماتها من الحضارة الرومانية والحضارة الفارسية والبعض الآخر من الديانتين اليهودية والمسيحية وأنها أغلقت أبوابها ونوافذها الفعلية ما يزيد على الثلاثة عشر قرنا فى وجه الاسلام وبذلك حرمت من نوره الوهاج — ولو أنها تركت أبواب ونوافذ عقلها مفتوحة لاستنارت واستراحت واستطاعت أن تصل الى الفهم الصحيح لمعنى الوجود الانسانى والى معرفة الله الواحد الأحد والعمل بمنهج الحياة السليم — ولاستطاعت بذلك أن تجنب الملايين هذه الحياة التافهة التى يعيشونها بلا معنى ولا هدف •

وبطلقها جارودى صيحة مدوية :

« لا أمل فى انقاذ الغرب من الانقراض والتلاشى الا بأن يعى دور الحضارات الأخرى ويعترف أنه مدين لها ويعمل على تغيير موقفه العنيد المتعنت من الاسلام » •

ثم يذكر جارودى أن العالم فى يومنا يعيش مأساة مروعة تتخـذ لنفسها وجهين .. الأول مادى وهو ما تعانى منه دول العالم الثالث .. والآخر روحى وهو ما يعانى منه الغرب .. الذى رفض روحانيـات الاسلام وهو أحوج ما يكون اليها ورفض عقيدة التوحيد وهى العقيدة الصحيحة ــ فانتهى به الأمر الى خواء روحى وتمـزق وضـياع بين أيدولوجيات وخرافات وأوهام لا تغنى عنه شيئا .

لقد عادى الغرب الاسلام فأضر بذلك نفسه .. أساء اليها .. حال بينها وبين السعادة .. بل كتب عليها الشقاء ..

ويقول جارودى : « الاسلام ليس كفرا كما صوره المغرضون القدامى فى الحروب الصليبية ، وليس ارهابا كما صوره المغرضون الجدد أثناء حرب تحرير الجزائر . والاسلام ليس أثرا فنيا يشاهده المستشرق ثم يصدر عليه أحكاما مسبقة وظالمة . انه الدين العالمى العملى الذى يقدم للانسان نظاما كاملا شاملا لحياة انسانية كريمة بكل مقوماتها واحتياجاتها وليس مجرد عقيدة وجدانية منعزلة عن دنيا الناس .

« وليس أدل على عالمية الاسلام من نزوله على نبيه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فى مكة التى ثبت علميا أنها سرة الأرض ومركز التقاء الشرق بالغرب والشمال بالجنوب ــ وعلى السرعة التى انتشر وينتشر بها فقد وصل الى الصين والهند وغطى ما بينهما من بلاد ثم اندفع حتى أفريقيا وأوربا ومنهما اتجه الى أقصى بقاع الأرض فى هدوء وسلم وسلام ولم يستعمل سلاحا ولم يرفع سيفا كما فعل الأوربيون الذين غزوا الأمريكتين بأسلحة الدمار والهلاك وفرضوا مبادئهم على أهلها بالعنف والقوة » .

ويتعرض جارودى فى كتابه الى عدد من القضايا الهامة كالعقيدة والنبوة والتصوف والفلسفة والحكمة والسياسة والعلوم والفنون وكذلك الشعر الاسلامى ثم يختم كل هذا بآرائه عن النبوة والأنبياء ودورهم فى صنع الحضارات العالمية .

وقد تصدى جارودى فى قوة وجرأة وموضوعية للرد على أولئك الذين ادعوا أن الاسلام استفاد من الأوضاع الاجتماعية المضطربة التى كانت سائدة قبل وأثناء البعث وما كان فيها من صراعات طبقية ونزعات قبلية — فنفى ذلك تماما وأكد أن الاسلام قد استفاد وأفاد بالايجابيات التى يشتمل عليها هو ذاته — كطبيعة الدعوة ومضمونها وانسانية أحكامها وانسجام تعاليمها مع العقل والمنطق والانفتاح على الحضارات المختلفة والتسامح الذى لا مثيل له فى دين آخر ثم رده كل الأمور الى الله وحده وحده فهو الأول وهو الآخر وهو القاهر فوق الجميع ولا حول ولا قوة الا به سبحانه .

ويركز جارودى فى كتابه « الاسلام .. وعود الحق » على سماحة الاسلام التى لا يعرفها دين آخر ، فاليهودية مثلا لا تعترف بما قبلها ولا بما بعدها وهى التى حملت لواء الدعوة الى القوميات والعنصرية والدماء والاعراق لتحطم وحدة الفكر القائمة على الدين ، وبينما يعترف الاسلام باليهودية والمسيحية لا تعترف اليهودية ولا المسيحية بالاسلام ولا تعترف الأولى بالثانية .. بل ان اليهودية تنكر على المسيح نبوته وترميه بالكذب وتفترى على أمه رضى الله عنها وترميها بالفاحشة — وفى المسيح يقول القرآن (يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلّم الناس فى المهد وكهــلا ومن الصالحين) . « آل عمران ٤٥/٤٦ » .

كما يقول (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى باذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) . « آل عمران ٤٧/٥١ »

(جارودى)

ويعترف بطهارة مريم ويقول : (ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين .. يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين) . « آل عمران ٤٢ » .

ويستمر جارودى فى تصوير سماحة الاسلام فيقول : « ان القرآن اعترف بأهل الكتاب ـ أصحاب التوراة والانجيل ـ وترك لهم حرية الاختيار بين ما هم عليه من معتقدات وبين الدخول فى الاسلام كذلك فان الاسلام لم يقل « ان أفضل الناس عند الله المسلم » بل يقول : (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) ـ والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى الا بالتقوى » فالناس يتفاضلون فى الاسلام بالتقوى ويتميزون بالعمل الصالح لا بالغنى والجاه والنسب والحسب ـ والكل أمام الله سواء فليس فى الاسلام طبقية أو أمم مختارة أو عناصر متميزة ـ فهو دين الاخاء والتكافل الاجتماعى والمساواة فى أجمل صورها وهو ضد العنصرية الذميمة والتفرقة وظلم الانسان لأخيه الانسان .

ويذكر التاريخ ان كثيرا من غير المسلمين قد تقلدوا مناصب اسلامية لها قدرها وخطرها فى الحكومات الاسلامية المختلفة ـ كما يذكر أن المسلمين فى كل العصور سمحوا لمن يدينون بغير الاسلام أن يمارسوا شعائر أديانهم فى حرية تامة .

وهذا يؤكد ما سبق ان قلناه ان الاسلام لم يكن فى حاجة الى القوة أو السلاح لكى ينتشر .. لقد مهدت له طبيعته وأحكامه وتعاليمه وسماحته الطريق الى قلوب الناس وعقولهم .

وفى معرض الرد على الذين افتروا على الاسلام واتهموه بأن له مبادىء استعمارية واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى (وجاهدوا فى سبيل الله) « الحج ٧٨ » يقول جارودى ان الجهاد يختلف عن الحرب فهو الاجتهاد أو بذل الجهد ولو أن الله أراد الحرب لقال « وحاربوا فى

سبيل الله » وقد أثبتت الفتوحات الاسلامية الشهيرة والمعارك التى أدارها الاسلام أن لا أهداف استعمارية له وان كل أهدافـه تنحصر فى نشر الدعوة وارساء قواعد الدين وليس امتلاك الأراضى أو استغلال ثرواتها فالملك فى الاسلام لله وحده يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء وسوف يخرج الانسان من هذه الدنيا كما دخلها عاريا صفر اليدين •

وقد أشار جارودى الى الحديث النبوى الشريف الذى يقول « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » وهو جهاد النفس ضد أهوائها ونزعاتها ــ كالأنانية والأثرة والضعف وحب المال والتكالب عليه •

ويقول « ويعد هذا الموقف النبوى درسا هاما لأولئك الثوريين الذين يحاولون تغيير كل شىء الا أنفسهم •• كان الصليبيون فى القدس أثناء الحرب مع المسلمين وكانوا فى أسبانيا خلال مطاردة المسلمين يرتكبون أبشع الجرائم وكان الأوربيون فى أمريكا وهم يستعمرون أرض الهنود الحمر يقومون بتصرفات آثمة ــ والجميع كانوا يدعون أنهم ينشرون النصرانية وهم أبعد الناس عنها وعن كل ما تدعو اليه النصرانية من رحمة وعدل » •

والمعروف عن اليهود أنهم يقولون للمحاربين : « أهلكوا الجميع •• لا تتركوا رجلا أو امرأة أو طفلا أو شيخا حتى الغنم والحمير لا تتركوها • اقضوا على الجميع بحد السيف •• أحرقوا المدينة وجميع ما فيها بالنار » بينما يقول المسلمون للمحاربين « لا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه » •

وينتقل بنا جارودى الى الحديث عن الانسان الغربى والطبيعة ثم عنه وعن الانسان ثم عنـه وعن الله •• وهو يتسـاءل فى البـداية •• هل الانسان هو الذى ينتمى الى الطبيعة أم أن الطبيعة هى التى تنتمى اليه ؟ ثم يقول ان الانسان الذى يعتقد انه سيد الطبيعة ومالكها وما هى بالنسبة له الا مخزن للمواد الخام التى يحولها الى أدوات تدمير وتخريب ــ وكان أولى به أن يتعايش معها ويعمل على حفظها وتعميرها ــ فالقرآن

الكريم يقول ان الانسان خلق ليكون خليفة الله على الأرض وما أظن هذه الخلافة تعنى التخريب والتدمير بحال من الأحوال — وانما هى خلافة تعمير واصلاح وعناية وحفظ .

ثم يتكلم عن الانسان الغربى فيقول ان الانسان الغربى ظل معزولا عن غيره من البشر منذ عصر النهضة حتى اعلان حقوق المواطن الذى يقرر « ان حرية الفرد تتوقف حيث تبدأ حرية غيره » ولكن هذا لم يقنع أحدا وانطلق الكل يمارس حريته على هواه وحسبما توجهه غرائزه وأهواؤه — فانطبق عليه المثل الشائع الذى يقول أن الانسان « ذئب فى مواجهة الآخرين » انه ينظر اليه وهو يسأل نفسه « كيف يقضى عليه كيف يخضعه ويستغله » بينما يؤكد الاسلام اخوة الانسان لأخيه الانسان فيقول رسوله الكريم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ويقول « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره » ويقول « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » ويقول « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

وكل هذه الأحاديث الشريفة تشير الى دستور عام ينبغى على المسلمين أن يلتزموه فى حياتهم باعتبارهم جماعة ذات أهداف كريمة على أسس قويمة — فهو يصون حقوقهم فيما بين بعضهم البعض ويرمى الى قيام صداقة حقيقية ومحبة صادقة تقوى علاقة المؤمن بالمؤمن وتجعلهم بحق كالبنيان يشدّ بعضه بعضا .

ويصل جارودى الى علاقة الانسان بالله فيقول ان المسيحية لا تعيش فى أرضها وان الانسان الغربى غير متشبث بالعقيدة والمسيحية ذاتها لم تساعده على الاحتفاظ بها أو بالبعد العالمى الذى يدعو اليه الاسلام خاصة بعد أن اندمجت المسيحية فى الثنوية اليونانية فى القرن الرابع الميلادى .

ويعود جارودى الى الحديث عن الدين الاسلامى فيذكر أنه ليس دينا جديدا بل هو تصديق واستمرار وتجديد للرسالات التى سبقته فهو

بدأ بابراهيم عليه السلام ثم تجدد مع موسى وعيسى عليهما السلام ثم ختم بمحمد صلى الله عليه وسلم الذى بعث الى النـــاس كافة وأمر أن يجادلهم بالحسنى •

وليسمح لنا الفيلسوف والمفكر الكبير أن نقول ان الاسلام بدأ بآدم عليه السلام ثم نوح وهود وصالح عليهم السلام قبل ابراهيم ثم اسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف وشعيب عليهم السلام قبل موسى ثم داود وسليمان ويونس ويحيى قبل المسيح عيسى بن مريم عليهم السلام •• وكل هؤلاء الأنبياء والرسل دعوا الى عبادة التوحيد والتسليم القلبى والعقلى لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لا شريك له ولا صاحبة ولا ولد ولكن الانسان ينسى هذا كلما تبـــاعدت الحقب الزمنية • أو قل ينسيه الشيطان (ان الشيطان للانسان عدو مبين) « يوسف ٥ » (لقد أضلنى عن الذكر بعـــد اذ جاءنى وكان الشـــيطان للانســـان خذولا) « الفرقان ٢٩ » وأخيرا (كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برىء منك انى أخاف الله رب العالمين) « الحشر ١٦ » •

ويذكر جارودى الأركان الخمسة للاسلام فيقول :

بدأت اسلامى بالشهادتين (لا اله الا الله محمد رسول الله) وهذا هو ركن الاسلام الأول وفيه يسلم الانسان قلبه ويطوع عقله لاله واحد فوق الجميع هو الخالق والمدبر واليه المصير وهو الجدير بالعبادة وحده دون شريك (ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل لا تدركه الأبصـــار وهو يدرك الأبصـــار وهـــو اللطيف الخبير) « الانعام ١٠٢ » •

وفى هذا الركن أيضا يشهد أن محمدا رسول الله المبعوث للناس كافة رحمة ونورا وهداية •

ويتحدث جارودى عن الصلاة فيقـــول انها تعبير جميل وعظـــيم عن الوحدة وصورة من صور اتصال الانسان بخالقه — فيها يقف المسلمون

فى وقت معين صفوفا منتظمة متجهين الى قبلة واحدة هى بيت الله كعبته المشرفة فى مكة ـ يقفون خاشعين خاضعين يناجون الله سبحانه وتعالى وقبل الصلاة يكون الوضوء وهو نوع من الطهارة الجسدية يتخلص فيه الانسان من كل دنس على جسده وثيابه تمهيدا للوقوف بين يدى الله ·

ثم يتحدث عن الزكاة فيقول ان الدين الاسلامى لا يعتبرها صدقة تعطى للفقراء والمحتاجين بل هى حق لهم فى أموال الأغنياء ـ وقد حدد الاسلام مقدارها والفئات التى تدفع لها ـ وهى احدى صور التكافل والتضامن الاجتماعى التى تجعل الأغنياء يشعرون بمسئولياتهم نحو اخوانهم فى الانسانية وتزكى أموالهم كما أنها تغسل حقد النفوس الفقيرة وتدعم أخوة المسلمين ـ وفكرة الزكاة فى الاسلام هى التى قام عليها نظام التأمين الاجتماعى فى أوربا منتصف القرن العشرين ·

ويقول جارودى ان الحج يجمع المسلمين فى صعيد واحد وهيئة واحدة وزمن واحد ليؤدوا مناسك واحدة وفق نظام واحد لا فرق بين كبير وصغير أمير وفقير رعاة ورعية وهذا يجعلهم يدركون أنهم أمام الله متساوون متحدون بلا تمييز طبقى وهو يشعرهم بعظمة دينهم وقوته ويعطيهم الاحساس بالترابط الوجدانى والأمن ·

وعندما يتحدث جارودى عن الاقتصاد فى الاسلام يقول انه يرتكز على دعائم غير تلك التى يرتكز عليها نظيره فى الغرب بل وفى الشرق أيضا ، وهذه الدعائم هى :

ـ التوازن فى توزيع الدخل ·

ـ رفض الاحتكار بكل صوره ·

ـ تنظيم الملكية الفردية واخضاعها لصالح الفرد والجماعة ·

ـ رفض سيطرة الآلة ·

ـ اعتبار السوق وسيلة لا غاية ·

وقبل هذا وبعده فان المسلم يجعل الله أمام عينيه ولا يسمح لنفسه أن يتعدى الحدود أبدا (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القــلوب والأبصــار) • « النور ٢٧ » •

هذا فى الاسلام أما فى الغرب فان الهدف هو المزيد من الانتاج والمزيد من الابستهلاك بصرف النظر عن النوعية والصــلاحية والحــاجات الانسانية • انهم ينتجون أكثر وأكثر والنتيجة ما نراه من تكدس البضائع وكسادها والمنافسة بين الدول المنتجة على الدول المستهلكة وما يترتب على ذلك من صراعات دولية رهيبة •

ويعتبر جارودى وضع المرأة فى الاسلام هو الوضع الأمثل فقد رفع الظلم عنها وكرمها وقدم لها أفضل الأسس للحياة الإنسانية الكريمة ويقول ان المساواة بين الرجل والمرأة فى المصدر الذى انحدرا عنه وفى الحقوق والواجبات هو أول وأهم ما قدم الاسلام للمرأة ـــ والمعروف ان المرأة كانت فى المجتمعات القديمة كما مهملا وقد عانت الأهوال عبر القرون والأجيال •• كانت البنت توءد فى معظم القبائل • ومن تنجو من الوأد تصبح ملكا لزوجها وللزوج أن يبيعها أو يقــايض عليها أو يؤجــرها أو يهبها لمن يشاء واذا مات ضمت الى التركة ليرثها من يرثه وكأنها عبد من عبيده أو ضيعة من ضياعه • والويل لها أن وضعت بنتا أو ذكرا ضــعيفا مشوها ، وكان التعدد شائعا ـ فكان الرجل يتزوج عشرات النساء ـــ بل ان ديموستين الأثينى كان يفخر بأن له ثلاثة أنواع من الزوجات ـــ الشرعيات وغير الشرعيات وشبيهات الشرعيات •

والعجيب أن فلاسفة المجتمعات القديمة وأصحاب الرأى فيها قد أقروا هذا الوضع ـ فسقراط لم يعارض فى أن يقرض الزوج زوجته لمن شاء من الأصدقاء ـــ وأفلاطون قال فى جمهوريته بتداول النساء ـــ أما سقراط فقد قرر أن الخير يوجد فى المرأة والعبد وأكد أن المرأة أكثر ميلا للشر منها الى الخير •

وفى المجتمعات السابقة على الاسلام لم تحظ المرأة بالكثير — وظلت تعامل كأداة للنسل — وكان البعض ينظر اليها على أنها رجس من عمل الشيطان — أما البعض الآخر فكان ينظر اليها على أنها مخلوق منحط لا يصل الى مستوى الرجل وليس لها عقل أو حس أو شعور •

ورغم أن المرأة قد حصلت على بعض الحقوق فى عصر روما الذهبى ورغم أنها وصلت الى العرش فى مصر القديمة وفارس — الا أنها اجمالا لم تعامل معاملة الرجال ولم تحظ بما حصل عليه من اهتمام وتقدير •

وظلت المرأة على هذا الوضع حتى جاء الاسلام فاهتم بها ورفع من قدرها وكرمها غاية التكريم — فقد ذكرها القرآن الكريم فى كثير من السور — بل لقد جعل احدى السور باسم النساء وجعل أخرى باسم مريم رضى الله عنها •

وأول ما أكده القرآن الكريم هو اتحاد المصدر الذى خرج منه الرجل والمرأة فقال تعالى فى سورة النساء « ١ » (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) •

وقال عز شأنه فى سورة الأعراف « ١٨٩ » (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها) •

وقال جل جلاله فى سورة الروم « ٢١ » (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ولقد خاطب القرآن الكريم المرأة كما خاطب الرجل فى سورة الأحزاب — وقد سوى بينهما فى الثواب والعقاب فقال فى سورة النساء (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) « النساء ١٢٤ » •

وتساءل جارودى عن المجتمع المثالى وقال انه غير موجود — وقال ان المجتمع المسلم الحالى هو أقرب الى المثالية — ومن الممكن أن يصبح

مثاليا بالفعل لو أن المسلمين لجأوا الى القرآن وجعلوه دستورهم ثم طبقوا تعاليمه وأحكامه واستفادوا بما فيه من قيم وجماليات فهو الدين العملى وفيه الحلول لكل مشكلات العصر •

والمعروف أن الاسلام قد جاء بتشريع كامل شامل ينظم العلاقة بين

المرأة والرجل ويكفل لهما معا الحياة الانسانية الكريمة •• وقد أعطى المرأة كثيرا من الحقوق التى كانت محرومة منها كحق التملك وحق البيع والشراء وحق التصرف فى المال بلا تدخل من الأب أو الزوج وجعل لها نصف حظ الرجل فى الميراث بعد أن كانت هى نفسها بعض التركة • وأعطاها حق التعلم والعمل وحق اختيار الزوج وحق طلب الطلاق ان أساء الزوج اليها واستحال عليها أن تعاشره — وفرض على الرجل أن يحسن معاملتها ولو كرهها — قال سبحانه وتعالى فى سورة النساء (وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) « النساء ١٩ » كما فرض على الرجل أن يقدم لها الصداق عند الزواج وحرم عليه أن يسترده كله أو بعضه بغير رضاها فقال عز شأنه : (أتأخذونه بهتانا واثما مبينا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا) « النساء ٢١ » •

واحتفظ القرآن الكريم للمرأة بعد الطلاق بحقوقها فى النفقة على اختلاف أنواعها وقيد التعدد بشروط قاسية جعلته أقرب الى التحريم منه الى الاباحة •

وقد تحدث جارودى عن التعدد فسخر من أوضاعه الشاذة فى الغرب حيث يكون للرجل عدد من المعشوقات وعدد من الأولاد غير الشرعيين وحيث لا يعاقب الرجل اذا أخطأ بينما تعاقب المرأة اذا أخطأت ثم تساءل جارودى قائلا :

أيهما أفضل وأسلم وأعدل وأحفظ للأبناء وأصون لكرامة المرأة ••• التعدد الذى شرعه الاسلام أم العشق والزنا والأولاد غير الشرعيين ؟؟

ثم انتقل جارودى الى الحديث عن الحجاب والزى الخاص بالمسلمات وبدأ حديثه بالسخرية من سيمون دى بوفوار التى فكرت يوما فى الذهاب الى ايران لتثير النساء هناك ضد الحجاب وتدفعهن الى نزعه فردت عليها احدى الكاتبيات قائلة لها :

« وما شأنك أنت بنا ؟ » فغيرت رأيها ولم تذهب (١) .

وقد استحسن جارودى الحجاب وبيّن مزاياه وقال ان الغربيات يلبسن الملابس الطويلة فى السهرات والحفلات وان مظهرهن يكون فى غاية الحشمة والوقار والجمال أيضا — وحاول جاروديه أن يرد فكرة التحجب الى تقاليد الأمم وعاداتها فطلب أحد السادة العلماء الكلمة ورد عليه بكلمة شرح فيها رأى الاسلام فى زى المرأة وكيف يحتم ستر الجسم تماما ما عدا الوجه والكفين وقرأ الآيات الكريمــة والأحاديث الشريفة الخاصة بذلك .

ثم تحدث جاروديه عن المسجد والمرأة المسلمة وعن رسالة المسجد فى حياة الأسرة ثم قال ان النساء المسلمات يقبلن على المساجد لتأدية الصلاة فى الوقت الذى أهملت فيه نساء الأديان الأخرى التردد على دور العبادة .

★★★

ويقول جارودى ان السياسة فى الاسلام تقوم على العقيدة والمسلمون جميعا يعملون فى ظلام التوحيد من أجل الصالح العام بل صالح الانسانية كلها .

كذلك فان العلوم والفنون على اختلافها وتنوعها تدور حول العقيدة الاسلامية وتستظل بهديها — بل ان الدين الاسلامى يعتبر المعرفة لونا من ألوان العبادة وقد افتتح القرآن الكريم بلفظ اقرأ وذلك هو الدليل على

---

(١) كان هذا الحديث ضمن محاضرة جارودى فى جامعة الاسكندرية أثناء زيارته للقاهرة بمناسبة الاحتفالات بالعيد الألفى للأزهر .

أهمية العلم فى نظر الاسلام وعلى اهتمامه وحرصه الشديد على أن يكون المسلم متعلما مثقفا مستنيرا فالقراءة تفتح أمام الجاهل نوافذ المعرفة وتطلعه على جواهر العلم وكنوزه .

وقد تحدث جارودى بعد ذلك عن المسجد ودوره فى الاسلام وكيف أنه والمدرسة قد عملا على نشر الوعى التوحيدى ثم استعرض المساجد الكبرى والجامعات الاسلامية التى كانت ولا تزال مراكز اشعاع اسلامى يستضىء بها العالم كله — وعاد جارودى الى الوراء .. الى ما قبل النهضة الأوربية وصور حال أوربا اذ ذاك ثم قال انها أقامت نهضتها على أسس من الحضارة العربية والعلوم الاسلامية وقال ان أهم مميزات العلم فى الاسلام انه يتجه الى أعلى فى حركة نمو تصاعدى دائم .

وأنحى جارودى باللائمة على المستشرقين وقال انهم كانوا مغرضين وقد حاولوا جذب المسلمين الى النصرانية ولما فشلوا عاونوا الاستعمار وكانوا دعائم له فى استغلاله للشعوب — ولم ينس جارودى نابليون فذكر موقفه من غزو مصر وقال انه أول من فتح باب « العصرية » التى تدعو الى تقليد الغرب وتبنى أفكارها المريضة وفى مقدمتها الوطنية — والنظام البرلمانى الذى لا يتلاءم والمناخ فى العالم الاسلامى — ولقد أدت العصرية هذه الى القضاء على روح المنافسة فى الدول الاسلامية وبقائها عالة على غيرها هذا فى المجال الاقتصادى أما المجال الثقافى فقد أدت الى اعتناق فلسفة الغرب بما فيها من سلبيات أدت بدورها الى انسلاخ المفكر العربى المسلم عن طبيعته وتاريخه وثقافته وربط مصيره بآخرين لا يكنون له الخير ولا يفكرون الا فى استغلاله ونهب طاقاته البشرية والطبيعية .

ولا يختم جارودى كتابه قبل أن يهيب بالدول الاسلامية المنتجة للبترول أن تتخلص من دورها كممونة بالمواد الأولية لغيرها ودورها كزبونة للمؤسسات الاقتصادية الأجنبية — وأن تصبح منشئة لسوق مشتركة بين الدول الاسلامية والعالم الثالث .. وعندئذ يصبح الاسلام

كما كان بالماضى أهم مصدر يقتبس منه العالم ما يحتاج اليــه فى كل المجالات كالاقتصاد والثقافة والعلم — والمسلم جدير بهــذا ، ولديه الاستعداد الطبيعى لتحمل هذه المسئولية فدينه دين التسامح والعــدل والمساواة والعمل من أجل الصالح الانسانى العام ، وقد اعترف بالديانات السابقة عليه وأحترم أنبياءها خاصة المسيح بن مريم عليه السلام — فالآيات تقول (وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين) « المائدة ٤٦ » •

ثم يهيب جارودى بالأمم الكبرى فى الغــرب أن تعمل على اقامة ساحات تلتقى فيها الحضارات على نفس الأماكن التى قامت فيها تلك الحضارات من قبل — وأن تشيد مراكز لبحث تكوين وتوزيع ما يحمله الاسلام من هداية للبشرية وعلم ونور وتعاليم تساعد على اكتشاف البعد العالى للانسان الذى يطوى فى صدره مسئولية كبرى •• بل هى أكبر مسئولية فى الوجود وهى التى تفسرها الآيات (ان عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملهــا الانسان انه كان ظلوما جهولا) « الأحزاب ٧٢ » •

ولو أن الغربيين فعلوا ذلك ولو أن المسلمين استجابوا كذلك فسوف تتحقق للانسانية وعود الحق سبحانه وتعالى ويتشكل على الأرض المجتمع الاسلامى المثالى الذى أراده الله وأسسه محمد صلى الله عليه وسلم وعندئذ تشرق الأرض بنور ربها ويسود فيها العدل والأمن والسلام •

الباب الثانى

جـــــارودى

الماركســية .. ونقــد الماركســية

ليس من شك فى أن جارودى يعد فى مرحلة من مراحل حياته من أهم مفكرى الماركسية بعد ماركس وانجلز ، بل ليس من شك كذلك فى أن فكر جارودى يعد من أهم ما حققته الماركسية من تطور فى الفكر ، أدى إلى نقدها .. ثم نقضها فى نهاية الأمر ، لأن جارودى الذى تمثــل بقول نيرودا « نهذا لا أتوقع لنفسى عودة ، فلست من الذين يعــودون عن النور » ، كان طرازا آخر من الذين درسوا الماركسية وأضافوا اليها .. انه كان يبحث عن النور الذى لم يجده فى الماركسية أو بحر الظلمات ..

ذلك أن جارودى فى غمرة اعتناقه الماركسية ، كان يرى أن أشــق الأمور ليس دائما أن نحل المعضلات ، بل هو — أحيانا — أن نطرحها . لذلك كان يقول مع الأب « ديتريش بنهوفر » ينبغى أن « نجازف بقول أشياء معرضة للنقض ، شريطة أن يكون فى هذا اثارة لقضايانا الحيوية » .

وهذا التفكير فى الجوهرى — هو مفتــاح شــخصية جارودى — الذى لم يجده لدى الماركسيين ، الأمر الذى يفرض على الباحث فى أمر الشيوعية أن يبدأ بالحديث عن آخر تطوراتها لا عن أصل بداياتها . كما يقول رتشارد كتشام ، فقد اتخذت أساليب البلاد الشيوعية منذ عام ١٩٥٦ اتجاها قد يبدو جديدا خلابا لأنه يناقض تماما تلك الأساليب التى جرى ستالين على اتباعها . وهو اتجاه يعتبر من هذه الناحية خطيرا ؛ لأن من السهل أن ينخدع به بعض الناس ، فيظنوا أن هذه الأساليب الجديدة انما هى تعبير عن تحول فى السياسة الشيوعية . وفرق بين أن

تتغير الأساليب وبين أن تتغير السياسة • وهذه نقطة من الأهمية تجعلنا على بينة تامة من ماهية الشيوعية وأهدافها ، ذلك أنه بينما يتشدق زعماء الشيوعية بالحديث عن السلام والتعايش السلمي نراهم يتحاشون الحديث عن المذهب الماركسي نفسه وفلسفته وغاياته ، الأمر الذي يدل على أنهم أصبحوا يدركون حق الادراك أن مذهبهم وفلسفتهم ، وغايتهم لم تعد تلقى قبولا في نفوس الناس ، ولم تعد تخدع أحدا • بل أن هذا أمر أدركه ستالين في آخر عهده • فقد تبين أنه يسير في طريق مسدود ، وأن الانتصارات التي أحرزتها الشيوعية أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها مباشرة ، انما كان مرجعها الى الحرب نفسها • وأدرك ستالين — الذي لا نعرف ان كان قد مات ميتة طبيعية كما أعلن في الخامس من شهر مارس ١٩٥٣ — أم مات مقتولا كما ورد في بعض الأنباء التي أذيعت فيما بعد — أدرك هذا الدكتاتور العنيد الذي لم ينج من بطشه أي واحد ممن وقفوا في طريقه ، أن هذه الانتصارات لن تتكرر ، لأن دول العالم لن تسمح للقوات الشيوعية بأن تتقدم ثانية نحو أي أرض خارج أراضيها • وان كانت الشيوعية حتى اليوم تظهر على مسرح العالم كما تظهر الممثلة على خشبة المسرح ، تغير ماكياجها ومشيتها وصوتها ، مرددة ببراعة تلك السطور التي تتمشى مع دورها ، وتتناسب مع الشخصية التي تقوم بتمثيلها • والواقع — كما يقول كتشام — أن هذه القدرة من جانب الشيوعية على تغيير مظهرها بسرعة حتى يتلاءم والظروف المتغيرة هي مصدر ما ينتاب بعض الناس من حيرة وتخبط في أمر الشيوعية • ولهذا فان جارودي في مسيرته مع الماركسية ثم نقدها ونقضها يقدم للبشرية أعظم خدمة في تاريخها الفكري ، كما ينير الطريق أمام الباحثين عن النور ، والذين حينما يصلون اليه ، أن يعودوا عنه أبدا •

ذلك أن الدارس المتعمق للشيوعية يتبين أنها تناقض المبادىء التي تعد بها اتباعها ، فهي تنزل بالبشر الى مرتبة الحيوان ، وتحرم الناس من الأمل والكرامة والتراث الروحي ، كما تقضي بضربة هائلة واحدة على ما قطعته المدنية من تقدم نحو جعل الحرية أساسا للمجتمع •

ومن السخرية أن كل الاتهامات التى توجهها الشيوعية الى النظم الأخرى تنطبق عليها أكثر من غيرها • فالشيوعية تتهم الديمقراطية بالفشل فى معالجة المشكلات الاجتماعية الكبرى ، ومع ذلك فالديمقراطية احدى الوسائل التى يستخدمها الشعب لاعلام الحكومة بحاجاته ، فى حين أن هذا ينتفى فى حالة الشيوعية • والشيوعية تبرر استخدامها العنف والقوة بانها تفعل ذلك فى سبيل حياة أفضل ، فى حين أن هذه الجرائم التى ترتكب فى حق البشر ليست لها على الاطلاق أية علاقة بتحقيق حياة أفضل • والانسان المعاصر فى بحثه عن ايمان يعيش به ، يتجه الى المبادىء التى تهيىء لحياته أحسن معانيها •• ولقد اتجه كثير من الناس ذوى النيات الحسنة الى الشيوعية ، حاسبين أنها تحقق لهم آمالهم ، على أن هؤلاء الناس كلهم قد تبينوا خطأهم ، اذ وثقوا بالشيوعية ووعودها الجوفاء •

ولقد كان جارودى واحدا من هؤلاء !

ماركسية القرن العشرين :

وفى كتابه « ماركسية القرن العشرين » يظهر الادراك المبكر فى رؤيا جارودى الفكرية لعدم جدوى الماركسية ، التى كان يزاها تطلعا طموحا بشرط أن يتم تجديدها وفقا لرؤياه هو ، لا رؤيا الذين يريدون للماركسية فهما دوجماطيقيا ، ذلك أن جارودى كان يبحث فى حركة التاريخ العميقة ، ويتشوف الى بناء المستقبل على أسس من الوعى • ولكن جارودى رأى الماركسية فى ذلك الحين أشبه ما تكون بـ « حسناء الغابة النائمة » ولكن هذه الحسناء النائمة تخثرت فى خطواتها التجديدية مرة منذ ١٨٩٠ خلال مرحلة النمو السلمى نسبيا للعالم الرأسمالى وتوثنت فى « دوجماتية Dogmatique » انتهازية سرت اليها عدوى الوضعية Positivisme والعلمية Scientisme السائدة على حد تعبير جارودى نفسه ، بمعنى اعتبار ما بلغته الماركسية من العلم أساسا نهائيا ومكتملا يحدد الماضى والمستقبل على هديه دونما تطوير ممكن •

ويرد جارودى على ما أصيبت به الماركسية من تفاسير تتذرع بالموضوعية لتجعل من التاريخ « العلمى » تاريخا « جاهزا » المستقبل فيه مكتوب منذ الأزل والانسان غائب عن صنعه ، ويستشهد فى رده بما كتبه لينين فى فبراير ١٩٠٧ « مقدمة الطبعة الروسية لرسائل ماركس » واستعرض اشارات ماركس الى ثورة ١٨٤٨ ، ثم جلد ببساطه « أدعياء الماركسية الذين يفكرون » كل هذا لغو أخلاقى ، ورومانسية ، وافتقار الى الواقعية » فأجابهم : » لا يا سادة ، انما هو التوحيد بين النظرية الثورية والسياسة الثورية » • وأضاف يقول : « ليست ماركسية ، تلك النظرية التى تنتقل من تقرير واقع موضوعى الى تبريره كأمر واقع » •

ثم ينتقل جارودى الى « المعتقدية الستالينية » ، التى ركزت كلها فى عشرين صفحة خاطفة ، يفترض فيها — على حد تعبير جارودى أن تضم خلاصة الحكمة الفلسفية • يقول جارودى بأسلوبه الساخر العميق :

« وكما كانت هناك كتب تعلمك « اللاتينية بلا دموع » وأخرى تعلمك « اليونانية وأنت تضحك » ، كانت هذه الصفحات تضع الفلسفة فى متناول الجميع وفى ثلاثة دروس • الدرس الأول فى الأمور العامة « الأنطولوجيا » : مبادىء المادية الثلاثة • الدرس الثانى فى المنطق « قوانين الجدلية الأربعة » • الدرس الثالث فى فلسفة التاريخ : « المراحل الخمس لصراع الطبقات » •

وطوال العهد الذى سيطر عليه هذا الأسلوب من التفكير ، لم يكن هناك من فلسفة ، ماركسية ، بل هذر مدرسى ، يزعم أن عنده الجواب على كل الأمور دون أن يعرف طبيعتها من علم الحياة الى فلسفة الجمال ، مرورا بالزراعة والكيمياء • وما تم من انتصارات تحقق لا بفضل هذا اللاهوت الجديد بل على رغمه : فى الفيزياء حيث أخرس « الفلاسفة » ليستطيع أن يعمل العلماء ، وفى التقنيات حيث كانت الضرورات العملية — لحسن الحظ — أقوى من أن تذل للعنات تلك السفسطة كوصفها علم « السوبرناطيقا » Cybernétique فى بداياته بأنه « علم بورجوازى » •

ان هذا النحو من فهم الجدل ، والفلسفة بصورة عامة ، لم يكن عاجزا عن هداية البحث فحسب ، بل كان أيضا عائقا له » (١) •

وفى الحزب الشيوعى الفرنسى ــ كما يقول جارودى ــ كان « الكفاح ضد الدوجماتية الجبرية ظاهرة ثابتة فى آثار موريس توريز فى ١٩٣٤ • قال : « ان تحطيم الرأسمالية ليس بالأمر الحتمى » • وفى ١٩٥٠ قال . « الحرب ليست بالأمر الحتمى » وقال عام ١٩١٥ : « البؤس ليس بالأمر الحتمى » ، وذلك فى معرض دراساته حول الفقر ، حيث كان يعـــارض « الاعتقاد بوجود قانون حديدى ، وقدر محتوم يثقـــل كاهل الطبقـــة العاملة » • وهذا الموقف ــ كما يقول جارودى ــ هو الذى أتاح له اتخاذ مبادراته التاريخية ، الكبرى ، كالجبهة الشعبية ، و « اليد المبسوطة » نحو المسيحيين ، و « الجبهة الفرنسية » التى تحققت سلامة الأخذ بها فى المقاومة وفى تحرير فرنسا وانبعاثها » (٢) •

ولكن هذه الحركة كما يقول جارودى أيضا قد دفعت الثمن غاليا لكى تتابع مسيرتها ، يتمثل ذلك فى التبديد الرهيب للوجود الانسانى ، المتمثل بدوره فى محاكم التفتيش الشيوعية وأساليب الابادة والعدوان على الديمقراطية فى الحزب وفى الدولة ، وهذا كله يرجعه جارودى الى « التصور اللاهوتى للعالم وللتطور التاريخى والفكر البشرى » (٣) •

ذلك أن هذه الدوجماتية الشيوعية قد استغلها البلشفيون فى كل مناسبة لتبرير أعمالهم ، وبالرغم من ذلك فان هناك من يفرق بين الماركسية والشيوعية ، ويقولون أنه اذا كان لينين وستالين وزعماء الشيوعية الآخرون قد اهتموا بماركس اهتماما بالغا ، فما كان ذلك الا لأنهم وجدوا فى آراء ماركس ذخيرة من النظريات يمكن استخدامها فى تبرير أعمالهم • وبذا أتت النظرية فى أعقاب التطبيق بدلا من أن تسبقه ، والدليل على ذلك أن

---

(١) روجيه جارودى : ماركسية القرن العشرين ، تعريب : نزيه الحكيم ، بيروت ، منشورات دار الآداب ١٩٦٧ ، ص ٣٥ •

(٢) ، (٣) المرجع نفسه ، ص ٣٦ •

الزعماء الشيوعيين الذين كان تفسيرهم لماركس مختلفا عن تفسير ستالين ، قد أنهوا حياتهم فى زنزانة المحكوم عليهم بالاعدام •

وعلى ذلك يمكن القول فى ضوء الدراسات العلمية لمبادىء الشيوعية أنها لم توضع الا لسد حاجات الدكتاتورية ، وهذه المبادىء الدوجماتية ؛ كما هى معروفة ، تتضمن : أن البروليتاريا هى الطبقة المفضلة ، تأسيسا على نظرية « الطبقات » الماركسية ، وعلى تحليله التاريخى الذى يركز على العامل الاقتصادى والصراع بين الطبقات ، قائلا أن سلوك الفرد ليس الا انعكاسا لمكانة طبقته •

ويتحدث ماركس والشيوعيون عن « الاشتراكية العلمية » كأنما يستطيعون أن يؤيدوا فلسفتهم بالبراهين العلمية • وقد حدد ماركس اتجاه نظرياته الطبقية • اذ قال ان التاريخ يسير نحو هدف لا محيد عنه ، هو حكم الطبقة الكادحة ، وعلى هذا الافتراض قامت معظم النظريات الأخرى التى ابتكرتها الشيوعية •

ويشير جارودى فى كتابه الشهير « ماركسية القرن العشرين » للمؤتمر العشرين للحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى ، ويرى أنه « كان بداية الطريق إلى ادراك مأساوى للحقيقة » ذلك أن خروشوف فى هذا المؤتمر تلا تقريرا سريا ذا أهمية بالغة • لأن ستالين حكم روسيا زهاء عشرين عاما ، فكان لحكمه وسياسته أثر بالغ الخطورة فى جميع نواحى الحياة فى روسيا السوفيتية • فاذا جاء خروشوف ـ وهو السكرتير العام للحزب الشيوعى السوفيتى واستنكر هذه الحقبة الطويلة من عهد ستالين ، فلابد أن تكون وراء هذا الاستنكار بواعث على جانب كبير من الخطورة • ولقد تسرب تقرير خروشوف السرى الى الخارج • وأمكن بعد دراسته أن نعرف أن التقرير يدمغ ستالين بالاجرام ، وينسب إليه أعمالا تفوق فى خطورتها كل ما كان يعرفه الغرب عنه ، وإذا كان ستالين مجرما ـ كما ورد فى ذلك التقرير السرى ـ فلا شك أن كلا من خروشوف، وبولجانين كانا شريكين فى ارتكاب هذه الجرائم ••وقد أرادا لهذا السبب أن يجعلا من ستالين كبش الفداء •

فالطريقة التى أزيح بها بريا ، تدل على أن الحكام الشيوعيين جميعا يتبعون الأساليب العنيفة التى سار عليها ستالين فقد بدأت الصحف السوفيتية فى فترة ما تحمل حملة قوية على بريا وأعماله ، ثم اختفى بريا تماما وانقطعت أخباره ، الى أن أعلنت صحيفة ازفستيا أن بريا وستة من مساعديه قد اعترفوا بالتهم التى وجهت اليهم فى المحاكمة السرية : وأنهم قد أعدموا جميعا بالرصاص • واذن فقد فعل خروشوف ببريا ما فعله ستالين بتروتسكى • واذن فقد استهل النظام الشيوعى الجديد أعماله بنفس الأسلوب الذى كان يسير عليه ستالين • واذن فهناك حقيقة لا مفر من الوصول اليها ، وهى أن التطهير ، والمحاكمات السرية ، والاعتراف والاعدام ، كلها أساليب اقترنت بالشيوعية منذ بدأت فى التطبيق حتى اليوم •

يقول جارودى :

« أمام هذه المخازى ، ودون أن أنسى لحظة واحدة آفاق المستقبل المفتوحة على الآمال فى الوقت نفسه ، حدث أن عدت الى قراءة المقطع المظلم التالى من كتاب « هيجل » فى « علم ظاهرات الفكر » وكأنه رسالة شخصية موجهة الى كل منا •

« هذا الوعى انما عرف القلق لا بشأن هذا أو ذاك من الأشياء ، ولا خلال هذه أو تلك من اللحظات ، بل القلق على جماع ماهيته ذاتها ، لأنه استشعر الخوف من الموت ، السيد المطلق • وفى هذا القلق انحل الوعى حتى صميمه ، واضطرب فى أعماق ذاته ، وارتج فيه كل ما كان له ثبات اليقين » •

ذلك أن خوف الموت ، لدى النفس ، هو اشفاقها من أن تفقد ما تؤمن به من مبررات للوجود والعمل • ونحن — ولم لا نعترف بذلك ؟ — فهمنا مدى لحظة على أثر المؤتمر العشرين ، ما يمكن أن يعنيه هذا الدوار الكيانى :

« شيئًا لم نستشعره أبدا من قبل فى السجون والمعسكرات » •

فالماركسية اذن دفعت بجارودى مرة أخرى الى منعطف الشك ، ولكنه فى رحلة البحث عن اليقين ، وقبل أن يتوصل الى الاسلام ، يبحث فيما وراء « منعطف الأحلام » مرة أخرى ، ولكنه كان مصمما على أن تظل عيونه مفتحة على حد تعبيره ، فأبدع ماركسية جديدة تختلف عن القديمة تماما أطلق عليها ماركسية القرن العشرين ، ولكن الدوجماتيين من الماركسيين رفضوها ورفضوا صاحبها : لأنها لم تعد ماركسية ماركس أو انجلز أو لينين وانما أصبحت ماركسية جارودى فى رحلته من الشك الى اليقين •

ومن أجل ذلك فاننا ننظر الى هذه المرحلة فى فكر جارودى على أنها تمثل « القنطرة » بين مرحلتى الشك واليقين ، لأنها دفعته بعد ذلك الى البحث عن الأشمل والأكمل ، فلم يجد الا الاسلام •

على أن هذا لم يحدث دفعة واحدة ، ولكنه حدث بعد تحليل عميق لأسباب الغشاوة السابقة ، والنظر الايجابى الواعى الى ما لدى الآخرين من جديد جدير بالنقاش ، كانت نواميس « الستالينية » قد أصدرت مراسيم تحريمه بتهمة « البورجوازية » أو « الرجعية » أو « الانحطاط » • ولم يكن من سبيل الى « العيون المفتحة » على حد تعبير جارودى الا الحوار (١) •

ومن ١٩٥٦ نرى جارودى فى حوار لا ينقطع • حوار ليس خصومه المفكريين والسياسيين على الضفة الأخرى فحسب ، بل أيضا مع من يمثلون خصومة ماضيه لحاضره : مع « الماركسيين الرسميين » ، أولئك الذين لا يبرحون حتى الآن بدعوى واجب الولاء الحزبى — يخضعون عقولهم لتعاليم الحزب • فى وقت أصبح فيه واضحا أن العالم قد شهد من التطورات الجذرية ما يدحض مزاعم الماركسيين جميعا •

---

(١) السابق ، ص ١٧ — المقدمة للأستاذ نزيه الحكيم •

ولقد استطاع جارودى فى « ماركسية القرن العشرين » أن يكشف عن الكثير من جوانب القصور فى الماركسية ، من جهــة ، كما يكشف عن فلســفة انســانية عنده ، جعــلته يضيق بهذا القصــور ، ويبحث عن عقيدة تحترم الانسان ، وتؤكد على وحدة المجتمع والانسانية ، من جهــة أخرى • ذلك أن جارودى كشف فى نقده الماركسية عن ايمان عميق بالمطلق وتشوف دائب الى الكمال •

ويرتبط منهج جارودى فى نقد الماركسية بعــدد من الظواهر فى السنوات الأخيرة من هذا القرن العشرين ، ويعيد طرح القضايا الحضارية من جديد منها :

١ ـــ التقدم البالغ السرعة فى العلم والتكنولوجيا •

٢ ـــ انحسار الاستعمار عن قارتى : آسيا وأفريقيا •

وقد رأى جارودى أن هذا التغير ليس تغيرا كميا وانما هو تغير كيفى ، وأكد فى نقده الماركسية أن الوعى المعاصر متخلف عن التاريخ ، فاذا « نحن أردنا أن نجد الوسائل لتعويض هذا التخلف فعلينا أن نكون مدركين له كل الادراك » يقول جارودى أيضا :

« وهذه فى الواقع ظاهرة عامة : فكل تيارات الفكر الكبرى تعبر اليوم عن مثل هذه الحاجة ، وكل منها يشعر بتخلف الوعى عن الواقع التاريخى • والكاثوليكيون ليسوا المحتاجين الوحيدين الى مثــل هذا التجدد » ، ذلك أن جارودى كان قد نشر بمناسبة « المجمع المقدس » كتابا بعنوان « من الحرمان الى الحوار » •

استعرض فيه وجوه تضاؤل امكانات التقارب على الصعيد النظرى والعمل بين الشيوعيين والمسيحيين ، ولا سيما فى فرنسا ، مشيرا فى الوقت نفسه الى خطوات التجديد التى أخذ بها « المجمع » ، فكيف اذن يطرح جارودى مشكلات العصر ؟ يقول جارودى (١) :

---

(١) ماركسية القرن العشرين : السابق : ص ٤٤ وما بعدها •

« ان سلطان الانسان على الطبيعة قد تضاعف خلال عشرين عاما أكثر مما تضاعف على مدى القرون العشرين الماضية •

وقد تم هذا الانقلاب الضخم نتيجة لعدد من الاكتشافات العلمية والتكنولوجية الكبرى •

وأكثر هذه الوقائع اثارة كان صنع القنبلة الذرية والحرورية النووية • ففى (هيروشيما) عام ١٩٤٤ ، لم يكن الأمر الا أمر وسيلة للتخريب أشد عنفا من الأخريات ، ولكن بعد عشر سنوات حدث تبدل كيفى : اذ أن مستودعات القنابل الموجودة حاليا ، والموزعة بصورة منهجية ، قد جعلت من المستطاع تكنولوجيا تدمير كل أثر للحياة على وجه الأرض • والملحمة الانسانية التى بدأت قبل مليون عام ، أصبح من الممكن أن تنتهى •

والنتيجة الثانية لهذه الاكتشافات ليست أقل أهمية : وهى أن التاريخ البشرى قد اكتسب أبعادا بلا حدود • فقبل ثلاثين عاما كان لا يزال من الممكن تحديد الوقت الذى ستنضب فيه مدخرات كوكبنا من الطاقة ، فحما ونفطا ، أما بعد الآن فان تعميم القدرة على تحطيم المادة سيجعل للبشرية سلطانا وثروات بغير حدود •

ولهذه الاكتشافات نتيجة ثالثة تتعلق بالمصير الشامل للانسانية • فلقد كان برود الشمس والأرض يجعل فى مقدورنا أن نتصور نهاية لوجود النوع البشرى على كوكب يمسى غير صالح للسكنى • ولكن الغزوات الأولى للفضاء ، وما أصبح يحمله تفتيت المادة من احتمالات للاغتناء بالطاقة ، طريق مأمونة الى استبعاد هذه النهاية • والبشر ، بمكتسباتهم الجديدة يستطيعون أن يحلموا بخلود لنوعهم حقيقى • ثم أن هناك علما جديدا ، هو حصيلة الجمع بين دراسة ظاهرات « الانتظام الذاتى » Autorégulation وبين حساب الاحتمالات ، ولد عام ١٩٤٩ بصدور كتاب « نوزبرت وانير » عن « السوبرناطيقا » وهو منذ ما لا يجاوز السنوات العشر قد طبق على نطاق واسع • وليس هذا تغييرا كميا فحسب وليس مجرد مرحلة جديدة على طريق استخدام الآلة • فحتى الآن ، منذ اكتشاف النار وتهذيب الصخر المقطع حتى اكتشاف البخار والمحرك الانفجارى والكهرباء ، كانت مهمة

الأدوات ثم المكنات — أيا كان مبلغ الارتقاء بها — تقف عند حدود تضعيف قوة الانسان الجسدية ، والحلول محل العمل اليدوى ، وتعجيل هذا العمل وجعله أفضل أداء •

أما الآن فقد أصبح التغيير كيفيا ، لأن العلم الجديد أدى الى الاستعاضة عن بعض أشكال العمل الذهنى لدى الانسان • وشهدنا مثل هذا التغيير الكيفى فى جميع الميادين • كما شهدناه فى ميدان المواصلات والاتصالات اللاسلكية •

كان قد مضى ألفا عام لم يحدث خلالهما الا القليل من التغيير • فقد ظل نابوليون يحتاج تقريبا الى نفس الوقت الذى كان يحتاج اليه يوليوس قيصر لقطع الطريق بين باريس وروما ، تحدد ذلك سرعة الحصان وتنظيم رباط البدائل • ثم جاء البخار بالسكة الحديد فلم يحدث الا تغييرا كميا ، اذ ضاعف السرعة ثلاث مرات أو أربع مرات ، وبعده أحدث الطيران تغييرا كميا آخر ، بمضاعفة السرعة مرة أخرى سبع مرات أو أكثر ، ولكننا ، مع صواريخ الفضاء ، انتقلنا الى مقياس للسرعة من نوع جديد ، هو سرعة دورة الكواكب • فالصاروخ أسرع كثيرا من الأرض فى دورانها ، والسرعة لم تصبح ثلاثة أضعافها أو تسعة أضعافها فحسب ، بل تضاعفت مائة مرة بل ألف مرة •

وكذلك وسائل الاعلام والاتصال بالجماهير ظلت دهرا طويلا تساير وسائل المواصلات والنقل ، اذ كانت سرعة البريد هى سرعة الحصان نفسه • أما الآن فلدينا القدرة التكنولوجية على جعل الخبر يتواجد لحظيا على مدى العالم كله ، وقد أصبح هذا الأمر خلال السنوات الأخيرة ظاهرة جماعية بالتكاثر العاجل فى عدد أجهزة استقبال « الراديو » و « التلفزيون » وأصبح لدينا « أوروفيزيون » و « موندوفيزيون » و « تلستار » وصور ملتقطة من سطح القمر • وهذا الأسلوب فى البث الاعلامى لم يحدث انقلابا عميقا فى وسائل الدعاية السياسية فحسب ، بل أيضا فى مناهج التعليم والثقافة » (١) •

---

(١) جارودى : السابق ، ص ٤٦ •

ويذهب جارودى الى أن الأمر نفسه قد حدث فى علـم الحيـاة (البيولوجيا) فالجديد الذى اكتشف نيه خلال عشر سنوات يزيد على ما اكتشف منذ « أبو قراط » حتى كلود برنارد ، ويذهب كذلك الى أن الاكتشافات المؤدية الى التحول الكيفى قد بدأت تظهر منذ عام ١٩٥٤ • ولكن جايرودى يطرح تساؤلا هاما حول هذا التقدم العلمى : باسم أية قيم سيتم اختيار ما يراد وانماؤه من طاقات ؟ كما يتساءل حول مشكلة تعليم هذه المكتسبات الجديدة ، وتمثلها ، ونشرها ، والقدرة على توجيه قيادها • ويذكرنا جارودى بثلاث وقائع ، لاظهار مدى سـعة المسـائل المطروحة فى عالم اليوم :

— يوجد فى العالم اليوم عدد من العلماء الأحياء المبدعين يساوى مجموع من عرف التاريخ من علماء منذ بداية الانسانية • « من تقرير الأستاذ (أوجيه) الى شعبة البحوث العلمية فى اليونسكو » •

— منذ ثمانى سنوات تضاعفت كمية معارف البشر • « حجم المنشورات العلمية ، وكتب البحوث والمجلات العلميـة ، بصرف النظـر عن كتب التبسيط » •

— الزمن الذى ينقضى بين اكتشاف رئيسى وبين تطبيقاته العملية على نطاق واسع يتقاصر بنسبة كبيرة : فلقد احتاج التصوير الشمسى الى ١١٢ سنة والتليفون الى ٥٦ سنة ، بينما كانت خمسة أعوام كافية لتعميم « الترانزيستور » •

وهذه الأمثلة توضح مدى المسائل المطروحة — كما يقول جارودى — فهناك :

مسألة فلسفية : كان انجـلز يقـول ان على المادية أن تغـير من صورتها كلما ظهر اكتشاف رئيسى ، ظاهر الأثر فى تاريخ العلوم • وقد بذل لينين جهدا كبيرا ليتمثل فيزياء عصره ونحن الآن في حاجة الى بذل

مجهود أكبر بلا حدود لنستطيع الارتفاع بالفلسفة الماركسية الى المستوى الراهن لتطور العلوم (١) .

وقبل أن نتطرق الى الحديث عن الماركسية والمادية ، ومعاداتها للدين ، وارجاع كل شيء حتى الدين والأخلاق والفكر والفلسفة والثقافة والقانون والسياسة الى انعكاسات للأحوال الاقتصادية والمصالح الطبقية ، ومد جذورها الى الظروف المادية للحياة ، قبل ذلك جميعا نجد جارودى بطرحه هذه المسألة الفلسفية قد كشف القناع عن زيف الماركسية وتخلفهـا ، وافلاسها فى مواجهة العلم ، فلقد نقض « العلم » كل دعاوى الفلسفة المادية التى أكدت أنها مقررات علمية تنظـر الى الوقائع المحسوسـة ولا تنبىء عن نتيجة من الأطوار الاجتماعية الا كانت حقيقة من حقائق الرياضة التى لا تقبل الاختلاف بين حاسب وحاسب ولا بين حين وحين . فقد أظهرت الدراسات « العلمية » للمادة أن المادة أخفى من الروح ، كما ظهر من الدراسات العلمية للأطوار الاجتماعية واتجاه تاريخ الأمم فى العصر الحديث أن كل الحقائق المحسوسة التى أنبأ بها كارل ماركس انما هى أباطيل محسوسة لا يختلف فيها ماديان ولا مثاليان (٢) .

فالماركسيون يذهبون الى أن اشتراكيتهم وحدها هى « الاشتراكية العلمية » دون غيرها ، لأنها — فيما يدعون — تنفرد بمزية لا يشاركها فيها غيرها من المذاهب الاشتراكية السابقة ، وهذه المزية المدعاة أنها تقوم على « العلم » وتلتزم « الواقع » ، مع أن « نبؤاتها » أكثر وأبعد تطوحا فى الخيال من جميع نبؤات المذاهب السابقة التى نعت عليها مجافاتها للعلم وتنكبها طريق الواقع . فان « الاشتراكية العلمية » — على حد تعبير العقاد ، قد تطوحت فى نبوءات لا تنتهى الى آخر الزمان ، كما ادعت لنفسها أنها تفسر أسرار الكون وأسرار المادة فى جميع ظواهرها . وأنها ترسم للتاريخ المقبل خطاه التى لا يحيد عنها ولا يزال مطردا عليها الى غير نهاية ، وهى نهاية أبعد فى مجال الغيب من النهاية التى قدرتها

---

(١) جارودى : السابق ، ص ٤٩ .
(٢) العقاد : مذهب ذوى العاهات ، ص ١٢٦ .

الأديان الغابرة ، فهى توغل فى الآباد المقبلة ملايين السنين ، وتدعى باسم « العلم » — لا باسم الخرافة — أن الغيب المجهول لن يتمخض عن شىء فى حياة الانسان غير ما رسمه كارل ماركس وفرغ من التنبؤ به قبل منتصف القرن التاسع عشر ، وقبل أن يتقدم العلم خطواته الأولى فى عصرنا الحديث (١) •

والواقع أن المسألة الفلسفية التى طرحها جارودى فى ماركسية القرن العشرين (٢) ، تكشف عن افلاس الماركسية ، فقد ظهر اليوم مع التقدم المذهل فى العلوم أن « المادة نفسها غير مفسرة وغير مفهومة ، فهى من باب أولى لا تفسر ما عداها ولا تزال سرا يتطلب الفهم ولا يقربنا من فهم غيره • أما « العلم » فقد انكشفت عنه فتنة غروره الأولى ، واضطر كارها الى التواضع فى دعواه ، فغاية ما يدعيه اليوم أنه يصف ويسجل ، وأن ما كان يعرفه علماء العصر الذى نشأت فيه « الاشتراكية العلمية » لا يفسر ظاهرة واحدة من ظواهر زمنه ، فضلا عن تفسير الظواهر الطبيعية والتاريخية والنفسية عامة تامة من مبدأ الخليقة الى آخر الزمان ، أما الزراية بالعاطفة الانسانية فيقابلها فى العصر الحاضر افراط فى التعويل على خفاياها وتخريجاتها ، ودراسة لكل سر بمسبار العاطفة حتى الفلسفة المادية وبواعثها فى نفوس الماديين (٣) •

ولا محل لبيان التناقض بين دعوى « التقدمية » وبين الرجوع فى كل رأى الى فكرة انسان عاش فى أوائل القرن التاسع عشر ، كائنا ما كان نصيبه من العلم والذكاء — كما يقول العقاد — فقد كان يجوز فى عصر ماركس أن يقال عن دعاوى الفلسفة المادية أنها مقررات « علمية تنظر الى الوقائع المحسوسة ولا تنبىء عن نتيجة من نتائج الأطوار الاجتماعية الا كانت حقيقة من حقائق الرياضة التى لا تقبل الاختلاف بين حاسب وحاسب ولا بين حين وحين •• أما اليوم فكل الحقائق المحسوسة التى

---

(١) العقاد : السابق ، ص ١٢٥ •
(٢) جارودى : السابق ، ص ٤٩ •
(٣) العقاد : السابق ، ص ١٢٦ •

أنبأ بها كارل ماركس فهى أباطيل محســوسة لا يمــترى فيها ماديان ولا مثاليان •

كان يقول ان أمم الصناعة الكبرى هى الأمم المعرضة لظهور الشيوعية فيها ، فاذا بالأمر ينقلب عن النقيض الى النقيض ، واذا بالشيوعية تظهر بين الأمم على قدر خلوها من الصناعة الكبرى ••• وكان يقول أن الغاء رأس المال يقضى على أسباب الاستبداد ويمنع تعدد الطبقات ، فاذا بالغاء رأس المال فى روسيا ينتهى الى استبداد يتحكم فى السياسة والثروة العامة والخاصة ويتحكم فى الأرواح والأقدار ، ويخرج للمجتمع طبقة من الحكام أقوى من الطبقة المعاصرة لها فى كل أمة من أمم رأس المال ••• وكان يقول أن الثروة تتجمع ولا تتوزع ، فاذا هى تتوزع وتنتشر حتى يعد الشركاء فى المصنع الواحد بالألوف وكان يقول أن المطبعة والورق والبارود والمدن التجارية هى عوامل التاريخ فى الحضارة الأوروبية ، فاذا بهذه العوامل جميعا قد وجدت فى الصين قبل وجودها فى الغرب بألفى سنة ، وبين حضارة الصين وحضارة الغرب أبعد ما يكون من فارق بين حضارتين •

كذلك لم يظهر من حركات الشيوعية فى العصر الحديث أنها حركات خاصة بالصناعة الكبرى أو بحالة دون غيرها من الحالات الاقتصــادية أو الاجتماعية ، فان هذه الحركات قد ظهرت بين زراع اسبرطة وبين عمال روما وبين طوائف الزنج فى البصرة ، ولم يكن لها من سبب فى جميع هذه الحالات الا ازدحام المتذمرين فى مكان واحد واغتنامهم للفرصة من ضعف الدولة على أثر هزيمة حربية أو كارثة داخلية • فما حدث فى روسيا بعد الحرب العالمية الأولى كان يصح أن يحدث فيها قبل ألف سنة كما حدث فى غيرها ، وما كان حدوثه فى روسيا لأنها بلاد صناعية ، ولا لأنها تطورت بالأطوار الاجتماعية التى قررتها الفلسفة المادية ، ولكنه حدث لأن الجيوش المنهزمة ثارت فاستولت على زمام الثورة فيها طائفة منظمة كالطائفة التى استولت على حركات النازيين والفاشيين بين الألمان والايطاليين » (١) •

---

(١) العقاد : لا شيوعية ولا استعمار ، ص ١٨ •

وهذه المسألة الفلسفية التى يطرحها جارودى فى ماركسية القرن العشرين ، تجعلنا نذهب مع « برتراند راسل » (١) الى :

« ان عناصر الفلسفة الماركسية التى استمدت من هيجل كلها غـير علمية ! بمعنى أنه ليس هناك أى سبب على الاطلاق للاعتقاد بصحتها » •

وكذلك المسألة السياسية التى يطرحها جارودى تؤيد هذا المعنى فى ثنايا نقده للماركسية ، والتى تتمثل فى « التزايد الرهيب فى السلطان التكنولوجى على الطبيعة ، والذى يضع بين يدى قبضة من الناس قدراً من المعارف ومن التنظيم يمنحهم سلطانا يثير الفزع • وهذا الحاجز من السلطة التكنولوجية بين القادة والجماهير » •

ويمكن اقول أن المسيرة الفكرية لجارودى تتلخص فى سعيه نحو فكر نقدى ، قاده بالضرورة الى نقد الماركسية ثم نقضها ، هذا الفكر النقدى هو الذى أدى به الى كشف الطريق المسدود الذى تسـير فيه الماركسية ، فقد كان يرى أن الماركسية يجب أن تكون أداة لاجتياد الوعى ومحركا للعمل الذى يغير به الانسان الأشياء ويغير نفسه ويبنى بيده تاريخه ، ولكن الفكر النقدى أثبت أنها عكس ذلك تماما ، لأن الماركسية زعمت أنها مذهب مكتمل ، كلى ، لم يلبث أن وقع فى صدام مع الواقع الدائم التغير ، وقد أدى ذلك — فضلا عن اخفاق التجارب الشيوعية فى العالم الى ظهور ما يعرف الآن بالأورو — شيوعية (١) وهى حركة بدأت داخل الأحزاب الشيوعية فى أوروبا الغربية ثم انتقلت الى الأحـزاب الشيوعية فى بلاد أخرى غير أوروبية ، وتتمثل فى رفض عدد من جوانب النظرية الماركسية الدوجماطيقية ، كما تتمثل فى ترك الهدف القديم الذى كانت تلك الأحزاب الشيوعية تتوخاه أساسا ، وهو اقتفاء أثر المثـال

---

(١) برتراند راسل : مقدمة حديثة للفلسفة ، لندن ١٩٥٧ ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ •

(٢) الأورو — شيوعية Euro — Communism مصـطلح مختصر لكلمتى : « الشيوعية الأوربية » European Communism
طارق حجى : أفكار ماكسية فى الميزان ، ص ٨ ، وما بعدها •

السوفيتي في بناء الاشتراكية . ولا شك أن بعض الماركسيين يحاولون — بكل الجهود والطاقة — أن يفسروا ذلك بأنه « تطور » طبيعي في النظرية ، وأنه تعديلات في جوانب غير رئيسية في الفكر الماركسي ، يمليها الواقع وتمليها التجارب في كل بقعة من بقاع العالم (١) .

وكان جارودي يمثل هذا الاتجاه ، فأبدع من خلال فكره النقدي « ماركسية جديدة » أطلق عليها « ماركسية القرن العشرين » كان يتصورها ذات رؤيا تركيبية يحتاج اليها العصر ، ولكنها باعترافه لم تفعل ذلك أبدا ، لأن الماركسيين كما يقول — لم يرتفعوا بوعيهم الفلسفي والتاريخي والأخلاقي والجمالي الى مستوى الظروف التي خلقوها هم أنفسهم . وهذا ما كان انجلز صريحا في الالحاح عليه في دراسته عن « لودفيج فويرباخ » : « على المادية بالضرورة أن تكتسب صورة جديدة مع كل اكتشاف هام ، بادي الأثر في تاريخ العلوم » .

ومنذ انجلز ، ما أكثر ما عرف العالم من تلك « الاكتشافات الهامة ، البادية الأثر في تاريخ العلوم » ! ولو أردنا الاقتصار على علوم الطبيعة لعددنا من هذه الاكتشافات فيزياء « الكانتا » والنسبية في مطلع القرن ، وعلم « السوبرناطيقا » والتركيب الصنعي للخلايا وتغييراتها الموجهة في علم الحياة في منتصف القرن (٢) .

فهل حقق الماركسيون بشأنها برنامج انجلز ؟

يقول جارودي :

« لقد فعلوا ذلك مرة واحدة ، ولكن بصورة نموذجية ، عام ١٩٠٨ ، بكتاب لينين : « المادية والتجريبية النقدية » ، قضى لينين ثلاث سنوات في جرد لأهم كتب الفيزياء المعاصرة : مؤلفات « ماكسويل » و « ووركر » و « وورد » و « بيرسون » في الفيزياء الانجليزية ، ومؤلفات « أرنسيت

---

(١) نفسه ، ص ٨ .
(٢) جارودي : ماركسية القرن العشرين — السابق ، ص ٦٧ .

ماخ » و « هرتز » و « بولتزمان » فى الفيزياء الألمانية ، بالاضافة الى انتفسيرات الفلسفية التى قدمها « كوهين » و « فون هارتمان » ، ومؤلفات « هنرى بوانكاريه » و « بيكويل » و « لانجفان » وتفسيرات « دوهيم » و « لوردا » فى الفيزياء الفرنسية . هذا عدا ذكر كتابات « المراجعين » الروس .

ولو أننا قمنا اليوم باحصاء لما كتب فى هذا الموضوع يقف عند عام ١٩٠٨ عام تأليف الكتاب ، لوجدنا أن لينين لم يهمل أى مؤلف جوهرى . وهو قد أنطلق من هذه الذخيرة العلمية ليظهر لنا ما يمكن أن تكون عليه « الصورة الجديدة » للمادية ، المقابلة لتلك المرحلة من تقدم الفيزياء ، فأتى بفكرة مظرية كاملة الجدة ، هى فكرة عدم فناء المادة : « الالكترون لا ينضب ، شأنه شأن الذرة » . وهذه النظرية تحمل معها نتائج فلسفية جوهرية ، أهمها عدم جواز الخلط بين الصورة التى يكونها العلم عن المادة فى لحظة من لحظات تطوره ، وبين المادة نفسها . وما من ريب فى أن هذا هو أكثر الاستنتاجات التى حواها كتاب لبنين » .

ويخلص جارودى من ذلك الى أن الماركسية لا ينبغى أن تكون فلسفة اعتقادية سابقة للنقد . ذلك أن « المعتقدية ، فى الفلسفة ، تاريخيا ، هى نقيض النقد ، بالمعنى الذى كان « كانط » أول من أعطاه لهذه الكلمة ، ولو أنه فعل ذلك فى نظرة خارجة عن التاريخ . وطلبا للتبسيط ، لنقل : أن وجهة النظر النقدية فى الفلسفة تعنى ادراكنا أن كل ما نقوله عن الواقع انما نقوله نحن . أما المعتقدية فهى ، على العكس ، الوهم أو الزعم بوجودنا فى داخل الأشياء وبأننا نقول بشأنها الحقيقة المطلقة والنهائية . والمثال النموذجى للمعتقدية هو المعتقدية الدينية » (١) .

ويرفض جارودى صور المعتقدية الوضعية ، على نحو ما يتضح من رفضه لآراء الماديين الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، أولئك الذين أعطوا المادة تعريفا نهائيا انطلاقا من تصورات « ديكارت » المكنوية

(١) نفسه ، ص ٦٨ .

Mécaniste ثم استقروا بأنفسهم داخل الأشياء يقولون لنا عنهـا الحقيقة المطلقة • ويذهب جارودى الى أن الماركسية كذلك لا ينبغى أن تكون معتقدية ، ذلك أن كل التأويلات المعتقدية للماركسية تبدأ بالحط من شأن التراث الذى أخذته عن كانط وفيخته وهيجل ، وبالعودة الى فويرباخ وديدرو وسبينوزا • وتنتهى بوضع الأيديولوجية فى مقابل العلم كما كان الديكارتيون يضعون الحقيقة فى مقابلة الخطأ •

وتأسيسا على هذا الفهم ، تتضح ملامح المنهج النقدى للماركسية عند جارودى ، وهو المنهج الذى يذهب الى أن هناك دائما نواة من حقيقة مطلقة ، اكتسبها العلم ولا يمكن أن تعود لتصبح موضـع تسـاؤل من جديد ، ولكن مطلقة ، اكتسبها العلم ولا يمكن أن تعود لتصبح موضـع تساؤل من جديد ، ولكن نواة الحقيقة المطلقة هذه « أى مجموع القوى الفعلية التى نتصرف بها ، وما يعنيه هذا من تشابه بين النماذج العلمية التى بنيناها ــ وبين الواقع » •

١ ــ ليست أبدا مكتملة •

٢ ــ موجودة داخل مفاهيم ونظريات ونماذج خاضعة للمراجعـة باستمرار نسبية باستمرار •

وعلى ذلك يذهب جارودى فى نقده للماركسية ، التى تزعم العلمية وأنها تتمتع بنفس النوع من الحقيقة التى يتمتع بها العلم • فيرى أن زعم الماركسية أنها حقيقة « مطلقة الاطلاق » لا مطلقة ونسبية معا » ، وأنها تمتاز بعدم الخضوع لتقلبات التقدم العلمى ، ينفى عنها صفة العلم ، ويجعلها فى نظر أصحابها سرمدية المعتقد • ذلك أن شأن المعتقدية اللاهوتية أن تسد الطريق على جدلية الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة • والماركسية لا تستطيع أن تزعم فى وقت واحد الانتساب للعلم وأن تطالب لنفسها بصفة الحقيقة التى لا تكون الا مطلقة ، شأن ما وراء الطبيعـة واللاهوت (١) •

---

(١) نفسه ، ص ٧٢ •

ويذهب جارودى تأسيسا على ذلك الى أن كل الأخطاء المرتكبة خلال المناقشات الفلسفية حول العلوم ، على مدى ربع قرن ، هى نتيجة التجاهل المعتقدى لهذه الجدلية بين الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة ، سواء فيما يتصل بتصور المادية أو تصور الجدلية أو تصور المادية التاريخية • ويضرب جارودى على ذلك مثلا : اذا نحن اعتبرنا الشكل الذى تأخذه المادية فى لحظة من تاريخها ـ استنادا الى صورة معينة يعطيها العلم عن المادة ـ حقيقة مطلقة ومكتملة ، فما أن يغير العلم هذه الصورة حتى نجد أنفسنا منقادين الى واحد من أمرين : الأول ـ كما قال لينين فى « المادية والتجريبية النقدية » ـ أن نجعل المادية نفسها موضع تساؤل بالحديث عن « تلاشى المادة » ، لمجرد أن الصورة الجديدة لا تنطبق على السابقة ، والثانى أن نرفض نظرية فيزيائية ما أو نظرية كيمائية ، وأن نصفها بالمثالية ، لأن الصورة الجديدة التى تعطيها عن المادة أو عن الحتمية لا تنطبق على السابقة •

والخطأ نفسه يمكن أن يرتكب بشأن الجدلية : فاذا نحن اعتبرنا عددا من قوانين الجدل ـ وهى فى الواقع ، وفى كل عصر ، كشف الحساب المؤقت دائما لانتصارات العقلانية ، وهى بالتالى حقيقة مطلقة بوصفها كشفا لانتصارات الماضى وحقيقة نسبية كطريق الى انتصارات مقبلة ـ ، إذا اعتبرنا هذه القوانين حقيقة مطلقة ومكتملة ثم أردنا أن نحكم على نظرية علمية ما بأنها صائبة أو خاطئة ، حسبما تكون متوافقة أو غير متوافقة مع قوانين الجدل المعروفة اذ ذاك ـ كما حدث مثلا بشأن علم الحياة ـ فان هذه الصورة من الماركسية لا تمارس أبدا دورا تحريريا مخصبا بل تصبح كابحا دون البحث (١) •

ويوضح جارودى كذلك خطأ آخر فى المادية التاريخية : فاذا نحن اعتبرنا الرسم الخيالى المعروف باسم « المراحل الخمس للتطور التاريخى » ـ الذى وضع انطلاقا من تجربة تطور المجتمعات الغربية ، أذا اعتبرنا هذا الرسم الخيالى حقيقة مطلقة ومكتملة ، وأردنا بأى ثمن

---

(١) نفسه ، ص ٧٤ •

أن ندخل فيه مثلا — تطور بعض المجتمعات الافريقية أو الآسيوية فاننا بذلك نبتعد عن المناهج العلمية لنعود الى فلسفة للتاريخ نظرية معتقدية ، تشوه تفكير ماركس نفسه (١) .

فجارودى فى منهجه النقدى للماركسية ومذاهب الفكر ، ينظر اليها على أنها مجرد فروض قابلة للصواب أو الخطأ ، ويرفض اعتبارها معتقدا من المعتقدات ، أو أنها تمثل وحدها الحقيقة المطلقة (٢) . أو أن تكون ايديولوجية — بالمعنى التحقيرى — لأن هذه « الأيدلوجية » تتميز بمقدار ما تتعارض مع النظرية العلمية ، لا بالضرورة ، تعارض الخطأ مع الحقيقة ، أو الرأى مع المفهوم ، أو الخيال المعكوس للواقع مع صورته الحقيقية ؛ ولكن قبل شىء بأنها تتجاهل ينابيعها الخاصة وطابعها النسبى فالوهم الايدولوجى هو ان ننسى أن كل « ايدولوجية » ككل نظرية ، قد ولدت من ممارسة ، وأنها قد ولدت فى التاريخ . وليس هناك معرفة مطلقة ، تتساوى مع الشىء الذى نعرفه وتصبح واياه وحدة . اذ المعرفة تصور أو اعادة بناء ، تهدف الى ايضاح الواقع — واعادة البناء . هذه هى دائما د َالة Fonction (٣) لدرجة تقدم الانسان وتقنياته وممارسته ، ولدرجة نمو المفاهيم التى وضعها الانسان والموقتة فى كل حين . و َو َهم " « أيديولوجى » أن نرى فيها حقيقة مطلقة ونهائية حقيقية لا يمكن أن توضع مبادؤها موضع تساؤل (٤) .

ويخلص جارودى الى أن الماركسية المعتقدية ولا سيما فى انجيل ستالين التعس الشهرة « المادية الجدلية والمادية التاريخية « أصبحت » « كاتالوجا جامعا مانعا يضم « قوانين » و « خصائص » للجدل ذات صحة مطلقة وكلية (٥) !! .

هذه « المعتقدية » التى يرفضها جارودى فى الماركسية ، هى التى

---

(١) نفسه ، ص ٧٤ .
(٢) نفسه ، ص ٧٥ .
(٣) الدالة فى المنطق الصورى ، يتغير بتغير سواه ويتعين بتعيينه .
(٤) جارودى : السابق ، ص ٧٧ .
(٥) نفسه ، ص ٨٢ .

تنكر كل شيء فى الوجود غير المادة والماديات فليس للوجود عقل مدبر ولا روح ملهم ، ولكنه مادة فى مادة ، ومن مادة الى مادة ، بين الأزل والأبد بغير ابتداء ولا انتهاء • « وقد اهتم ماركس وانجلز وغيرهما باثبات هذه الدعوى قبل اهتمامهم بأى اصلاح وأى تحسين فى أحوال الطبقات • ولهذا سمى مذهبهم بالفلسفة المادية الجدلية أو الثنــائية وانصرفت جهودهم قبل كل شيء الى التفسير المادى للتاريخ •

فالأديان كلها من وجهة النظر الماركسية ان هى الا حبالة منصوبة لتغليب مصالح الأغنياء على مصالح الفقراء • وهذا مع العلم بأن الأديان جميعا تتضمن من النواهى للأغنياء أضعاف ما تتضمن من النواهى للفقراء ؟ والفنون الجميلة وما احتوته من الآداب والبدائع ليست الا تمثيلا اقتصاديا لأهواء الطبقة الغالبة فى المجتمع ، بقوة الاستغلال (١) » •

الماركســية والدين :

كتب العقاد فى سنة ١٩٤٩ عن الاسلام والشيوعية يقول (٢) :

« جاء فى أنباء العاصمة الانجليزية أن التقارير التى تلقاها مؤتمر الشرق الأوسط الذى ينعقد فيها الآن تدل على أن الشيوعية تبدى فى البلدان العربية نشاطا لا نظير له فى البلدان الأخرى ، وأن أصحاب تلك التقارير يميلون الى استبعاد الرأى القائل بحصانة البلاد الاسلامية من الشيوعية ، لأن الاسلام والشيوعية لا يتفقان • فان الشيوعيين كثيرا ما استغلوا الجماعات الاسلامية الدينية فى بث التعاليم التى تناهض الغربيين الملاحدة من عباد الدينار •

أما ان الشيوعية تخص بلاد العرب والمسلمين بنصيب ممتاز من دعايتها فليس بالخبر الجديد • لأن الواقع يظهره والكل يتوقعه ما دامت بلاد العرب والمسلمين ملتقى القارات من جهة ومركز الامامة لمئات الملايين فى آسيا وأفريقية من جهة أخرى •

---

(١) العقاد : مذهب ذوى العاهات ص ٢٥ •
(٢) جريدة الأساس ١٩٤٩/٧/٢٥ •

كذلك ليس بالجديد أن الدين الاسلامي يُعَوِّق الشيوعية عن نشر دعوتها أو الترويج لأغراضها .

فان الدين الاسلامي يعوق الشيوعية ، بل هو أكبر عائق في طريقها على تقدير واحد ، ليس هو مع الأسف بالتقدير الصحيح .

ان الاسلام أكبر عائق في طريق الشيوعية اذا كانت هذه الشيوعية مذهبا محترما يعتمد على الاقناع بفكرة لا محيد عنها .

ففي هذه الحالة تصطدم الشيوعية بعقائد الاسلام في كل عقيدة منها ويتعذر على الداعي الشيوعي أن يواجه المسلم بفكرته وهو عالم بأحكام دينه .

ولكن الواقع أن الشيوعية « مؤامرة ترمي الى تنفيذ جريمة كبيرة » لهدم الحضارة القائمة ، وليست هي بدعوة محترمة تعتمد على أفكار واضحة لا تحيد عنها .

هي مؤامرة يتوسل أصحابها بكل وسيلة لتنفيذ الجريمة التي يدبرونها ، فلا يبالون خداع الناس عن عقائدهم ولا يتورعون في تصوير مذهبهم على أية صورة تضمن له القبول عند طائفة من الناس ، ولو اتخذوا له صورتين متناقضتين تختلفان مع اختلاف الزمن أو اختلاف البلاد .

فالشيوعيين يكفرون بالوطنية ويعتبرونها حيلة من حيل أصحاب الأموال لتسخير العمال ، ولكنهم ينفخون في جذوة الوطنية كلما حاربوا دولة من الدول التي تينازعونها . كما صنعوا في الصين قبل الحرب العالمية وما زالوا يصنعون فيها الى زمن قريب ، حين تغلبت كفة الشيوعيين هناك على كفة « الوطنيين » .

وقد صنعوا مثل هذا في فلسطين قبل نهاية الانتداب البريطاني وبعد انتهائه . فكان اتباعهم في فلسطين يسمون حركتهم بحركة « التحرير الوطني » حتى استغنوا عن التبشير بالوطنية فعدلوا عنها الى محاربة الأوطان العربية جميعا باسم الطبقات .

وهم يجرون فى خداعهم وتوميههم على هذه السنة كلما احتاجوا الى محالفة الأديان بين من يعتقدونها •

وقد يخلقون الجماعات الدينية التى تظهر غير ما تبطن وتعمل لنشر الشيوعية والتمهيد لها ، وهى تتراءى للناس فى مظهر الغيرة على الدين والجهاد فى سبيله •

وعندنا نحن شاهد قريب على هذه المخادعة الدينية من تلك العصابة التى قامت على نظام العصابات الشيوعية فى أساليبها ووسائلها وتلقت منها العدة والعتاد وعملت على خدمتها باشاعة الفوضى ونشر الفتنة والقلق والاضطراب •

فالدعوة التى تقوم على فكرة تقف فى سبيلها الفكرة ، وتقف فى سبيلها العقيدة •

أما الدعوة التى تتحول الى مؤامرة مصرة على تنفيذ جريمتها الكبرى بكل وسيلة والاحتيال لها بكل حيلة والتمثل من أجلها فى كل صورة ، فانما تحارب كما تحارب المؤامرات •

انما تحارب بقوة القانون ويقظة الساهرين على استمرار النظام •

واذا قيل ان محاربة الشيوعية بالقانون وحده لا تكفى فيجب فى هذه الحالة أن نفرق بين الشيوعية نفسها وبين الدعوة الى الشيوعية •

فمحاربة الشيوعية نفسها انما تكون باصلاح المعيشة ونشر الرضا والطمأنينة ومنع أسباب الشكوى والامتعاض بين الطبقات الفقيرة على الخصوص •

فلن تحارب الشيوعية نفسها بسلاح أمضى من هذا السلاح ، ولن يفلح سلاح آخر فى محاربتها ولو تضافرت على تأييده جميع القوانين •

أما الدعوة الى الشيوعية فلن يمنعها اصلاح المعيشة بل يزيدها ويثير أصحابها ويستحثهم أبدا الى مضاعفة الجهد واختلاق أسباب جديدة للتحريض والتهييج •

فلا يطلبون اذن صلاح حال الفقير بل يعمدون الى صاحب المعاش المضمون ويثيرونه على من هو أرفه منه معاشا ليحسده وينقم عليه .

ولن تستغنى المجتمعات عن سلاح القانون فى محـاربة هـؤلاء المفسدين ، لأنهم متآمرون على تنفيذ جريمة وليسوا بدعاة الى فـكرة يحترمونها ولا يقبلون الخداع فيها .

على أن الساسة الذين يبحثون اليوم فى مكافحة الشيوعية ، ويتلقون التقارير من بلدان الشرق الأدنى عن نشاطها فيها يحق لهم — بل يحق عليهم — أن يستوفوا تلك التقارير بعض الاستيفاء ليعرفوا مدار الدعوة الشيوعية فى هذه البلدان ان أرادوا أن يعرفوها حق عرفانها .

ان مدار الشيوعية فى بلدان الشرق الأدنى هو مواقف أولئك الساسة أو هو الطمع الأشعبى الذى يعميهم عن مواجهة الحقيقة ويصيبهم أحيانا بما هو شر من العمى المطبق وهو العمى على حسب المشيئة والاختيار . يبصرون ما يرضيهم ويغمضون عما لا يرضيهم ، وتفتح الشيوعية عيونها جميعا لما يرضى ويسخط على السواء .

وان الشيوعية لتفقد نصف وسائلها على الأقل اذا شاء الساسة الذين يبحثون اليوم عن مكافحتها ... وانهم ليشـاءون ويسـتطيعون ، فهل يفعلون ؟ » .

ويحلل جارودى عنصر الالحاد فى الماركسية وعداوتها للدين فى كتابه الشهير « ماركسية القرن العشرين » ، ذلك أن الالحـاد الماركسى لا يعتبر الدين خديعة فحسب ، اصطنعها المستبدون ، أو مجرد وهم ولده الجهل ، كما يزعم الماركسيون ، بل أن ماركس وأنجلز ، يزعمان أن الأديان هى فى وقت واحد « انعـكاس لشقاء فعلى واحتجـاج على هـذا الشقاء » (١) !!

---

(١) جارودى ، السابق ، ص ١٤٥ .

أولا ـ موقف الاسـلام :

يقول الامام الغزالى الذى اشتهر بحجـة الاسـلام فى كتـابه « المستصفى من علم الأصول » : « ومقصود الشرع من الخلق خمسة ، وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهـم ، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة وكل ما يفـوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة . وهذه الأصول الخمسة وحفظها واقع فى رتبة الضرورات ، فهى أقوى المراتب فى المصالح » .

واذا راجعنا ما خلفه فقهاء المسلمين من آثار على مستوى كافة المذاهب الفقهيـة ، لوجـدنا أن فقهـاء المسـلمين قد أوردوا هـذا الذى قاله أبو حامد الغزالى ، وربما بعبارات مشابهة لعبارات أبى حامد الغزالى .

والذى نقصده بهذا ، ان كل من انكب على دراسة الشريعة الاسلامية قد وقف على حقيقة مقاصد ومرامى الشارع الاسلامى ، فقد اكتشف كل من اهتم بدراسة هذه الشريعة أنها تتوخى بأحكامها الحفاظ ـ أساسا ـ على خمسة أصول هى : الدين والنفس والنسل والعقل والمال .

وقد أطلق فقهاء المسلمين عليها مصطلح « الأصول الخمسة » ، لأنهم اعتبروها بمثابة الأصول أو الدعائم أو العمد التى تنهض عليها الجماعة الاسلامية كما أراد لها الشارع الاسلامى أن يقيم الجماعة الاسلامية على دعائم ثابتة ، ورأى أنه بتوافر هذه الدعائم تقوم الجماعة الاسلامية ، على دعائم ثابتة ، وانه بالحفاظ عليها تستمر فى الوجود والتقدم وينصلح حالها فى طريق الصلاح والنجاح .

وبعبارات أخرى ، فان الشارع الاسلامى رأى انه لوجود الجماعة الاسلامية فى أحسن حال ولضمان بقائها « جماعة اسلامية » تسير فى طريق الخير الذى أراده لها وبها فانه لابد من ضمان ما يلى (١) :

---

(١) طارق حجى المرجع السابق ص ٥٣ وما بعدها وقد اعتمدنا على كتابه القيم « المركسية والأديان » فى الجزء التالى لكشف المخطط الشيوعى ضد الاسلام .

ـ سلامة الاعتقاد لأفرادها من كل اعتقاد فاسد •

ـ سلامة أرواح وأبدان أفرادها من كل عدوان عليها •

ـ سلامة الوحدة الاجتماعية الأساسية فى الجماعة وهى الأسرة وحمايتها من كل عدوان يقوض دعائمها ويفرط عقدها •

ـ سلامة عقول أفراد الجماعة الاسلامية من كل آفة تصيب هذه العقول فتجعل أصحابها عالة على الجماعة وتساوى بينهم وبين الحيوانات باعتبار أن العقل هو السمة المميزة للانسان عن سائر الحيوان •

ـ سلامة أموال الأفراد ، حيث أن الاسلام يدعم الملكية الفردية للمال وان كان ينظمها تنظيما دقيقا • فالانسان ينشد لنفسه ولأهله من زوج وأبناء واخوة وغيرهم أهدافا عديدة لا تتحقق عادة الا بالمال ، لهذا فهو يسعى بالعمل المتنوع الأشكال لجمعه ليحقق لنفسه ولأهله الضمان فى الحال والمال • لذا فقد رأى الشارع الاسلامى أن يحفظ حق الناس فى مالهم من كل عدوان على هذه الأموال •

تلك اذن الأصول التى أجمع فقهاء المسلمين على وجوب حمايتها وحفظها وصونها ووقايتها من شتى صنوف العدوان والاهدار والاضاعة • لذا ، فقد أوجب على الحاكم المسلم أن يحمى هذه الأصول ، وأعطاه أدوات الحماية وسبل الوقاية والرعاية والصيانة :

ـ فمن أجل حماية الاعتقاد الدينى السليم حرم التلاعب بالأديان وقرر حد الردة •

ـ ومن أجل حماية الأرواح والأبدان قرر القصاص فى النفس « أى فى القتل العمد » وفيما دون النفس « أى فى الجروح » •

ـ ومن أجل حماية النسل قرر حماية الأسرة من أكرر معول يعمل على تقويض دعائمها ونسف أساسها ألا وهو الزنا • فقد رأى أن الزنا بين غير المتزوجين دافع محرض على عدم الاقبال على الزواج الذى هو أساس الجماعة الاسلامية لأنه مصدر الأسرة التى لها المكانة العظمى فى

التشريع الاسلامى بوصفها الجماعة الأساسية فى المجتمع التى تخرج أجيالا مؤمنة صالحة عاملة من أجل خير الجماعة ونفعها . وقد أثبت زمننا هذا أن الزنا قد حقق ما توقعه الاسلام بين غير المتزوجين ، حيث عزف الرجال عن الزواج .وصارت المجتمعات الصناعية المتقدمة تعانى معاناة شديدة من مشكلة عدم زواج الملايين من النساء والرجال . أما الزنا بين المتزوجين فهو اعتداء لا مراء فيه على الحياة الزوجية وعلى قدسية العلاقة بين الرجل والمرأة المتزوجين واخلال صريح بما يجب على طرفى العلاقة الزوجية من احترام وصيانة وحفظ .

لذا فقد شرع الشارع الاسلامى حد الزنا ليردع من تخامر عقولهم فكرة الجرم عن اتيانه ، فان أتاه نفر قليل منهم كان العقاب الصارم الذى ينزل بهذا النفر منعا وردعا فعالا للكافة .

— ومن أجل حماية العقول ، شرع حد الخمر ليحفظ للعقول صحوتها وادراكها ، فماذا يساوى انسان بلا ادراك و تمييز ؟ وأى نفع يعود على البشرية من غياب عقول أفراد الجماعة ؟ .. وكم هى أشكال وضروب العدوان التى ترتكب من أفراد ضاعت عقولهم ؟ .. وكم دفعت الأسر ودفـــع الأبرياء من ثمن باهظ من جراء غيـــاب عقـــول بعض أفـــراد الجماعة ؟ ... لذا كان لزاما أن يحفظ الشارع الاسلامى عقول أفراد الجماعة الاسلامية ، وأن يعقاب بشدة وصرامة على كل ما من شأنه أن يفقدهم تلك السمة التى كرمهم الله وميزهم بها عن سائر الموجودات ألا وهى سمة العقل والادراك والتمييز .

— ومن أجل حماية المال ، شرع الشارع الاسلامى حدى السرقة والحرابة « قطع الطريق » ليأمن الناس على أموالهم وليتحقق شيوع الاستقرار وذيوع الطمأنينة بين الأفراد ، فلا يضيعون جهودهم فى الاحتراز والحراسة ، ولا توجل قلوبهم خوفا وهلعا من عدوان على ما لهم ولا يضيع عمل عامل ، ولا تحصل يد على مالا تستحق ..

تلك اذن أصول الجماعة الاسلامية كما استخلصها فقهاء المسلمين من كتاب الله ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، تلك هى سبل حماية

هذه الأصول كما وضحها كتاب الله وكما بينتها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشارحة والمتممة والمكملة لكتاب الله .

وقد كتبنا كل هذا لنقول فى النهاية أن معيارنا فى تقييم المذاهب من وجهة نظر اسلامية انما يختلف عن كل ما كتبه المؤلفــون والباحثون المعاصرون عن المذاهب المختلفة وعن موقف الاسلام منها .

فنحن لا نصف مذهبا من المذاهب بأنه مذهب هدام ولا بأنه مذهب بناء استنادا الى رأى شخصى فى هذا المذهب أو ذاك ، وانما نحن نستند الى معيار واضح لا لبس فيه ولا غموض ، معيار نعرضه فى هذا المجال على العقول العربية لأول مرة ، أما هذا المعيار فتلخص فيما يلى :

انه لكى يتيسر للباحث المسلم أن يبت فى طبيعة وكنه مذهب من المذاهب أو دعوة من الدعوات أو تيار من التيارات ، وهل هو مذهب أو دعوة أو تيار بناء أو هدام ، لكى يتيسر له ذلك بشكل قطعى لا يكتنفه غموض ولا تشوبه شائبة ، فان عليه أن يعرض هذا المذهب أو تلك الدعوة أو ذاك التيار على الأصول الخمسة للجماعة الاسلامية ، الدين والنفس والنسل والعقل والمال ، فان وجد هذا المذهب لهذه الأصول حافظا صائنا ، فهو مذهب لا غبار عليه من وجهة النظر الاسلامية . أما اذا وجده مضيعا ومهدرا لأصل أو أكثر من تلك الأصول ، فعليه بداهة أن يصنفه تحت لواء المذاهب الهدامة التى تناقض الاسلام ويناقضها الاسلام ، والتى تسعى لتقويض الاسلام ويسعى هو أبناؤه لدحضها .

ويبقى السؤال الهام الذى يعنينا فى هذه الدراسة أن نرصد اجابته للقارىء بوضوح تام :

وماذا عن الشيوعية أو الماركسية ؟

ونجيب بأننا لن نجيب على هذا السؤال بعد كل ما قلنا الا بعرض المذهب الماركسى أو الشيوعى على المعيار الاسلامى الذى بيناه فى هذا المجال لنرى — بعد العرض — اجابة السؤال واضحة تفرض نفسها على المنطق السليم غير ذى العوج وعلى العقل المستقيم غير ذى الأمت ..

موقف المذهب الماركسى من أصول المجتمع الاسلامى :

ان المطالعة المتفحصة المدققة لكل ما خلفه دعاة الماركسية وأقطاب دعوتها أمثال كارل ماركس وفردريك انجلز ولينين وتروتسكى وستالين وغيرهم توضح لنا أن موقف الماركسية من هذه الأصول انما نجمل فيما يلى من نقاط :

أولا — بالنسبة لأصل الدين :

فان الماركسية صريحة فى موقفها من الدين ، فهى تسميه بأفيون الشعوب وتعتبره مخدرا يتلهى به المظلومون والمستغلون لينسوا الدرك الأسفل الذى فيه يحيون • كما أن الماركسية لم تخف أبدا أنها تسعى للقضاء على الدين والفكر الدينى والمتدينين • وليس صحيحا بحال من الأحوال أن موقف الماركسية من الدين قد تغير فى الوقت الراهن • ويكفى أن نطالع ما جاء فى الجزء الأول من دائرة المعارف السوفيتية التى طبعت منذ سنوات قليلة لندرك هذه الحقيقة •

فقد جاء فى الصفحة السابعة والأربعين من الجزء الأول من دائرة المعارف السوفيتية التى نشرتها وكالة نوفستى للأنباء فى موسكو باللغة العربية فى منتصف الستينات ما يلى :

« هل يمكن قبول عضوية متدين فى الحزب الشيوعى ؟ •• كلا لا يمكن ذلك ، فان فلاديمير لينين مؤسس الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى كتب فى عام ١٩٠٥ يقول « نصر على اعتبار الدين مسألة خاصة فيما يختص بالدولة ولكننا لا نستطيع أبدا أن نعتبر الدين مسألة خاصة بالنظر الى حزبنا » •

وتمضى الدائرة فتقول : « وتعارض الفلسفة الماركسية المادية التى يعتنقها الشيوعيون أساسا الفلسفة المثالية والتعاليم الدينية ولهذا فليس هناك شيوعيون فى الاتحاد السوفيتى يؤمنون بالله » ، ثم تكمل دائرة

المعارف السوفيتية حديثها تحت عنوان « كيف تسير الدعاية ضد الدين ؟ » فتقول : « وتحتوى جريدة (العلم والدين) التى تصدر فى موسكو مقالات تثبت ضرر الظلم الدينى وأفلاس الفلسفة الدينية والخطر الأدبى على الشعب • وتكرس جمعية زنانى جزءا كبيرا من نشاطها واهتمامها لدعاية الالحادية وتنظم محاضرات عامة معادية للدين » •

وتنهى دائرة المعارف السوفيتية كلامها فى هذا الموضوع بقولها : « ويجب أن نوضح أن الأغلبية العظمى من الشعب السوفيتى ملحدون » •

هذا ما يقولونه بأنفسهم وعن موقفهم من الدين •

وقد وضح الأستاذ طارق حجى فى كتابه المشار اليه ؛ ما فعله الشيوعيون مع الدين والمؤمنين به فى كل مكان قيض لهم فيه أن يقبضوا على مقاليد الأمور ، وكيف ترجموا — فى مواقف عملية — موقفهم النظـرى من الدين ، عندما أغلقوا دور العبادة وحولوها الى قاعات للألعاب الرياضية أو مراكز للحزب الشيوعى أو لجمعيات الالحاد العلى أو لمتاحف ! •• وعندما جعلوا الدين حائلا يحول بين المواطن المؤمن وبين المناصب العليا والوظائف المرموقة ، وعندما وظفوا رجال الدين والقائمين على التعليم الدينى فى المزارع الجماعية وفى المصانع ••• وعندما أعطوا الضوء الأخضر لوسائل اعلامهم الأحادية اللون أنتطلق فى حملات دعائية ضد الدين والمؤمنين مستخدمة أحط وسائل الدعاية العدائية لتحقق غرضها وتصور الدين بمثابة شر مستطير وصنو ملاحق وملاصـق للاسـتغلال والعبودية والظلم والسرقة ! •• وعلى القارىء أن يقلب صفحات هذا الكتاب ليطالع ما ورد فيه عن بعض ما فعله الشيوعيون فى هذا المجال •

ثانيا — بالنسبة لأصل النفس :

حقيقة أنهم لم يدعوا صراحة لازهاق الأرواح والى التقتيل واباحة الأنفس الا أن أعمالهم — لا أقوالهم — انما تؤكد أنهم أصحاب دعوة كلفت البشرية من الضحايا ما لم تكلفه لها أية دعوة منذ خلق الانسان وحتى يومنا هذا •

ونحيل القارىء الى أعداد جريدة الفيجارو الفرنسية الصادرة ما بين ١٩ و ٢٥ نوفمبر ١٩٧٨ ليعرف الحقائق المذهلة عن ضحايا الشـــيوعية والشيوعيين •

كما نحيله أيضا الى مقال قيم بعنوان « ضحايا الماركسية المائة وثلاثة وأربعون مليون قتيلا » الذى كتبه فاندر أليست ونشرته جريدة الديلى تلغراف بعددها الصادر يوم الاثنين ١٩/٣/١٩٧٩ •

وباختصار شديد فانه فى حين بلغ ضحايا النظام القيصرى فى روسيا ١٨٢١ و ١٩٠٦ م « ١٩٧٧ » ضحية فان عدد الذين قتلوا من معارضى لينين ما بين ١٩١٧ و ١٩٢٣ م فقط بلغوا مليون وثمانمائة وواحد وستون قتيلا « ١ر٨٦١ر٥٦٨ » !!

وقد رجع البروفيسور كوغانوف فى دراسة له الى مصادر سوفيتية نشرت فى جريدة نوفى روسوكى سلوفا فى ١٤/٤/١٩٦٤ م تثبت أن ستة وستين مليون روسى قد أعدموا ما بين ١٩١٧ و ١٩٥٩ م •

كذلك فان دراسة سيرجى جروسو التى نشرت عام ١٩٧٥ م • تثبت أنه يوجد حاليا فقط أكثر من مليونين من الأشـــخاص فى معســـكرات الاعتقال السوفيتية التى وصف الروائى الروسى العبقرى سولجنتسين مأساة الحياة غير الآدمية فى روايته العظيمة « يوم واحد فى حيان ايفان دينيزوفيتش » •

وباختصار فان الدراسات المعاصرة تؤكد أن ضحايا الشيوعية منذ عام ١٩١٧ وحتى الوقت الراهن قد بلغت ١٤٣ مليون قتيل منهم ٧ر٦٦ مليون قتيل فى الاتحاد السوفييتى ما بين ١٩١٧ و ١٩٥٩ م و٣ مليون قتيل فى نفس البلد منذ ١٩٥٩ م وحتى الوقت الراهن ، و ٨ر٦٣ مليون قتيل فى الصين الشعبية ، و ٣ مليون قتيل ألمانى على يد الروس بعـــد انتاهء الحرب العالمية الثانية و ٥ر٢ مليون قتيل فى كمبوديا وحدها ما بين ١٩٧٥ و ١٩٧٨ و ٥ر٣ مليون قتيل فى أماكن أخرى من العالم •

ثالثا — بالنسبة لأصل النسل :

فالماركسية تدعو صراحة لبلوغ المرحلة العليا من الشيوعية التى تكون الأموال والنساء فيها على الشيوع ، فلا يختص رجل بامرأة ولا تختص امرأة برجل ، كما أن الدولة هى التى تعنى بتنشئة الأطفال دون أن ينسبوا لأ بمعين أو لأم معينة •

واذا راجعا فقط كتاب فردريك أنجلز « أصل العائلة والدولة والملكية الخاصة » لعرفنا رأى المركسيين الحقيقى فى الأسرة وكيف أنهم يرون أن استئثار رجل معين بامرأة معينة انما هو من توابع الملكية الخاصة للمال ، فمالك المال يريد أن يتأكد من ذريته التى ستورثها ماله : فاذا ألغيت الملكية الخاصة زال مبرر النسب والزواج والأسرة واستئثار الرجل بزوجة خاصة له !! •

رابعا — بالنسبة لأصل العقل :

فان النظم الشيوعية توفر الخمر لشعوبها كالماء تماما لتنشغل العقول عن تأمل المأساة التى يرزح أصحابها فيها • ولم يزر زائر البلدان الشيوعية الا ولاحظ الانتشار الكبير للخمور بين شعوبها التى يحسن أن تشرب لتنسى المأساة التى وضعها فيها حكامها الشيوعيون •

خامسا — وبالنسبة لأصل المال :

فلا ينكر أحد أن هدف الماركسية الأكبر هو القضاء على الملكية الفردية للأموال التى يعتبرونها مصدر كل المظالم •

وهم يقولون أنه فى المرحلة الشيوعية العليا ستنعدم الأموال وستنعدم الملكية الخاصة تماما للمال فى كل صوره وأشكاله •

هذا هو موقف الشيوعية من الأصول الخمسة للجماعة الاسلامية : وهدم صريح لثلاثة منها وهدم واقعى — وان لم يصرح بذلك — للأصلين الباقيين •

وهكذا يقودنا المعيـــار الاسلامى القاطع والصريح والحاسم الى الجواب القاطع والصريح والحاسم حيث نقف بجلاء على موقف الاسلام من المذهب الشيوعى بوصفه رأى قائمة المذاهب الهدامة • فهو مذهب يتوخى تقويض وهدم جميع أصول الجماعة الاسلامية ، فلا يسع الباحث المسلم اذن الا أن يدمغ دعوة هذا المذهب بأنها دعوة هدامة تنـــاقض الاسلام وتناقض جورهه وأهدافه ومراميه ، وأنها دعوة يجدر بالباحث والمثقف والدارس المسلم أن يحاربها أشد الحرب وأن يجاهدها أقوى جاهد وأن يناهضها بكل السبل وشتى الوسائل وفى مقدمتها وسيلة العقل الراجح والحجـــة الســـاطعة « وجادلهم بالتى هى أحسن ـــ صـــدق الله العظيم » •

ثانيا : وجهـــة النظر المسيحية

أما اذا أردنا أن نقف على وجهة النظر المسيحية من الماركسية ؛ فيكفينا ـــ دون تطويل ـــ أن نلمح للتنـــاقض الجوهرى بين الماركسية والمسيحية حـــول « العنف » فبينما نجـــد أن المســـيحية هى دعـــوة دينيـــة بالمحبة والتســـامح وعـــدم التشاحن والتبـــاغض والتلاعن ، فاننـــا نجـــد أن الماركســـية ـــ على النقيض ـــ هى مـــذهب يدعو جهارا لتطوير الصراع الطبقى ولتنمية شعور الطبقـــة العمالية بالحقـــد الطبقى ، لتزداد وعيا بهذا الصراع وذاك الحقد ، حتى يصل حقدها يوما لحد الانفجار ، فيشتعل فتيل الثورة البرونيتارية « العمالية » التى توصى الماركسية العمال بأن يقوموا فيها بتحطيم الطبقات الأخرى والاجهاز عليها من خلال عمل دموى عنيف • ورا على أقاويل ماركسية بتبدل وجهة النظر الماركسية بخصوص العنف ، نحيل القراء الى كتاب انجلز « نظرية العنف » الذى ترجم للعربية ونشر فى بيروت منذ سنوات قليلة •

اذا اكتفينا بهذه الكلمات القليلة عن « التسامح المسيحى » وعن « الحقد والعنف الماركسيين » وعما يكمن فيهما من تناقض وتباعد لكان

ذلك كافيا لكل ذى عقل سليم ومنطق مستقيم ، ليرى أن الدعوتين ضدان لا يلتقيان ونقيضان لا يجتمعان .

ومع ذلك فما أكثر مواطن الخلاف الجوهرى الأخرى بين المسيحية والماركسية .

فالمسيحية دين يؤمن بوجود اله خلق العوالم كلها ؛ كما أنها دين يؤمن معتنقوه بوجود حياة أخرى ، دين يدعو المؤمنين به للخلود فى نعيم هذا العالم الآخر عن طريق أتباع تعاليم السيد المسيح عليه السلام ؛ وعن طريق الاقتداء وبالرسل والقديسين . وما أشد حملة الماركسية والماركسيين على هذه المعتقدات ، سواء ارتدت رداء المسيحية أو أى دين آخر .

والحق الذى يعلمه الذين طالعوا ودرسوا كل ما كتبه ماركس عن الدين ، أن حملته وان كانت على الدين كفكرة فقد انصبت أيضا وبشكل واضح على المسيحية بالذات فقد استعمل فى كتاباته عن السيد المسيح والسيدة مريم والقديسين المسيحيين ورجال الدين المسيحى أحط الأوصاف وأسوأ النعوت وأشد التعبيرات بذاءة .

ولا ريب أن « كارل ماركس » لم يستطع يوما أن يرى فى رجال الدين المسيحى الا حلفاء وشركاء للمستغلين « بكسر الغين » والحكام الظالمين .. على شاكلة راسبوتين الذى جاء من بعده .

ومما لا شك فيه أيضا أن ماركس فى حديثه عن المسيحية والمسيح كان قصير النظر الى أبعد حد ، وكان سوء نيته من وراء قصر نظره هذا ، فقد خلط بين السيد المسيح عليه السلام والمسيحية كديانة وبين شطط البعض من رجال الكنيسة فى القرون الوسطى . فالمسيح كان رجلا فقيرا التف حوله نفر من الفقراء والمظلومين ، كما أنه كان بلا ريب ضد — لا مع — أثرياء اليهود فى أيامه ..

وما فعله الشيوعيون بالمسيحية والمسـيحيين فى روسيا وشرق أوروبا معروف للكافة ، فقد هدموا الكنائس وصادروا أموالها وحولوا أسـاقفتها وقسيسيها الى عمال بالمزارع الجماعية والمصانع ، وشنوا على الكنيسـة ورجالها حربا شعواء ألصقوا خلالها بالمسيحية ورجالها أحقر الصـفات والسجايا .. وكانت اهانة رجال الدين قصدا مقصودا وراء كل هذا ، عندما حولت الكنائس لمقار لجمعيات الالحاد العلمية ! .

وخلاصة القـول ، أن ما بين الدين ، أى دين ، وما بين الماركسـية لا يمكن الا أن يكون هو العداء السافر والرغبة المتبادلة فى اجهاز أحدهما على الآخر ، وكل تصوير للعلاقة بين الأديان والمركسية على خلاف ذلك هو من قبيل ارتداء الأقنعة على الوجوه لطمس حقيقة النوايا المضمرة حتى يحين الحين ! .

وثيقة هامة تفضح حقيقة النوايا الشيوعية تجاه الدين :

منذ حوالى أربعة عشر سنة أعدت الجهـات المعنيـة فى الاتحـاد السوفيتى بمحاربة الدين وثيقة تضمنت توجيهات للشيوعيين فى سـائر أرجاء العالم التى لا زال للدين بها قدسيته ونفوذه وتأثيره على نفـوس الشعوب ، وبالذات فى البقاع الاسلامية ، وقد تسربت تلك الوثيقـة الى أيد غير شيوعية ، فتلقفها الأستاذ طارق حجي وترجمها ونشرها ، ومنها مجلة « كلمة الحق » فى عددها الصادر فى شهر محرم من سنة ١٣٨٧ هـ « أبريل ١٩٦٧ م » والوثيقة التى أحيطت بقدر هائل من السرية فى الاتحاد السوفيتى ، الا أنها تسربت رغم ذلك ، وثيقة بالغة الخطورة والأهميـة ، ولا تحتاج لأى تعليق أو شرح فهى تظهر — بنفسـها وبوضـوح تام — جوانب التكتيك الشيوعى الراهن فى التعامل مع الدين والمؤمنـين به فى وقتنا هذا ، ولا سيما فى البقاع الاسلامية والمسيحية فى العالم الثالث .

تقول الوثيقة الهامة ، انى أبعد حدود الأهمية ، فى مستهلها : « برغم مرور خمسين سنة تقريبا على الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى وبرغم الضربات العنيفة التى وجهتها أضخم قوة اشتراكية فى العالم الى الاسلام فان الرفاق الذين يراقبون حركة الدين فى الاتحاد السوفيتى صرحوا كما تذكر مجلة « العلم والدين » الروسية فى عددها الصادر فى أول يناير سنة ١٩٦٤ بما نصه : اننا نواجه فى الاتحاد السوفيتى تحديات داخليـة فى المناطق الاسلامية وكأن مبادىء لينين لم تتشربها دماء المسلمين » .

« وبرغم القوى اليقظة التى تحارب الدين فان الاسلام ما يزال يرسل اشعاعا وما يزال يتفجر قوة بدليل أن ملايينـا من الجيـل الجـديد فى المناطق الإسلامية يعتنقون الاسلام ويجـاهرون بتعاليمـه مع أن قادة الشعوب ومفكرى المذهب لا يغيب عنهم خطر يقظة الاسلام فى المناطق الاسلامية بالاتحاد السوفيتى الذى أشار فى « دائرة معـارف الثقـافة الشيوعية » الى خطر الاسلام .

وتمضى الوثيقة فى غيها فاضحة مكنـون ما يضـمره الشيوعيون

(جارودى)

للأديان بوجه عام وللاسلام بوجه خاص ، وهو ما يثبت زيف دعـوات الائتلاف التى يطلقونها ، تمضى الوثيقة قائلة :

« ومن هذا المخطط أن يتخذ الاسلام نفسه أداة لهدم الاسلام نفسه ، وقد قررنا ما يلى :

١ — مهادنة الاسلام لتتم الغلبة عليه ، والمهادنة لأجل حتى نضمن أيضا السيطرة ونجتذب الشعوب العربية للاشتراكية ٠

٢ — تشويه سمعة رجال الدين والحكام المتدينين واتهـامهم بالعمـالة للاستعمار والصهيونية ٠

٣ — تعميم دراسة الاشتراكية فى جميع المعاهد والكليات والمدارس فى جميع المراحل ٠٠ ومزاحمة الاسلام ومحاصرته حتى لا يصبح قوة تهدد الشتراكية ٠

وتقـــول الوثيقـــة :

٦ — الحيلولة دون قيام حركات دينية فى البلاد مهما كان شأنها ضعيفا ، والعمل الدائم بيقظة لمحو أى انبعاث دينى ، والضرب بعنف لا رحمة فيه لكل من يدعو الى الدين ولو أدى الى الموت ٠

٧ — ومع هذا لا يغيب عنا أن للدين دوره الخطـير فى بناء المجتمعـات ولذا وجب محاصرته من كل الجهات وفى كل مكان ، والصاق التهم به ، وتنفير الناس منه بالأسلوب الذى لا ينم عن معاداة الاسلام ٠

٨ — تشجيع الكتاب الملحدين واعطاؤهم الحرية كلها فى مهاجمة الدين والشعور الدينى والضمير الدينى والعبقرية الدينية ، والتركيز فى الأذهان أن الاسلام انتهى عصره ، وهذا هو الواقع ، ولم يبق منه اليوم الا العبادات الشكلية التى هى الصوم والصلاة والحج وعقود الزواج والطلاق وستخضع هذه العقود للنظم الاشتراكية ٠

أما الصوم والصلاة فلا أثر لهما فى الحياة الواقعية ولا خطر منهما ، أما الحج فمقيد بظروف الدولة ويمكن استخدام الحج فى نشر الدعوة الاشتراكية بين الحجاج القادمين من جميع الأقطار الاسلامية ، والحصول على معلومات دقيقة عن تحركات الاسلام لنستعد للقضاء عليها ٠

٩ — قطع الروابط الدينية بين الشعوب قطعا تاما ، واحلال الرابطة الاشتراكية محل الرابطة الاسلامية التى هى أكبر خطر على اشتراكيتنا العلمية ٠

١٠ — ان فصم روابط الدين ومحو الدين لا يتمان بهدم المساجد والكنائس ، لأن الدين يكمن فى الضمير ، والمعابد مظهر من مظاهر الدين الخارجية ، والمطلوب هو هدم الضمير الدينى ، ولم يصبح صعبا هدم الدين فى ضمير المؤمنين به بعد أن نجحنا فى جعل السيطرة والحكم والسيادة للاشتراكية ، ونجحنا فى تعميم ما يهدم الدين من القصص والمسرحيات والمحاضرات والصحف والأخبار والمؤلفات التى تروج للالحاد وتدعو اليه وتهزأ بالدين ورجاله وتدعو للعلم وحده وجعله الاله المسيطر ٠

١١ — مزاحمة الوعى الدينى بالوعى العلمى ، وطرد الوعى الدينى بالوعى العلمى ٠

١٢ — خداع الجماهير بأن يزعم لهم أن المسيح اشتراكى وامام الاشتراكية فهو فقير ، ومن أسرة فقيرة ، وأتباعه فقراء كادحون وقد دعا الى محاربة الأغنياء ٠

« وهكذا يمكننا استخدام المسيح نفسه لتثبيت الاشتراكية لدى المسيحيين ٠

ونقول عن محمد : أنه امام الاشتراكيين فهو فقير وتبعه فقراء وقد حارب الأغنياء المحتكرين والاقطاعيين والمرابين والرأسماليين

وثار عليهم وعلى هذا النحو يجب أن نصور الأنبياء والرسل ، ونبعد القداسات الروحية والوحى والمعجزات عنهم بقدر الامكان لنجعلهم بشرا عاديين حتى يسهل علينا القضاء على الهالة التى أوجدوها لأنفسهم وأوجدها لهم أتباعهم المهووسون •

١٣— فى القرآن والتوراة والأناجيل قصص ، ولئلا نصطدم بشعور الجماهير الدينى ونثيرهم ضد الاشتراكية يجب أن نفسر تلك القصص الدينية تفسيرا ماديا اشتراكيا ، فقصة يوسف — على سبيل المثال — يمكن تفسيرها تفسيرا ماديا تاريخيا ، وما فيها من جزئيات يمكن أن نفيد منها فى تعبئة الشعور العام ضد الرأسماليين والاقطاعيين والنساء الشريفات والحكام الرجعيين •

١٤— اخضاع جميع القوى الدينية للنظام الاشتراكى وتجريد هذه القوى تدريجيا من وجدانها ••• الخ •

١٥— اشغال الجماهير بالشعارات الاشتراكية وعدم ترك الفرصة لهم للتفكير واشغالهم بالأناشيد الحماسية والوطنية والأغانى الوطنية والشئون العسكرية والتنظيمات الحزبية والمحاضرات المذهبية والوعود المستمرة برفع الانتاج ومستوى المعيشة والقاء مسئولية التأخر والانهيار الاقتصادى والجوع والفقر والمرض على الرجعية والاستعمار والصهيونية والاقطاع ورجال الدين •

١٦— تحطيم القيم الدينية والروحية باظهار ما فيها من خلل وعيوب وتخدير للقوى الناهضة •

١٧— الهتاف الدائم ليل نهار وصباح ومساء بالثورة ، وان الثورة هى المنقذ الأول والأخير للشعوب من حكامها الرجعيين والهتاف للاشتراكية بأنها هى الجنة الموعودة بها جماهير الشعوب الكادحة •

١٨— نشر الأفكار الالحادية ، بل نشر كل فكرة تضعف الشعور الدينى

والعقيدة الدينية ، وزعزعة الثقـــة فى رجال الدين فى كل قطـــر اسلامى •

١٩ـــ لا بأس من استخدام الدين لهدم الدين ، ولا بأس من أداء الزعماء الاشتراكيين بعض الفـــرائض الدينية الجماعية للتضـــليل والخداع على ألا يطول زمن ذلك لأن القوى الثورية يجب ألا تظهر غير ما تبطن الا بقدر ويجب أن تختصر الوقت والطريق لتضرب ضربتها فالثورة قبل كل شىء هدم القيم والمواريث الدينية جميعها •

٢٠ـــ الاعلان بأن الاشتراكيين يؤمنون بالدين الصحيح لا بالدين الزائف الذى يعتنقه الناس لجهلهم ، والدين الصحيح هو الاشـــتراكية والدين الزائف هو الأفيون الذى يخذر الشعوب لتنساق وتســـخر لخدمة طبقة معينة ، والصاق كل عيوب الدراويش وخطايا رجال الدين بالدين نفسه ، وترويج الالحاد واثبات أن الدين خرافة ، والخرافة تكمن فى الدين الزائف لا الدين الصحيح الذى هو الاشتراكية •

٢١ـــ تسمية الاسلام الذى تؤيده الاشتراكية لبلوغ مآربها وتحقـــيق غاياتها بالدين الصحيح والدين الثورى والدين المتطور ودين المستقبل حتى يتم تجريد الاسلام الذى جاء به محمد من خصائصه ومعالمه ، والاحتفاظ منه بالاسم فقط ، لأن العرب الا القليل مسلمون بطبيعتهم ، فليكونوا الآن مسلمين اسما اشتراكيين فعلا ، حتى يذوب الاسلام لفظا كما ذاب معنى •

٢٢ـــ الأخذ بتعاليم لينين ووصيته بأن يكون الحزب الاشتراكى خصما عنيدا للدين ، ويحارب فكرته فى المنتظر ما بعد الموت بالفردوس الذى تحققه الاشتراكية العلمية التى تحقق العدالة الاجتماعية التى هى الفردوس ، واذا وجدنا من الضرورى مهادنة الدين وتأييده ، وجب أن تكون المهادنة لأجل ، والتأييد بحذر على أن يستخدم التأييد والمهادنة لمحو الدين •

وتقول الوثيقة :

٢٥ـ الاهتمام بالاسلام مقصود منه ـ أولا ـ استخدام الاسلام فى تحطيم الاسلام •• ثانيا ـ استخدام الاسلام للدخول فى شعوب العالم الاسلامى •

ومع أن القوى الرجعية فى العالم العربى والاسلامى قوى يقظة الا أن الخطة التى اتخذناها ستضعف هذه القوى حتى تجردها من عناصر احتفاظها بمقوماتها فتذوب على مر الأيام •

٢٦ـ وباسم تصحيح المفاهيم الاسلامية وتنقيتها من الشـوائب وتحت ستار الاسلام يتم القضاء عليه بأن نستبدل به الاشتراكية •

وتفصح الوثيقة عن أسرار رهيبة فتقول :

وفى المحيط العربى كله يعمل أنصارنا بجد وقد اسـتطاعوا أن يثبوا الى المناصب الرئيسية فى الوزارات والادارات الحـكومية والشركات والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية ، ووفقوا حسب تعليماتنا للسيطرة التى وان كانت فردية الا أن توفيقهم للوصول الى تلك المناصب يعد من الأعمال الناجحة ، كما أن لقاء الأفراد بعضهم مع بعض يجعل اللقاءات فى صورة اللقاء الجماعى •

« ولئن كان من المتعذر جدا توقيت التحرك الا أن التمهيد له ينتهى فى وقت غير بعيد ، ويزداد على مر الأيام عدد أنصارنا الذين يتـولون المناصب ذات الأثر الفعال فى خلق الجو الصالح للتحرك الثورى وحسب تعليماتنا لهم جعلوا من الوزراء والمسئولين الذين لا يشك فى اخلاصهم للنظام الرجعى الحاكم المعادى للاشتراكية واجهة يقفون وراءها ويعملون تحت ستارها ما يريدون فى أمن وطمأنينة مع اليقظة والحذر دون أن تحوم حولهم الشكوك لأنهم يتسترون بأولئك المسئولين •

وأنصارنا منبثون فى كل الوزارات والادارات والقطاعات الحكومية

والعسكرية والشعبية والرسمية والأهلية واتسعت دائرة نفوذهم التى تزداد اتساعا ويزداد تغلغلهم على مر الأيام •

كانت تلك كلمات الوثيقة التى تفضح حقيقة آراء الشيوعيين ونواياهم تجاه الدين ، وهى حقيقة ما اكتت تحتاج للدليــل عليهــا فما من دارس للشيوعية متابع لأصولها ومسيرتها فى مجال التطبيق والنشاط العلمى الا ويدرك — ادراكا كاملا — تلك الحقيقــة بكل أبعــادها ولكن ركون الشيوعيين للأقنعة وأخذهم — فى السنوات الأخيرة — فى اعلان غير ما يضمرون ، واسترسالهم فى الكذب والبهتــان ، مع الاعادة والزيادة المعهودة فى فنون الدعاية الشيوعية (١) ، كل هذا أوجد جيلا جديدا أمكن خداع بعض اليافعين فيه وغير ذوى الدراية والتعمق فى معرفة الشيوعية ، فتسربت لعقول هؤلاء قناعة — لا أساس لها من الصحة — بأن من الممكن التعايش بين الدين — وخاصة الاسلام — وبين الاشتراكية ! • وهى قناعة تبرهن على نجاح المخطط الشيوعى الراهن فى خداع وتضليل البعض ليساق فى النهاية الى حتفه ، وأى حتف أسوأ وأحط هوانا وعبودية وذلا وفقرا ونكدا من حتف الشيوعية ؟ !! •

ويذهب جارودى الى أن القــول بأن الدين فى كل زمان ومكان ، يصرف الانسان عن العمل والكفاح ، يتناقض تناقضا صارخا مع الواقع التاريخى •

---

(١) راجع الفصل المعنون بـ « الدعاية الشيوعية فى ميزان الحقيقية » فى كتاب الأستاذ طارق حجى : « افكار ماركسية فى الميزان » •

الباب الثالث

جـــــارودى

والحقيقـــــة كلهـــا

يصدّر جارودى كتابه الشهير Toute la Vérité أو « الحقيقة كلها » بقول القضاة فى قضية دريفوس » .

« ان السؤال لن يطرح » .
وعقّب جارودى على ذلك بقوله: « ومع ذلك طرح السؤال وأجاب عنه التاريخ » .

وكأنما أراد جارودى بهذا القول أن يجسد موقفه تجاه الماركسية والحزب الشيوعى ، ولا سيما بعد خلافاته مع قيادة الحزب الشيوعى الفرنسى وهى الخلافات التى انتهت الى اقصائه عن المكتب السياسى وعن اللجنة وأخيرا فصله من الحزب الشيوعى .. ولم يعد الأمر الآن هــو التساؤل عن حقيقة هذا الخلاف كما أثير فى ذلك الحين ، وانه ابتعد عن الماركسية اللينينية ، واتهم بأنه بات يمينيا وتحريفيا وانقساميا ، وانما أصبح الأمر يمثل خطوة من خطوات التطور الفكرى فى رحلة جارودى نحو النور ، والتى انتهت به الى اعتناق الاسلام ، واكتشاف عبقرية الفكر الاسلامى ، التى دفعت به فى محنته مع الحزب الشيوعى الى أن يقول : « ان الواجب الذى يقع على كاهلنا هو انقاذ الرجاء .. ولن يتحقق لنا ذلك بالسكوت ، بل بالوضوح » وقد مثل هذا القول مفتاح حياته كلها ، ولذلك ننظر الى الوثائق التى نشرها فى كتابه على أنها تتضمن أجزاء من رحلة البحث عن الحقيقة كلها ، ولذا قال جارودى :

« أعرف أن رفاقا كثيرين سوف يتألمون حين يقرأون هذه الأشياء

وانى لأفهمهم . أيحسبون أنى لا أعيش نفس التمزق ونفس المأساة ؟ لكن اذا كنا لا نريد أن نيأس من المستقبل ، وأن نفاجأ من جديد بمثل صباح براغ ، فيجب ألا نهدهد أنفسنا بالأوهام أو الأساطير أو الأكاذيب .

« ان ثقة جديدة فى القضية التى هى مبرر حياتنا لا يمكن أن تبنى الا على الحقيقة .. ليس السكوت مساعدة . ان هذه السكوت ينتهى لأن يشابه اليأس » .

وحينما نقدم فى هذا الباب وثائق « الحقيقة كلها » ، فاننا نستهدف أمرين :

الأول : التعرف على مرحلة هامة من رحلة جارودى نحو البحث عن الحقيقة .. والتى انتهت به الى الوصول الى نور الاسلام .

الثانى : كشف حقيقة الشيوعية بوثائق لا تتأتى الا عن طريق فكر مستنير كفكر جارودى يؤيد موقف الاسلام من الشيوعية والمذاهب الهدامة .

ذلك أن الحقائق الأساسية للمذهب المادى تؤكد أن الحق والعدل الأزليين ليسا فى ذاتهما قيمة موضوعية ولا هما جديران بأن يسعى وراءهما الانسان ومثلهما بطبيعة الحال كل ما يتصل بهما من نبوات وعقائد ، ومشاعر دينية أو فنية : انما الحقيقة الأزلية الواحدة عند أصحاب هذا المذهب هى الاقتصاد .

وهكذا ينفون الدوافع النفسية الأصيلة ، فضلا عن الدوافع الروحية . وهم لا ينفون وجودها فى الجدل النظرى ، ولكنهم يقولون أنها ليست شيئا قائما بنفسه ، ولا صادرا بصورة تلقائية من الكيان البشرى ذاته . وانما هى نتائج للأحوال الاقتصادية ، وتلك هى القوة الوحيدة القائمة بذاتها ، خارجة عن نطاق الانسان ، ومؤثرة فيه من الخارج (١) . والرحلة

---

(١) محمد قطب : الانسان بين المادية والاسلام ، ص ٥٨ .

الفكرية لجارودى تميزت بالرؤيا النقدية للحضارات ، على أفضل نحو تتميز به العقلية المفكرة فى كل العصور ، ولذلك لم يبلغ مفكر من المفكرين فى هذا العصر الذى نعيش فيه مكانة جارودى ونفوذه الفكرى فقد تخطى جارودى مرحلة كسب المعرفة فى ظل الفلسفات التقليدية ، لأنها معرفة أشبه بالحلية التى تضاف الى الشىء لتكسبه رونقا فيصلح للزينة ، الى مرحلة من المعرفة تريد تغيير العالم : وتجعل للانسان دورا فى هذا التغيير ، حيث لا تطلب المعرفة لذاتها ، ولا لأنها تفضى الى الاستنارة وتبديد الجهل ، بل لأنها تحقق الا من حين ترسى قواعدنا على شاطىء اليقين •

ويمكن تلخيص الرحلة الفكرية لجارودى اذن فى أنها بدأت من شاطىء « اللا يقين » وانتهت الى شاطىء « اليقين » ، ومر بين الشاطئين بأمواج تدفعه أحيانا الى الاقتراب من « اليقـين » ثم بأخـرى تحاول اقصاءه عن هذا الشاطىء المنشود ، فاتسم فكر جارودى منـذ بداية اشتغاله بالقضايا العامة فى الثلاثينات ، بأنه مفكر صاحب موقف وعقيدة • ووصل الى الاسلام العظيم بعد رحلة فكرية طويلة اتسمت بالعناء والجهاد الفكرى المتصل •

ومنذ بداية حياته الفكرية كان جارودى من أشد أعداء النازية ولم يكن عداؤه سياسيا فقط • ولم يكن انكارا للفكر الألمانى أو كراهية للشعب الألمانى ، وانما كان عداء لنظرية ضيقة الأفق هى « قرية الملامح » Proviciale التى تزعم انقسام الانسانية ، وتفاوت الحضارات وتقسيم العالم على أساس اللون والعنصر ، ذلك أن النازية الضيقة الآفاق والتى دججت بالقوة ، والسلاح ، وبالحرب العصرية الشاملة ، كانت سببا فى خراب أوربا ، وتعاسة أجيال كاملة فأشعلت حربا مدمرة ، وبقدر — ما هدمت وقتلت ودمرت فقد هزت الضمير الأوربى والانسانى •

وفى مواجهة هذا الخطر الكبير على الانسانية ، كان موقف جارودى المقاوم والمجاهد يمثل المفكر حينما يصبح ضميرا للانسانية ، فقد فطن

جارودى لأخطار تلك الأيديولوجية العنصرية ، وبلغ على مدى ثلاثين عاما مكانة « أرنولد توينبى » و « جان بول سارتر » و « جورج برنارد شو » ، وزاد من مكانته أنه تميز بموسوعية نادرة ، ونضال من أجل أفكاره وحساسية خاصة لأحداث عصره وجيله ، وصراحة وصرامة فى الفكر •

وبدأ جارودى فى تناول فضل الحضارة العربية على الثقافة الانسانية منذ عام ١٩٤٧ • واهتم مبكرا بابن خلدون وبالفكر الاسلامى خلال ثلاثين عاما متصلة • وليس هناك شك فى أن تحليله لنهضة الاسلام وفكره وفنونه وقوانينه ، يجعله من أكثر المفكرين العالميين الذين أنصفوا الاسلام، وقد تفوق على الأكثر من هؤلاء ، لأنه توفر بدأت وجهد على دراسة الاسلام تاريخا ، وفنا ، وشعرا ، وقيما ، واجتماعا ، وقانونا ، ومعمارا • فاذا به يخرج من مقارنات عميقة فى الملكية والقانون والزكاة والحياة الاجتماعية والصلاة والفن باكتشافات جديدة ملما توفرت لكاتب معاصر كتب عن الاسلام بأية لغة من اللغات •

وخلال رحلته الفكرية النقدية الطويلة الخصبة النبيلة ، انتهى جارودى الى أن الرأسمالية لابد أن تؤدى الى الاستهلاك والاحتكار والتأف ، وأن الشيوعية لابد أن تنتهى الى انتهاك الحرية وأهدار الآدمية الانسانية •

ولقد كلفته تلك النزعة للحرية واحترام تفرد الانسان ومواقفه النقدية للنظام الشمولى قرارا بفصله من الحزب الشيوعى الفرنسى الذى كان من أشهر أعضائه ، بل كان المفكر الذى تعتمد عليه النظرية الماركسية بعد ماركس وأنجلز ، كما تقدم •• ومنذ ذلك الوقت فان الكوادر البيروقراطية المتشددة أيديولوجيا فى ذلك الحزب لا تكف عن الهجوم عليه ووصفه « بالمراجعة والانشقاق » وقبل أن نواصل فى فصول الكتاب دراسة فكره الاسلامى الذى توصل اليه بعد رحلة عناء ، جعلته يؤمن أن الاسلام هو الدين الانسانى الذى أسس حضارة قامت على الحرية ، وان عصرا جديدا للانسانية سوف يبدأ اذا تنازل الأوربيون عن أسطورة تفوق الحضارة الأوربية ، والغاء بقية الحضارات •• واذا خرج الأوربيون من نظرتهم القروية الضيقة ، للاعتراف ببقية الحضارات ، ولذلك وجدنا « جارودى »

فى كتبه الأخيرة عن « حوار الحضارات » و « ووعود الاسلام »
و « الاسلام فى مستقبلنا » يصل الى قمته ، تلك القمة التى أدت به الى
شاطىء اليقين ، والذى بلغه بعد رحلة طويلة من الفكر
والمثابرة والعناء والبحث والنقد حتى أصبح هذا المفكر العظيم واحدا من
الأعلام الشامخة المستنيرة وضميرا لانسانية الانسان .

وفى هذا الباب ، نعرض لمرحلة من هذه الرحلة الفكرية ، تمثل
أخطرها جميعا ، ونعنى مرحلة نقده الماركسية وفصله من الحزب الشيوعى ،
كما نقدم وثائق من « الحقيقة كلها » ، لأن هذه المرحلة تؤكد
ما يذهب اليه الفكر الاسلامى من أن الشيوعية لا تلتقى
مع الأصول الانسانية الاسلامية ، ولن يستطيع مجتمع
مسلم يملك النظام الأفضل ، أن يعدل عنه الى الشيوعية أو غيرها من
النظم كالرأسمالية والاشتراكية المادية ، لأن الله تعالى يقول فى كتابه
الكريم : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)
« المائدة ٤٤ » . ولم يقل : ومن لم يحكم بمثل ما أنزل الله أو بشبيه
ما أنزل الله (١) ولذلك يرفض الاسلام ما يروجه الشيوعيون مؤخرا من
أن لا تعارض بين أن نكون شيوعيين ثم نظل مسلمين فالشيوعية قائمة
على فلسفة مادية بحتة ، لا تؤمن الا بما تراه الحواس فقط وكل مالا تدركه
الحواس فهو خرافة لا وجود لها ، أو على الأقل شىء ساقط من الحساب .
يقول انجلز « ان حقيقة العالم تنحصر فى ماديته » ويقول الماديون :
« ان العقل ما هو الا مادة تعكس الظواهر الخارجية » ويقولون كذلك
أن ما يسمونه الروح « ليست جوهرا مستقلا وانما هى من نتاج المادة »
وهكذا تعيش الانسانية مع الشيوعية فى جو مادى خالص يسخر
بالروحانيات ويعتبرها حقائق غير علمية . والعقيدة الاسلامية تأبى أن
تنحصر فى هذا المحيط الضيق الذى يهبط بكرامة الانسان ، ويحوله من
كائن رفيع يسير على الأرض بجسمه وهو يتطلع الى السماء بروحه وفكره ،
الى كائن مادى حيوانى كل همه اشباع « المطالب الأساسية » التى
حددها كارل ماركس بالغذاء والمسكن والاشباع الجنسى !

---

(١) محمد قطب : شبهات حول الاسلام ص ٢١٠ .

« ولا يقولن أحد : أننا غير مقيدين بهذه الفكرة المادية ، ولا ملزمين بها اذا أخذنا الاقتصاد الشيوعى ، اذ ستظل لنا عقائدنا ، والهنا وزسلنا وروحانيتنا ، والاقتصاد منفصل عن كل هؤلاء • لا يقولن ذلك أحد ، لأن الشيوعيين أنفسهم هم الذين قرروا استحالته ، اذا ربطوا ربطا وثيقا بين النظام الاقتصادى وبين العقائد والأفكار والفلسفات المصاحبة له ، على أساس أن — النظام الاقتصادى هو الذى ينشىء العقائد والأفكار والفلسفات ، واذن فلا يمكن لنظام اقتصادى قائم على فلسفة مادية صريحة (كما يقرر انجلز وماركس) أن ينشىء فلسفة روحية أو ينسجم مع فلسفة روحية » (١) •

وفى تقديرنا أن هذا الفهم هو الذى أدى بالفكر النقدى عند جارودى الى البحث فى أفضل صيغ الاشتراكية قبل أن يهتدى الى الاســلام ، ولا سيما قيامه بمحاولة وضع علاقات جديدة بين الاشتراكية والمسيحية ، اذ لاحظ جارودى أن الماركسيين والمسيحيين فى حاجة الى حوار متبادل « حيث لا تستطيع بلدان أوربا وأميركا الشمالية أن تزعم بعد الآن أنها المراكز الوحيدة للمبادرة التاريخية والخالقة الوحيدة للقيم • ولسوف يتخذ هذا الحوار طابعا « اقليمــيا » — اذا لم يتحــول الى « حــوار حضارات » مع آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية » (٢) •

يقول جارودى : « ان أحد شروط النجاح الرئيسية لهذه اللقاءات الانسانية هو أن يعرف كل واحد كيف يعترف بالآخر ويفهمه وأن يميز فى الوقت نفسه فى الآخر ما هو فى حالة الولادة ، وما يتغير وما هو جديد •

« وانه لما يناقض مبادىء الماركسية الأساسية أن نقبل على هذه المشكلة ونحن نتحدث عن « المسيحيين » على الخصوص وعن « الدين » على العموم : لأنه اذا كان صحيحا كما يفكر الماركسيون أن الوجود هو

---

(١) نفسه ، ص ٢١٢ •
(٢) روجيه جارودى : « فى سبيل نموذج للاشتراكية » •

الذى يقرر الوعى وليس العكس ، فانه لا يمكننا الحديث اذن عن « الدين » كما لو كان نوعا من الفكر الأفلاطونية التى لا تتعرض لأى تغير فى جميع الأزمان وفى جميع الأماكن ، ولا عن المسيحيين كما لو كانوا كتلة متجانسة يتقاسمون كائنة ما كانت طبقتهم الاجتماعية ، وبلدهم ، وعصرهم — تصورا للعالم ولله متماثلا بصورة جازمة •

« ان المسيحة فى فرنسا عام ١٩٦٨ هى حقيقة معقدة جدا حيث يتجاور ، ويختلط أحيانا بصورة لا خلاص منها ، الماضى والمستقبل ، الأفضل والأسوأ ، وكما رأى ماركس انعكاس عالم والاحتجاج ضده •

« وانه ليخص الماركسيين أن يحاولوا فك رموز هذه الحقيقة أن يميزوا ماهو من بقايا الماضى الذى فى سبيله الى التلاشى ، وما هو تعبير عن التناقضات الحالية ، الفعلية ، وأيضا ما هو فى سبيل الولادة والنشوء •

« ان فى الكنائس ، باديء ذى بدء ، ثقلا رهيبا من الماضى : رابطة أصبحت تقليدية منذ خمسة عشر قرنا مع الطبقات السائدة ، مع جميع الالتواءات الأيديولوجية الناجمة عن هذا الموقف الطبقى والساعية الى تبريره • ان التعليم المسيحى الذى ارتبط بالتتالى مع قسطنطين الى نظام عبودى ، ثم مع الأمراء فى العالم الاقطاعى ، ومع البورجوازية تحت لواء الرأسمال ، يحمل طابع الأيديونوجيات المتتالية التى كانت تسعى الى تبرير التمايز الى طبقات وتراتباتها • وانه لذو مغزى على سبيل المثال أن الأيديولوجيات المسيحية قد استضافت فى جميع العصور الفلسفة الاغريقية المتطفلة عليها بحيث انتهى الأمر الى اعتبار المفهوم الأفلاطونى عن خلود النفس ، والازدراء الأفلوطينى للأرض والأجسام والرغبة فى الانفصال عنها ، والتراتب الأرسطالى للكائنات وجميع الأمور المتناقضة بصورة جذرية مع الايمان التوراتى بوصفها جزءا مكملا من التصور المسيحى للعالم • وحين ترجمت هذه الأشياء الى العقيدة الشعبية فقد اتخذت شكل تعاليم ومواقف عادت بفائدة هائلة على الطبقات السائدة : ازدراء هذا العالم الذى لم يكن الشيء الأساسى ، لأن الشيء الأساسى هو التهيؤ للحياة الأبدية فى عالم آخر بالاستسلام لعذابات هذا العالم

الأرضى ، وتمثل الارادة فى تحويل العالم الواقع فى الخطيئة ، هذه الخطيئة التى كانت تُعرَّف على أنها كبرياء وعصيان ، والكنيسة المأخوذة بعين الاعتبار كغاية فى ذاتها وكصورة مسبقة عن الديار السماوية » (١) •

ويذهب جارودى الى أن « قيام النظام الرأسمالى فى عصر النهضة وتطور العلوم ، والنزعة الفردية ، والدول القومية ، ارتبط به ظهور موضوعات جديدة احتفظت بعسم كبير من ميراث الاقطاع الأيديولوجى والأخلاقى ، وكانت هذه الموضوعات مرتبطة بمتطلبات البورجوازية وأيديولوجياتها : التشديد بصورة وحيدة الجانب على التقوى الشخصية على حساب المسئوليات الاجتماعية وتصور عن الله وأسراره غرضه سد الفراغات المؤقتة التى يعانى منها عالم فى ملء التوسع ، وارتباط الكنائس مع الدول « القومية » وعقيدة « اجتماعية » قائمة على أساس الفكرة القائلة ان الملكية الخاصة ، بما فى ذلك ملكية وسائل الانتاج ، هى أفضل ضمانة لكرامة الشخص الانسانى (٢) • ويخلص جارودى من ذلك الى أن « هذه الأيديولوجية بأسرها هى انعكاس لبنيات اجتماعية وتاريخية محددة ، وتضنع من الدين أداة النزعة المحافظة « أفيونا للشعب » كما كان ماركس يقول فى أيام الحنف المقدس ، وكما يظل هذا صحيحا اليوم حيث لا تبرح مسيحية من هذا النمط الاقطاعى هى الاتجاه المتغلب للتراتب فى البرتغال ، وأسبانيا ، وأميركا اللاتينية ، وحتى ايطاليا وحيث شكل رأسمالى أكثر نموذجية للتكيف مع سلطة الطبقات السائدة يتظاهر فى الولايات المتحدة وفى فرنسا • انه لأمر ذو مغزى أيضا أن أسقفية بعض البلدان الاشتراكية ، وأسقفية بولونيا بصورة خاصة ، قد مثلت فى المجتمع المقدس للفاتيكان فى الجناح المتوجه كليا نحو الماضى (٣) ويقول جارودى :

« نحن لا نستطيع ، اذ نعالج علاقات الشيوعيين مع المسيحيين أن

(١) نفسه ، ص ٣٤٢ •
(٢) نفسه ، ص ٣٤٢ •
(٣) نفسه ، ص ٣٤٣ •

نغض النظر عن هذه الحقيقة الاجتماعية ، ألا وهى الدور المحافظ اجتماعيا الذى يلعبه التراتب الكاثوليكى فى غالبيته الساحقة •

« ونحن لا نستطيع كذلك أن نغمض عيوننا عن ولادة الجـديد ، عن التحولات العميقة الجارية فى الجماهير المسيحية ، هذه التحولات التى تجد تعبيرا لها ، وأعيا وموسعا ، فى تفسير اللاهوتيين الكبار ، وتعبيرا ملطفا لكنه أكيد فى فئة من الأكليروس ، فى التراتب نفسه ، حتى أننا نلتمس فى ذلك نصوص المجمع المقدس وبعض مواقف البابوات (١) •

ولقد استخلص جارودى من قبل (٢) ، أسباب بداية التمزق فى الفكرة الشيوعية وتطبيقها فى النصف الثانى من القـرن العشرين ، وظـواهر النماذج المتعددة للاشتراكية ، والتحرر الوطـنى للشـعوب التى كانت مستعمرة حتى ذلك الحين ، ونمو العلوم والتصفيات بنسق لم يسبق له مثيل ، وذهب جارودى فى مرحلة من مراحل هذه الرحـلة الفـكرية الى التوفيق بين المسيحية والشيوعية ، حيث ذهب الى أن « كارل بارث » يشكل « بداية زمنية فى تجدد اللاهوت البروتستانتى » • وكانت الصدمة قاسية كان كارل بارث يؤكد التسامى فى شكله الأكثر جذرية ، وكان يعيد الى الأذهان الشىء الأساسى فى رسالة لوثر التى طمستها الليبرالية •

« وبعد ما اتخذت الأبعاد حيال المحاولات الرامية الى ارجاع المسيحية الى عقلانية صغيرة أو انسية مجردة ، فقد كانت المرحلة الثانية تقوم فى ملاقاة محتوى الايمان من جديد ، فى المجابهة الكيركجاردية « بين الذاتية والتسامى • ان هذه اللحظة « الوجودية » للاهوت البروتستانتى مسبوقة عند « بولتمان » بمسعى منهجى يعمل على « نزع لاهوتية » الإيمان ، يعنى مسبوقة بجهد يرمى الى استخلاص ما هو أساسى فى الايمان من الأشكال الثقافية أو المؤسسية التى اتخذها الدين فى مختـلف مراحل

---

(١) نفسه ، ص ٣٤٣ •
(٢) روجيه جارودى : من الحرمان الى الحوار ، منشورات بلون ، ١٩٦٥

تاريخه • ولقد قادت هذه الأعمال ، على الصعيد التاريخى ، الى التمييز فى العقائد المسيحية بين ما هو توراتى ، وما هو هلينى (١) •

ويذهب جارودى كذلك الى أن « الأزمة العظمى للحرب الهتلرية اذ طرحت على بساط المناقشة أساس جميع القيم ، قد أدت الى تعميق لاهوتى ، فقد عمد القس ديتريتش بونهويفر ، قبل أن ينفذ النازيون حكم الاعدام فيه ، الى فحص للوجدان اللاهوتى هو أحد مصادر التيارات الرئيسية الحالية • وليس المقصود نزع لاهوتية الايمان فحسب ، بل نزع الأيديولوجية عنه أيضا ، تخليصه من « الدين » ، من الأيديولوجية التى تعكس مجتمعا أو عصرا •

ان هذه « المسيحية بلا دين » هى الانتقال من التنافر الى الاستقلال الذاتى فى عالم أصبح بالغا ، يعنى عالما ينظم قضاياه العلمية والسياسية والخلقية من غير ايمان بالله •

ويتابع القس هرومادكا فى براغ تأملا من المرتبة نفسها ؛ وهو لا يسعى مطلقا الى مصالحة من النمط الليبرالى بين المسيحية والشيوعية ، بل ينطلق مثله بارت وبونهويفر ، من لاهوت خاص بالأزمة (٢) •

وهكذا ، تلمس جارودى للشيوعية مخرجا من مأزقها المادى الجدلى فى محاولة للتوفيق بينها وبين المسيحية ، ورأى فى اجتهادات هؤلاء وأولئك ما يمثل تناقضات اتسمت بها الشيوعية من جانب والمسيحية من جانب آخر ، من أهمها أن الانسان فى الفلسفة الشيوعية أو عند معتنقى المسيحية كائن سلبى لا ارادة له ازاء قوة المادة وقوة الاقتصاد • يقول كارل ماركس : « فى الانتاج الاجتماعى الذى يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى عنها وهى مستقلة عن ارادتهم • ليس شعور الناس هو الذى يعين وجودهم ، ولكن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم

(١) روجيه : فى سبيل نموذج فرنسى للاشتراكية السابق ، ص ٣٤٤ •
(٢) نفسه ، ص ٣٤٥ •

أما « مجددوا المسيحية المعاصرون ، فقد رأوا أن اللاهوت المسيحى يقف عقبة دون « أن يحيا الانسان ويكبر » على حد تعبير الأسقف روبنسون (١) ويتضح ذلك فيما تردد منذ انعقاد المجمع المقدس فى ١٩٦٧ ، والمطـــالب التى صيغت فى مؤتمر العلمانيين فى روما ، وفيما جاء على لســـان البابا نفسه ، بأن الكنيسة ليست غاية فى ذاتها . وبأنها أبعد ما تكون عن الادعاء بامتصاص العالم أو اخضاعه ، بل هو بالأحرى فى خدمه وفى حوار معه ، يتيح لنا أن نقيس الطريق التى تم اجتيازها حتى اذا كانت بعض التوازنات الدبلوماسية والتكتيكية تطمس خط التطور العام ، مثال ذلك حين يعهد البابا بولس السادس الى اعطاء انجماعيات المسيحية الأكثر تأخرا ضمانات فى فاتيما فى أعقاب كل الآمال التى اجتاحت الجناح المتقدم للكاثوليكيين بعد الرسالة البابوية [illegible] Progressio وقد أوجد المجمع أجهزة دائمة غرضها الحوار بين الكنيسة والعالم ، مثل لجنة اتحـــاد الكنائس ولجنة الملحدين .

وحاول المجمع تنمية لاهوت خاص بالقيم الأرضـــية (٢) ولكن هــــذه المحاولات جميعا باءت بالفشل ، على صعيد الحوار المسيحى الشـــيوعى وهو الأمر الذى أدى بجارودى الى مواصلة رحلته الفكرية ، ليجد فى شاطىء اليقين أن الانسان فى عرف الاسلام كائن ايجابى له ارادة خاضعة بطبيعة الحال لارادة الله تعالى — الذى يقول فى كتابه الكريم : (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه) « سور الجاثية ١٣ » . فيقرر أن الانسان هو القـــوة العليـــا فى الأرض ، وأن القـــوى المادية والاقتصادية مسخرة لارادته ، وليس هو المسخر لارادتها . ومصداق ذلك الاسلام ذاته . فهو لا يسير حسب التطور الحتمى الذى يرســـمه مبـــدأ المادية الجدلية وحين كان الناس مسلمين فى صدر الاسلام — لم يشعروا أن التطور الاقتصادى قوة جبرية تخضـــعهم لهـــا وهى « مســـتقلة عن ارادتهم » كما يقول كارل ماركس وانما أحسوا أنهم هم يصنعون الاقتصاد كما وجههم الله سبحانه وتعالى على يد رسوله الكريم عليه السلام ، وهم

---

(١) نفسه ، ص ٣٤٥ .

(٢) نفسه ، ص ٣٤٧ .

ينشئون العلاقات الاجتماعية على هدى الاسلام ، فيحررون الرقيق بغير موجب اقتصادى يحتم عليهم تحريره ، ويحولون دون الاقطـاع مع أنه ظل قائما مئات السنين فى أوربا فى غير العالم الاسلامى •

وحين نأخذ الاقتصاد الشيوعى ، فسنأخذ معه — حتما — تلك الفلسفة التى تجعل الانسان مترقبا للتطور الاقتصادى يأخذ سبيله « مستقلا عن ارادة الناس » ولا يسعى ولا يفكر فى تغييره بارادته أو بارادة الاسلام — لأن هذا مستحيل (١) •

وقد كانت معركة جارودى مع الحزب الشيوعى مثلا من أمثلة الفلسفة الاجتماعية الشيوعية التى تقوم على أساس أن المجتمع هو الأصل والفرد — لا كيان له الا باعتباره فردا فى القطيع • يتضح ذلك من قول جارودى فى مقدمة « التحول الكبير الى الاشتراكية » :

« وكثيرا ما قيل لى خلال السنوات الأخيرة : ان لك مطلق الحرية للتعبير عن وجهة نظرك ، على شرط أن يكون ذلك « داخل الحزب ولكن ذلك فى حد ذاته يعتبر مغالطة فالحزب ليس فقط المكتب السياسى واللجنـة المركزية ، بل هو مجموع أعضائه المناضلين ، ومع ذلك فان « القاعدة » نتيجة للريبة أو الاحتقار لا تتخذ أبدا حكما للمناقشات انها تعتبر كالقاصر الذى لا يستطيع أن يفرق بين الحسن والقبيح • وليست هناك صحيفة واحدة من صحف الحزب ، سواء « لومانيتيه » أو « فرانس نوفيـل » أو « كابيه دى كومنيزم » تعمل على نقل الآراء التى تختلف ولو اختلافا طفيفا عن « الخط الرسمى » للجهاز للأعضاء المناضلين ، وما صنعه الحزب الشيوعى مخالف فى أساسه للمنهج الاسلامى الذى يعنى عناية شديدة بالفرد ، ويكل اليه بعد تهذيب ضميره — القيام بتبعات المجتمع وهو شاعر أنه جزء حى فريد موجه ، يختار عمله بنفسه ، ويختار المكان الذى يعمل فيه ، ويملك حرية توجيه الحاكم والخروج عليه اذا خرج الحاكم عن شرع الله • والاسلام — بهذه التربية الفردية داخل رقابة المجتمع — يقيم من كل فرد حارسا أخلاقيا يرعى أخـلاق المجتمـع ويحـول دون وقوع

---

(١) المرجع نفسه •

المنكر فيه . وهو ما لا يمكن ــ نفسيا وعلميا ــ أن يحدث حين يصبح الفرد ذرة تائهة فى كيان المجتمع ، يطبع الدولة فى شئون الاقتصاد ، ثم يطبعها ــ تبعا لذلك ــ فى جميع الأمور (١) .

هذه الحرية التى وجدها جارودى فى شاطىء اليقين ، فى الاسلام ، دفع فى سبيل الوصول اليها الكثير من الجهد والجهاد . وفى تقديرنا أن معركتهمع الحزب الشيوعى تمثل فصلا رائعا من فصول هذه الرحلة ، نرى اثباتها كاملة للتاريخ ، كما جاءت فى كتابه الشهير « الحقيقة كلها » ، حيث كان يبحث لعالمه عن ديمقراطية حقيقية تتجاوب مع متطلبات الثورة العلمية والتقنية الكبرى الجارية مع العلاقات الاجتماعية الجديدة المترتبة عليها . ولقد كان هذا البحث أول نقطة جرهوية فى خلافه مع الحزب الشيوعى ، أما النقطة الجوهرية الثانية فهى التى أثيرت من جراء تدخل القـوات العسكرية التابعة للاتحاد السوفيتى والبلاد الأعضاء فى حلف فرصوفيا فى تشيكوسلوفاكيا . ان ما كان موضع الاتهام هنا هو شرعية وامكانية بناء « نموذج » للاشتراكية يتفق مع بنية كل شعب وتقاليده التاريخية ومستواه من التطور فى المرحلة الحالية من الطفرة العلمية والتقنية (٢) .

يقـول جارودى :

« وهكذا يطرح هذان الجدالان فى أساسهما ، قضية واحدة : كيف يمكن اعادة تنظيم العلاقات الاجتماعية ، والمؤسسات التى تعبر عنها على صعيد الدول والأحزاب على حد سواء ، بحيث تتمكن الامكانيات الفنية الهائلة فى زماننا من الانتشار دونما عقبات أو حواجز ، فتفيد فى ازدهار البشر وتفتحهم لا فى ضياعهم ؟ » .

ولذلك انتقد جارودى طرائق الحزب الشيوعى الفرنسى فى التفكير والعمل ، وذهب الى أن هذا الهدف من كتاب « الحقيقة كلها » كما كان

---

(١) محمد قطب : السابق ، ص ٢١٤ .
(٢) جارودى : الحقيقة كلها Toute la Vèrite (ترجمة د. فؤاد أيوب) ، ص ٨ .

الهدف نفسه من وراء كتاب « التحول الكبير للاشـــتراكية » ، ذلك أن جارودى كان يريد للحزب الشيوعى الفرنسى ألا تقوم تحليلاته للمجتمع المعاصر وتطوره على مخططات مستوردة من بلدان أدت فيها الانحرافات الستالينية الى تصليب وثلم أداة الاستقصاء الأساسية » •

ويقول جارودى أن الحقيقة يجب أن تعلن ولا سيما بعـــد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى واماطة اللثام عن أخطاء المرحلة الستالينية وجرائمها ، وكذلك التدخل العسكرى فى تشيكوسلوفاكيا والجمود العقائدى للحزب الشيوعى ، وهى جميعا تمثل « سياسة أدت شيئا فشيئا الى تغطية أية جريمة تقترفها الدولة بشرط عدم وضع النظام موضع التساؤل ، والى العسف فى الاتحاد السوفييتى نفسه ليس حيال الكتاب فحسب ، بل حيال أى امرىء يضع النظام موضع التساؤل ، والى دعم النزعة المضادة للسامية فى بولونيا . والى العمل من جديد بالتبليغ والرقابة والتطهير فى تشيكوسلوفاكيا » •

« ولقد اتخذ هذا العمل أبعادا واسعة بحيث انخرط القادة السوفيت مثلهم كمثل القادة الصينيين ، كى يضمنوا زعامتهم القائمة على أساس عقيدة النموذج الوحيد ، فى سياسة انقسامية على النطاق العالمى دون أن يترددوا فى المطالبة ، فى كل بلد ، بتطهير أولئك الذين يقاومون سياسة القوة هذه باسم سياسة مبدئية ، وفى تنظيم مقصود للانقسام فى تلك الأحزاب الشيوعية حيث كانت هذه المقاومة بالغة الشدة » •

ثم يقول جارودى عن « الحقيقة كلها » :

« ان هذا الكتاب يفضح آلية العمل الدولى للقادة السوفيت •

« لقد جهدت طوال سنوات ، كما تشهد على ذلك الرسائل والوثائق المجموعة هنا ، للعمل من داخل قيادة الحزب ، وبالطريق المتفقة مع دستور الحزب فقط ، كى يتحقق تقويم الاعوجاج ، وكى يمتنع حزبى عن تأييد هذه السياسة التى ينتهجها القادة السوفييت ولا يســـهم فيها • وذهبت جهودى عبثا ، ذلك أن آليات الحزب الباطنة هى بحيث أن احتجاجى لم يستطع أن يحطم انغلاق المكتب السياسى واللجنة المركزية •

« وهكذا نشأ حولى ، مع تسرب المعلومات الى صحافة الحزب ، ومع تشويه مفاهيمى تشويها منهجيا ، جو من الريبة والغضب بين جمهرة الحزب الذين كانوا ضحية هذا الاعلام المشوه ، الأمر الذى أتاح عقـد « مؤتمر ضائع » لادانتى ، ولاجتنا بالمسألة الأساسية التى كنت أطرحها بفضـل تلك الادانة ، أو على الأقل الأمل فى اجتنـابها • ولذلك يؤكد جارودى أن نشر الوثائق التى يتضمنها كتاب « الحقيقة كلها » يستهدف توضيح الحقائق ولا سيما بعد « الصورة المخجلة لاثارة جو من التهجم ضد جارودى » وهى الوثائق التى « لا تقتصر على الجدل الداخلى الذى قام فى الحزب الشيوعى الفرنسى بشأن أزمة — مايو — يونية — فى فرنسا ، بل تشمل نصوصا رئيسية عن المأساة التشـيكوسلوفاكية ، منذ بروتوكول موسكو التعسفى حتى بيانات الرئيس سفورا ابان المأساة ، وكذلك الكلمات النقدية التى ألقيت فى اجتماع الأحزاب الشيوعية فى موسكو ، وتحليل آلية التدخل وتقسيم الأحـزاب الشـيوعية من قبل القادة السوفيت » •

ويذهب جارودى الى أن « أزمة الحركة الشيوعية الأممية مسببة عن فعالية انقسامية مزدوجة : فعالية القادة الصينيين التى تمارس تأثيرا كبيرا فى بلدان العالم الثالث ، وفعالية القادة السوفييت المتوجهة نحو الشيوعية الأوربية بصورة رئيسية • ان هؤلاء وأولئك لا يستهدفون حساب وحدة الحركة وقوتها الا لممارسة زعامتهم على مختلف الأحزاب الشيوعية فى العالم ، وفرض « نموذجهم » الخاص عليها ، معترضين سبيل جميع أولئك الذين يعارضون هذا السلوك ، ولا يتردد هؤلاء وأولئك جميعا أمام انقسام الأحزاب كى يتوصلوا الى غاياتهم ولسنا بعد الا فى بداية هذه العملية الرهيبة •

« وكما تكهنت بذلك وصرحت به فى اجتماع اللجنة المركزية فى نيسان أبريل عام ١٩٦٨ فان التنسيق سوف يسحق رجالا آخرين ، وقد جاء شهر أغسطس من عام ١٩٦٨ ليثبت صحة هذا التكهن • وانى لأسجل ذلك منذ اليوم أن التسنن الذى أنشىء فى آب أغسطس ١٩٦٨ فى براغ سوف يسحق

بعد رجالا آخرين • ففى تشيكوسلوفاكيا ، حيث تعمل آلية القمع منذ الآن وسرعان ما سوف تتخذ سرعتها الكبيرة وسوف تؤدى لمحاكمات كما كان الأمر فى موسكو ١٩٣٧ ، وكما فى كتاب لندن « الاقرار » ولسوف تجرى الأمور على هذا الغرار فى أماكن أخـرى ، وحتى فى الاتحـاد السوفيتى حيث هناك امكانية لفرضيتين : فاما أن تأتى « ثورة من القصر » كما حدث عند اقصاء خروتشيف ، فتنحى بريجينيف وزمرته ، ثم يتحقق بعد بضعة اختلاجات انعطاف من أجل التقدم أخيرا •• واما أن يتدخل الجيش من أجل الابقاء بصورة دائمة على النظام وجهازه ، ولهذا يعلن جارودى « الحقيقة كلها » فلم « يعد السكوت ممكنا » • لأن « الواجب الذى يقع على كاهلنـا هو انقـاذ الرجاء » •• « ولن يتحقـق لنا ذلك بالسكوت ، بل بالوضوح » وهكذا يقدم جارودى وثائق الحقيقة كلها ؛ ليكتب فى نهاية الكتاب بداية الوصول الى اليقين •• يقول :

« لقد افتتحت المناقشة من أجل تجديد عمـيق ، ونحـن لن ندخل المستقبل ونحن نمشى القهقرى ، بشرط أن يعى كل واحد منا أنه مسئول شخصيا عن هذا المستقبل ، ألا فليَعِ كل واحد منا ان شيئا لا ينتهى مع المعركة التى يخاض غمارها كل يوم ، سواء خسرناها أم ربحناها ، بل آن — الأشياء جميعا تبدأ » •

وعند شاطىء اليقين يجد جارودى أن « الاسلام هو الحل الوحيد » ويذهب الى أن « العالم الاشتراكى المتمثل فى الاتحاد السوفيتى لم يكن بأفضل من الرأسمالية ولم يقدم لضحايا الرأسمالية منذ أكتوبر ١٩١٧ نظاما قادرا على الرد على النظام الرأسمالى • فقد كان هدفه الوصول الى التنمية بدرجة أفضل من الرأسمالية كما أنه قد تناسى القيم الروحية وكان « ماركس » يقول « ان الدين أفيون الشعوب » من هنا تبدأ رحلة اليقين ، مع « وعود الاسلام » حيث يعلن جارودى « الحقيقة كاملة » ؛ والتى تتلخص فى أن الاسلام هو الدين الانسانى الذى يكمن فى منهجه خلاص البشرية •

واذا صح فى أمر الشيوعية مع الأمم جميعا أنها لا تقبل التوسط على

سلام ، فهو أصح من ذلك بين الشيوعية والاسلام « فلا بقاء للشيوعية فى بلاد تدين بالاسلام ولا بقاء للاسلام فى بلاد تدين بالشيوعية ، وكل سياسية تقوم على دعوة السلام والوفاق بين الشيوعية وأصحاب العقائد المخالفة لها فهى دعوة قائمة على نفاق وعلى تربص كمين كالتربص بين الاعداء المتسترين .

« ان معسكر الشيوعية لا يأمن على نفسه مع بقاء الديمقراطية ، وان معسكر الديمقراطية لا يأمن على نفسه مع بقاء الشيوعية ، وكلاهما على حذر من الآخر لا خفاء فيه ولا نكران له ، ولكنهما مع ذلك مختلفان أبعد اختلاف .

« فاذا علمت أن أحدا يعقد العزيمة على هدم دارى واهدار دمى فتربصت له فكلانا على هذا متربص بصاحبه ناظر اليه نظرة الحذر والعدوان ولكننا لا نلام على خطأ ولا نطالب بعمل واحد عند من يريد الانصاف أو ينظر نظرة السواء .

« وقيام الشيوعية على هدم المجتمعات التى تخالفها وايمانها بأن الخير كل الخير فى تفكيك أوصالها وتعجيل زوالها حقيقتان لا تقبلان المغالطة ولا يكون المتجاهل لهما الا مغرضا من البداية وهو يدارى الغرض متشيعا جد التشيع تحت سربال العدل والمساواة .

« واذا قال الشيوعى انه يؤمن (بالتعايش السلمى) فمعنى ذلك أنه يكف عن تنفيذ مذهبه أو أنه يرتاب فى صدقه ولا يؤمن ضربة لازب بانهدام المجتمعات العالمية فى وقت قريب ، ولا أمل له فى نجاح الدعوة من قبله ما لم يكن قد عدل حقا عن الكيد لمن يعايشهم معايشة سلمية والتربص بهم تربص الوارث بمن يترقب موته ، ويعامله على هذا الأساس وما هو بأساس صالح للمعايشة السلمية بل هو أساس المعاملة بين من يعيش ومن يموت ، أو بين الوارث والموروث المطموع فيه .

« ونحن لا نستبعد أن يكون المؤمنون بالشيوعية قد شكوا فى قواعد المذهب التى يبنون عليها نبؤاتهم عن مصير مجتمعات الأمم الى الدمار

العاجل . فان لم تبلغ شكوكهم هذا المبلغ فلعلهم قد شكّوا فى سرعة الوقت الذى يتم فيه الدمار المحتــوم ورتبوا على التمهــل فى الانتظار سياسة توافقه غير السياسة التى تتعجل الموقعة الحاسمة بين المعسكرين ، ولكن قضية السلام العالمى بقوة العوامل التى تتعلق به وترجوه ، كما تناط بخشية الخطر من أهوال الحرب وسوء عقباها مع قلة جدواها فاذا انتصرت هذه العوامل ونجحت فى المقاومة والمطاولة جاز أن يتبدل خلال هذه الفترة كثير من القواعد والعقائد وأن تلوح للمشكلات المعقدة وجوه من الحل المرضى ميسورة فى ظلال التعاون والسلام (١) .

والدرس المستفاد للشرق الاسلامى من « الحقيقة كلها » يتلخص فى أن الاسلام منذ الاستعمار لبلاده فى آسيا وأفريقيا من منتصف القرن التاسع عشر حتى الآن يواجه صليبية هذا الاستعمار جنبا الى جنب مع مواجهة سلطانه السياسى والاقتصادى .. وهــذه الصــليبية « ليست المسيحية السمحة » ، وانما هى روح الانتقام من الاسلام ، تلك الروح التى بعثت فيما مضى على الحروب الدامية فى القرون الميلادية الثلاثة : الحادى عشر ، والثانى عشر ، والثالث عشر ، محاولة الاستيلاء على بيت المقدس وبقيت منذ هزيمتها الكبرى على يد « الناصر صــلاح الدين » مصاحبة لعقلية الغرب فى تعرضه للاسلام ، وفى تصرفاته مع المسلمين على السواء ، ولم تزل فيه باقية صحبة هذه العقلية حتى اليوم .

« وبعد انتشار الفكر المادى الالحــادى الغــربى فى بلاد الشرق الاسلامى منذ أعقاب الحرب العالمية الأولى ، واجه الاسلام بالاضافة الى مواجهته الصليبية السابقة — حملة هذا الفكر ومذاهبه ، ولم يزل يواجهه فى وقتنا الحاضر ، وبالأخص « الماركسية » الالحادية .

ورأينا أيضا أن هذه المواجهة كانت على حساب الاســلام مرة وفى جانبه مرة أخرى (٢) » .

---

(١) من مقدمة العقاد لكتاب التعاون الاقتصادى من سلسلة الناقوس .
(٢) د. محمد البهى : الفكر الاسلامى الحديث ، وصله بالاستعمار الغربى ، ص ٤٤١ .

أما ما أفاد الاسلام من مواجهة الصليبية والماركسية أو من الاحتكاك بهما ، فهو :

« ايقاظ الوعى الاسلامى الذى صاحب الحركات التحريرية التى قامت بها الشعوب الاسلامية ضد الاستعمار الغربى . وذلك بفضل جمال الدين الأفغانى الذى تزعّم ايقاظ هذا الوعى ، والذى ركز نشاطه فى رحلاته الى مصر ، والهند وتركيا ، وأفغانستان ، وبقية البلاد الاسلامية لاثارة المسلمين بدافع من دينهم لمقاومة المستعمر وعدم التعاون معه من جانب ، وتأكيد أواصر الأخوة بينهم بطرح الفوارق المذهبية ، وعلى الأخص ما بين السنة والشيعة ، والاحتفاظ بوحدتهم فى دفع الخطر الصليبى عنهم ، من جانب آخر .

وجمال الدين الأفغانى — يعتبر من غير شك — الزعيم الشرقى المسلم لجميع الحركات الثورية ضد الاستعمار الغربى فى الشرق الاسلامى ولم يكن لجمال الدين بقية من نشاط ، فوق ما بذل وعانى فيما بذل منه يصرفها فيما وراء ايقاظ الوعى الاسلامى فى مجالسه الخاصة والعامة .

« المحاولات الفكرية الاسلامية التى قام بها محمد عبده قبيل آخر القرن التاسع عشر ، ثم قام بها « اقبال » فى النصف الأول من القرن العشرين . وما قام به محمد عبده أثمر سلسلة من المفكرين المستنيرين فى فهم الاسلام ، بمصر وشمال افريقيا ، وسوريا ولبنان — كان لهم نشاط منهجى وآخر موضوعى فى الفكر الاسلامى ، وان لم يصل الى درجة أن يكون مدارس مستقلة فى الاصلاح الاسلامى ولكنه رغم ذلك كان له أثره حتى اليوم فى الكتابات الاسلامية المتسمة بطابع الفهم السليم لمبادىء الاسلام ، وظروف المجتمع الحديث . وما قام به « اقبال » بعده أثمر تأسيس دولة الباكستان ووضع دستور اسلامى على أساس من القرآن الكريم .

الاسلام فوق الزمان والمكان :

« نعم ، الاسلام من حيث هو مبادىء ، لا يتوقف اعتباره على مكان معين ولا على جيل من البشر ••

وكما ذكر « اقبال » : الاسلام بما اشتمل عليه مبدأ « الحركة » يعيش مع الانسان المتحرك ، وفى العالم المتغير المتطور •

فهو لا يؤزم بالصليبية ولا بالماركسية . اذ طالما كانت له طبيعة الموجود الخالد ، ولا يضار بالهجوم عليه من هنا أو هناك ، لأنه عندئذ لا يقبل الفناء •

فخلود الاسلام فى رسالته ، ورسالته « التوازن » : التوازن فى القيادة الفرد لنفسه ، والتوازن فى علاقة أفراد الأسرة الواحدة بعضهم ببعض ، والتوازن فى علاقة الأفراد جميعا ، ما بين جار قريب وبعيد ، وما بين حكام ومحكومين •

ولكن الذى يجوز أن يؤزم • ولا أدرى اذا كان يمكن أن يصرع فى يسر أيضا — هو المسلم •• والمسلم هو اذن ، موضوع الهجوم فى حملات الصليبيين والماركسيين • والآثار السلبية لهذا الهجوم تنال منه ، ان قدر لها أن تصيب أكثر مما تنال من الاسلام •

« والسؤال الذى يجب أن يلقى الآن ، هو : اذا كانت حملات الغرب الاستعمارى — سواء من الجانب الصليبى أو الجانب الماركسى تجد « فراغا » عند المسلمين حال دون ملئه حتى الآن ركود الفكر الاسلامى ، وعدم قيامه بالدور الايجابى فى حياتهم المعاصرة ، فما هى النسبة التى يملأها « الاصلاح الدينى » الحديث من هذا الفراغ ؟؟ ••• ان مستقبل الاسلام فى الجماعة الاسلامية يتحدد بناء على جواب هذا السؤال وهذا الجواب يرتبط ارتباطا وثيقا بموضوع « الثقافة » الذى يتثقف بها

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٤٤٢ •

المسلم فى الشرق الاسلامى (١) وقد اشتركت الصهيونية فى كل حركة من حركات الهدم والتدمير ، وآخر ما اشتركت فيه — ولا تزال مشتركة فيه حركة الشيوعية فى العصر الحديث « وربما كان الصهيونى من أصحاب الملايين ولكنه يحرص على نشر الشيوعية ويمولها بالمال والدعاية ، ويواليها بالدسائس والمؤامرات فى مجتمع السياسة الدولية (٢) ومن أساليب الصهيونية العالمية استغلال الحركات الاجتماعية والاتجاه بها الى الوجهة التى تريدها ، وأحب هذه الحركات اليها ما كان كفيلا بهدم القيم والأخلاق وتفكيك أوصال المجتمع وتلويث العرف الشائع بين أهله ، ولهذا ظفرت الحركة الشيوعية منها فى العصر الحاضر بكل تشجيع وترويج (٣) » .

وفى الباب التالى يكشف لنا جارودى النقاب عن حقيقة « الصهيونية » حتى تنكشف « الحقيقة كلها » .

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٤٤ .
(٢) العقاد : الصهيونية العالمية ص ٨٠ .
(٣) نفس المرجع ص ٨٠ .

الباب الرابع

« جارودى يكشف اضـــاليل الصـــهيونية »

قامت صحيفة « الفيجارو » فى ١٥ أكتوبر ١٩٧٣ ، أى بعد ٩ أيام من اندلاع الحرب الرابعة بين الدول العربية وأسرائيل ، باجراء استفتاء للرأى العام الفرنسى تبين منه أن : ٤٥٪ مع أسرائيل ٦٪ مع العرب ٨٪ مع الطرفين ٣٠٪ لا رأى لهم •

وفى لندن أسفرت نتائج إستفتاء للرأى أجراه المعهد الوطنى لاستفتاء الرأى العام عن الحرب فى الشرق الأوسط عن أن ٥ر٤٧٪ من البريطانيين الذين شملهم الاستفتاء يؤيدون الاسرائيليين مقابل ٥٪ فقط يؤيدون الدول العربية •

وفى واشنطن : أجرى معهد جالوب الأمريكى استفتاء للرأى عن النزاع فى الشرق الأوسط يوم ٦ أكتوبر ، وهو نفس اليوم الذى بدأ فيه القتال ، واتضح من واتضح من نتائجه أن ٤٧٪ من الأرميكيين يؤيدون اسرائيل وأن ٦٪ فقط يؤيدون الدول العربية •

وعلقت جريدة الأهرام على هذه النتائج بقولها (١)

« ان أرقام هذا الاستفتاء تظهر لنا الى أى مـــدى ما زالت الدعاية الصهيونية عميقة الجذور فى العالم •• وهكذا ترى حكومات غربيـــة كثيرة بحكم أنها أكثر ادراكا للمعلومات الحقيقية ، وأكثر دراية بمصالحها ، يتحول موقفها بأسرع مما يتحول موقف المواطن العادى ، الذى ما زال متأثرا برواسب الدعاية الصهيونية منذ ربع قرن » •

---

(١) الأهرام فى ١٨/١٠/١٩٧٣ •

ويذهب الدارسون — فى تحليل موقف المواطن الغربى الذى أظهرته نتائج الاستفتاء — الى أن الدعاية الصهيونية ليست السبب فى هذا الموقف ، وانما هناك جذور غرستها الكنيسة منذ الحروب الصليبية فى نفوس أتباعها من بغض وحقد وكراهية للاسلام والمسلمين ولم تفعل الدعاية الصهيونية فى الربع قرن الأخير ، الا القيام بتنشيط ما ترسب من عداوة لا زالت كامنة فى الخلفية الثقافية للمواطن الأوربى ، واحياء الرواسب القديمة التى دفعت الصليبيين الى شن حملاتهم على الشرق الاسلامى ، ألا وهى الخوف منه ، ومن عناصر قوته المتكاملة التى أن أستطاع المسلمون استغلالها على الوجه الأكمل لما كانت هناك قوة تفوقها على وجه البسيطة • وهو وان كان خوفا غير محدد المعالم — علميا — عند المواطن العادى ، الا أن قادتهم والمثقفين منهم يدركون ذلك تفصيلا ، فقد وضعت فى ذلك الدراسات وألفت الكتب ، ومن أدق ما كتب ، وأكثرها تصويرا لعناصر قوة الاسلام التى تمكنه من بناء قوة عالمية ، كتاب « الاسلام قوة الغد العالمية » فقد استهدف مؤلفه الأستاذ « باول شمتز » تبصير بنى جنسه بتلك العناصر ، كى يخططوا لاضعافها ان أرادوا حماية أنفسهم من الاسلام ، فهو يرى أن المسلمين يملكون من مصادر القوة ما لا يملكه أتباع دين آخر على وجه الأرض (١) فهم — أولا — يسكنون منطقة جغرافية تتحكم فى العالم كله ، أو على حد تعبير الأستاذ باول شمتز « ان أهمية المنطقة الاسلامية فى نظام التجارة العالمية فى ذلك الوقت كانت واضحة ، وحقيقة واقعة ، فحكامها كانوا يستطيعون التحكم فى الأسعار عن طريق رفع رسوم المرور والجمارك بل كان فى مقدورهم قطع الطريق كلية ، اذ بدا لهم أن ذلك فيه فائدة لهم أى رغبوا فيه اعتمادا على أى سبب • ومن هنا ظهرت الأطماع فى السيطرة على هذه المنطقة •• ولم يتغير شىء من هذا بعد دخول الاسلام فقد أصبح قدح الزند فى المجالات السياسية والتجارية فى الشرق الأدنى فى يد الدولة الاسلامية الجديدة ، التى مدت سلطانها على المنطقة جغرافيا وثقافيا » •

---

(١) د. محمد شامة : وتقديم كتاب الاسلام قوة الغد العالمية للأستاذ باول شمتز ، ص ٥ •

وكانت السيطرة على المنطقة من الأسباب الرئيسية للحملات الصليبية فقد حمل الصليبيون معهم فكرة مدروسة ، مفادها أن أهمية السيطرة على منطقة غرب آسيا لا يمكن أن تقدر اذ هى نقطة اتصال بين الغرب والشرق الأقصى ، وثبتت صحة هذه الفكرة لاحكام تلك المنطقة منذ قرون ، وما زالت حتى اليوم ، يشهد بذلك الصراع القائم بين القوى العظمى المعاصرة للسيطرة على المنطقة .

كما أن المسلمين — ثانيا — لديهم خصوبة بشرية ، تمكنهم من التفوق على غيرهم ان هم أحسنوا اعدادها وتوجيهها :

« تشير ظاهرة نمو السكان فى أقطار الشرق الاسلامى الى احتمال وقوع هزة فى ميزان القوى بين الشرق والغرب ، فقد دلت الدراسات نعى أن لدى سكان هذه المنطقة خصوبة بشرية تفوق نسبتها ما لدى الشعوب الأوربية ، وسوف تمكن الزيادة فى الانتاج البشرى الشرق من نقل السلطة فى مدة لا تتجاوز بضعة عقود — أى عشرات قليلة من السنين .

وسوف ينجح فى ذلك نجاحا لا نرى من أبعاده اليوم الا النذر اليسير » .

وبعد أن يعرض مؤشر زيادة السكان فى مصر من ١٨٨٧ — ١٩٣٧ م يعقب على ذلك بقوله :

« وسيصبح فى مصر فى مدى ٩٦٨ سنة — أى أقل من ألف عام بقليل أمة تعدادها ٩٧٣ مليارا من البشر ، أى أنها سوف تنمو بشريا الى درجة لا تمكنها فقط من استعمار الكرة الأرضية ، بل من استعمار أعداد من الكواكب السيارة الأخرى » .

وأن المسلمين — ثالثا — يملكون من الثروات والمواد الخام ما يستطيعون به بناء قوة صناعية تضارع أرقى الصناعات العالمية — ان لم

تفقها — وسوف تزداد هذه الثروات فى وقت تقل فيه فى البلاد الأخرى مما يجعلهم يتحكمون فى توجيه الصناعة فى العالم • يقول :

« يوم يقل الانتاج الغزير لهذا البترول ، الذى يغزو أسواق العالم اليوم سيحتل البترول الاسلامى — حسب التقديرات المتحفظة جدا بعد اكتشاف باقى حقول الحزام البترولى فى غرب آسيا مركزا دوليا هاما وسيصل انتاجه رقما لم يعرف بعد ، ولا يستطيع الخبراء التكهن به لأنه قد يفوق كل تقدير ••• يجب ألا نغفل عن دلالة هذا التغيير وتأثيره اقتصاديا فى مركز العالم الاسلامى على مسرح التبادل التجارى العالمى •

ان الاسلام — رابعا — ذلك الدين ، الذى له قوة عظمى على تجميع الأجناس البشرية المختلفة تحت راية واحدة ، بعد ازالة الشعور بالتفرقة العنصرية من نفوسهم ، وله من الطاقة الروحية ما يدفع المؤمن به الى الدفاع عن أرضه وثرواته بكل ما يملك مسترخصا فى سبيل ذلك كل شىء حتى روحه ، يحرص على التضحية بها فداء لأركان الاسلام •

ان قوة الوحدة الفكرية للاسلام ووجود الاحســـاس الحى بالدين الاسلامى هى القوة الوجدانية التى بعثت هذه الارادة فى الشرق • فهو — اى الاسلام — ينتصر فى كل مكان ينزل فيه الميدان مع الأيديولوجيات الأخرى • يقول الأستاذ باول شمتز : « ان اتجاه المسلمين نحو مكة — وطن الاسلام — عامل هام من أهم العوامل فى تقوية وحـــدة الاتجـــاه الداخلى بين المسلمين وأسلوب يضفى على جميع نظم الحياة فى المجتمع الاسلامى طابع الوحدة ، وصفة التماسك » •

ولهذا اتفق المستعمرون على ضرب الاسلام ، فتعاونوا فيما بينهم على خلق اسرائيل للحيلولة دون سيادة المسلمين فى هذه المنطقة الحساسة من العالم ، وهم يتسابقون — بأساليب مختلفة — لسلب ثروات هـــذه الأمة (١) •

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٨ •

من أجل هذا كله يساند الغـرب اسرائيل ، لكيـلا ينهض الشرق الاسلامى ، وتناسى الغرب أن الصهيونية عملت وتعمل على افساد الغرب نفسه ، وأمامنا الحركات الفكرية والاجتماعية والسـياسية فى الغرب وأصداؤها هنا وهناك ، فان دراستها على حقيقتها دون عناوينها تدل على عبث الصهيونية بأقدس القيم ، وتسخيرها كل حركة — ما استطاعت لافساد العقول والأخلاق • وقد كان من رأى العقاد (١) — أن مثل هذه الحركات ينبغى أن تفهم مع فهم بواعثها فى نفوس أصحابها والقائمين بها وأنه لا سبيل الى فهمها بغير ذلك • وهكذا ينبغى أن تفهم الحركات الحديثة فى الغرب ، وتفهم معها العوامل الصهيونية التى تحركها سرا وعلانية ، ليتبين ما فيهـا من حق وباطل ، تنكشف بواعثها وأغراضـها الحميدة والذميمة •

وقد قال العقاد فى مقال عن الوجودية : « لن تفهم المدارس الحديثة فى أوربا ما لم تفهم هذه الحقيقة التى لا شك فيها وهى أن اصبعا من الأصابع اليهودية كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية ، وترمى الى هدم القواعد التى يقوم عليها مجتمع الانسان فى جميـع الأزمان فاليهودى كارل ماركس وراء الشيوعية التى تهدم قواعد الأخلاق والأديان واليهودى دوركيم وراء علم الاجتماع الذى يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة ويحاول أن يبطل آثارها فى تطور الفضائل والآداب — واليهودى — أو نصف اليهودى ، سارتر وراء الوجودية التى نشأت معززة لكرامة الفرد فجنح بها الى حيوانية تصيب الفرد والجمـاعة بآفات السـقوط والانحلال •

ومن الخير أن تدرس المذاهب الفكرية بل الأزياء الفكرية كلما شاع فى أوربا مذهب جديد • ولكن من الشر أن تدرس بعناوينها وظواهرها دون ما وراءها من عوامل المصادفة العارضة والتدبير المقصود » •

فالصهيونية اذن تستهدف تخريب المجتمع الانسانى ليس فى الشرق

---

(١) العقاد : الصهيونية العالمية ، ص ٩١ •

وحده ، ولكن فى الغرب بالدرجة الأولى كذلك ، فيسجل التاريخ الأوربى على اليهود أنهم كانت لهم مشاركة فى كل فتنة ، وكل اغارة ولكن المؤرخين يختلفون فى تعليل هذه المشاركات المتواترة — فيعـزوها بعضـهم الى المصادفة لوجود اليهود فى كل بيئة ، ويعزوها بعضهم الى شعور النقمة الطبيعى على كل سلطان غاشم يخضع له المحكومون على رغم واضطراد ، ويعزوها بعضهم الى التدبير المتعمد لهدم المجتمع المسيحى من داخله وتقويض دعائم الدولة والكنيسة فى وقت واحد ومما قيل وأصر القائلون عليه أنهم أسسوا جماعة البنائين الذين اشتهروا باسم الماسون ، وقرنوا بين التعاهد على بناء الهيكل وبين هذه التسـمية ، وما يتصـل بها من المصطلحات والشعائر • وقيل غير ذلك كثير مما تتشعب فيه الظنـون ولا حاجة الى استقصائه ؛ لأن الظواهر تغنى فيه عن الأسرار ، وتختلف أساليب الصهيونية بين عصر وعصر على حسب اختلاف الحوادث والأفكار والمناسبات واختلاف وسائل الاقناع والدعاية والتأثير ولكنها فى جوهرها شىء واحد ، تتلخص فى استطلاع الأسرار والخفايا ، وتسخير سلطان المال لاستغلال الحركات الاجتماعية والعلاقات الشخصية بذوى النفوذ ، والاتجاه بها الى الوجهة التى تحقق لها مصالحها وأغراضها •

وهذه الأساليب بطبيعتها أساليب هدم ومقاومة ، وأساليب غش وتضليل ، ولا مناص لها من ذلك الا اذا خرجت على طبيعتها وتخلت عن وجودها لأنها لا تستطيع البناء والتعمير ، ولا تسـتطيع الأمانة والعمل الصريح ، انما تستطيع الصهيونية البناء اذا استطاعت أن تقيم دعواها على عقيدة تنشرها وتدعو الأمم الى الايمان بها ، ولكنها اذا فعلت ذلك نقضت دعواها الأولى والأخيرة ، وهى احتكار الاله لنفسـها والايمان بأنه اله اسرائيل كما يدعونه فى الصلوات ، ولكس للأمم الأخرى حظ من رضاه •

فالصهيونيون الذين يزعمون أن الله لهم وحدهم ، وأنهم شعب الله المختار ، دون غيرهم ، لن يقبلوا مشاركة أحد لهم فى هذا الاحتكار ، ولن تراهم قط مبشرين بدين يدعون الناس الى الدخول فيه خلافا لأصحاب

الأديان أجمعين ، انهم كأصحاب الميراث الذين لا يقبلون شريكا فيه • أو كأصحاب الشركة التى ينفردون بها لا يوزعون على أحد سهما من أرباحها • فليس فى استطاعتهم أن يقيموا سلطانهم على عقيدة عامة تشاركهم فيها الأمم ، وليس فى استطاعتهم أن يقنعوا الناس صراحة بقبول هذه الفكرة النابية ، وكل ما فى وسعهم أن يهدموا عقائد الناس وأخلاقهم ودعائم أفكارهم وشرائعهم ، ثم لا يخلفوها بعقيدة أخرى تقف لهم فى الطريق •

« كذلك لا تستطيع الصهيونية العالمية أن تسود بغير الخداع والتضليل » (١) وقد وقفت الصهيونية بعدتها وعتادها خلف الحركة الشيوعية تدعمها وتساندها وتقويها واستخدمتها لتحقيق أغراض الهدم والتخريب وأن المتأمل فى أسماء زعماء الحركة الشيوعية سوف يكتشف أن أصلهم صهاينة يهود — ومن هؤلاء : رئيس الدولة الشيوعية الأولى فى العالم كله زينوفيف واسمه الصهيونى أبفلبوم Abfelbaum وكان رئيس البوليس السياسى ياجودا أو يهودا ،و وكان وزير الخارجية ليتفينوف واسمه الصهيونى فنكلشتين Finkélstein •

وكان أهم سفير فى الخارج مارسل روزنبرج ، لأنه كان يعمل فى أسبانيا لتوطيد الشيوعية بعد الجمهورية ، وكان تروتسكى وكانيف وتومسكى وريكوف وكاجانوفتش على رأس الدولة السوفيتية ولم يكن فيها من الزعماء الكبار غير لينين وستالين من الروس الذين لا يدينون باليهودية ولكن لينين كان نصف يهودى يسمى ايليانوفتش ، وستالين كان صهرا لكاجانوفتش الصهيونى •• وهذا كل ما استطاعوه لادخاله فى زمرة الصهيونيين •

ولقد أعلن جاكوب شيف Jacob Schiff الصهيونى صاحب الملايين ، انه أمد تروتسكى بالمال لاقامة الدولة الشيوعية ، وثبت أن صاحب الملايين « ماكس وورنج » فى استوكهلم كان هو الواسطة القريبة لتزويد « تروتسكى » بالمال كلما احتاج اليه •

---

(١) المرجع نفسه ص ٧٦ •

وأنها لضربة من ضربات القدر أطاحت بهذه الدولة الصهيونية قبل استقرارها على قواعدها العلمية المعترف بها فى العالم كله ، فقد تغلب ستالين على تروتسكى ، وأحس الغدر من عصابة الصهيونيين فعجل بها قبل أن تعجل به ، وتمكن من الغلبة على منافسه فى مبدأ الأمر بمعونة فريق من العصابة ، لأنه كان •• كما تقدم صهرا لكاجانوفتش أبيه فى الحساب ، كما يقولون •

أمصادفات هذه فى عرض الطريق ؟ (١) •

يقول العقاد : « كلا لا يمكن أن تتفق المصادفات كل هذا الاتفاق ولا يمكن أن تسرى هذه المصادفات فى كل مكان ؛ فيتولى زعامة الشيوعية فى المجر « بيلاكوهين » ويتولاها فى النمسا فرينتز أولر ؛ وأوشك أن يتولاها فى ألمانيا ليسكخت وروز الكسمبرج ، لو لم تعالجها الأقدار بما خيب الآمال •

ومن المعلوم ، قبل هذا كله ، أن زعيم الشيوعية الأول هو « كارل ماركس » اليهودى وأن منافسه فى ألمانيا « لاسال » من سلالة اليهود • ولقد تأسست حكومة اسرائيل فى فلسطين وهم لا ييأسون من تسخير الشيوعية لتأييدها فى المجامع الدولية ، وتسخيرها من جهة أخرى لتخويف دول الغرب ، وتهديدها بالتحول الى جناب الكتلة الشرقية ان لم تسعفها بالمال والسلاح والمعونة الدولية • وكانت الكتلة الشرقية ترجو أن تبسط يديها على اسرائيل من وراء المهاجرين الشيوعيين • فلم تلبث أن عرفت غلطتها وأدركت أن الصهيونى يحذف الشيوعية ، ويتسمى باسم المسيحية ، ويعلن الالحاد جهرا ، أو يدين به سرا ، ولكنه صهيونى من الصهيونيين ، مهما تختلف الأسماء والآراء •

ولم تكن هزيمة تروتسكى وشيعته نهاية الحلف القديم بين كارل ماركس وأبناء ملته • فأن الصراع بين ستالين وتروتسكى لا يتكرر فى كل بلد على هذه الصورة ، واذا تكرر فحسب الصهيونية كسبا أن تتهدم

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٧٨ •

أركان الوطنية والدين ، وأن تنهار قواعد الأخلاق والآداب ، لتستريح من هذه العوائق فى طريقها ؛ وتتفتح الأبواب لسلطان المال والخداع بغير شريك ولا حسيب (١) .

ولقد هال هذا الامتزاج بين الشيوعية والصهيونية بعض المؤرخين فاعتقدوا أن الصهيونية قد خلقت هذه الثورة خلقا ، وصاغتها على يديها بمحض مشيئتها ، بيد أن ذلك — كما يقول العقاد أيضا ؛ — غلو فى تقدير قوة الصهيونية لا نقرهم عليه . وانها على تشعب مساعيها واتساع ميادينها لأهون شأنا من أن تخلق ثورة تخلقها أسبابها ولم تسبقها مقدماتها ، وانما شأنها كله أن تستطلع الأسرار الخفية وأن تغتنم الفرصة السانحة وأن تتسلل من الثغرة المفتوحة ، وأن مثل الشيوعية لواحد من أمثلة كثيرة على أساليبها فى استغلال الحركات الاجتماعية والاتجاه بها الى وجهتها فى العصر الحديث . ان الصهيونية لا تعمل الا بسلطان المطامع والمنافع والشهوات من وراء ستار ؛ فلابد لها فى الحالين من أساليب الهدم وأساليب الخداع (٢) .

وهذه الأساليب هى التى يكشفها عن علم وايمان مفكرنا الكبير جارودى فى كتابه الشهير :

« ملف اسرائيل ..

أحلام الصهيونية وأضاليلها » .

وهو الكتاب الذى منع من النشر بأمر الصهيونية العالمية ، لما يتضمنه من حقائق اكتسبت فى طرحها من عقلية جارودى ما جعلها ضوءا كاشفا للانسانية فى سبيل مقاومة السرطان الصهيونى .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٧٩ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ٧٦ .

ولكتاب جارودى قصة ••

ففى ١٧ يونيو ١٩٨٢ ، وخلال الاجتياح الاسرائيلى للبنان ومحاصرة بيروت ، نشرت جريدة « لوموند » الفرنسية اعلانا من صفحة كاملة وقعه روجيه جارودى مع اثنين من رجال الدين الفرنسيين هما الأب ميكاييل لوبان والأب اتيان ماتيو •• وبعد نشر هذا الاعــلان تحــرك اللوبى الصهيونى فى فرنسا وقرر اقامة دعوى قضائية على البروفسور روجيه جارودى وزميليه •

أما الرجل الذى حرك هده الدعوة ويقف وراء اللوبى الصهيونى فهو البارون دى روتشيلد •

وليس الاعلان المنشور فى « لوموند » هى السبب الحقيقى وراء مقاضاة جارودى ، ولكن السبب الحقيقى هو كتاب جارودى الذى ألفه وفند فيه الصهيونية سياسيا ودينيا وفلسفيا ولاهوتيا وتاريخيا ، وهو الكتاب الذى تعرض له فى هذا الباب ، والذى جعل عنوانه : « اسرائيل •• أحلام الصهيونية وأضاليلها :

iedossier " Israel " Songes — Et Mensomges du Zionisme .

ولم يجد جاروى فى فرنسا أو أوروبا ناشرا واحدا يقبل طبع كتابه هذا بتأثير الضغط الشديد الذى مارسته الصهيونية على كبريات دور النشر الأوروبية •• الى أن تطوع أخيرا ناشر لبنانى شاب مقيم فى باريس بنشر هذا الكتاب باللغة الفرنسية •

ومضمون هذا الكتاب هو صلب المرافعة التى دافع بها البروفسور جارودى عن نفسه أمام محكمة الدرجة الأولى فى باريس ، وهو كتاب يؤكد لنا أن جارودى لم يتردد فى أعلان ما يؤمن به رغم التهديد بالقتل فى وجه أعتى القوى وأكثرها عدوانية •• وهذا الكتاب مواجهة من هذا النوع بين مفكر مؤمن أقام ايمانه على اليقين والعلم والحقيقة وبين ظاهرة سياسة من ظواهر عصرنا معادية لذلك التجلى الرائع من تجليات

الايمان والصلابة فى الحق • وها هو ذا يعلن من جديد « الحقيقة كلها » حول الأسطورة العنصرية • يقول جارودى :

« نواجه هنا موضوعا « محرما » يدول الصهيونية ودولة اسرائيل ففى فرنسا ، يمكن توجيه انتقاد للعقيدة الكاثوليكية أو للماركسية . كما يمكن مهاجمة الالحاد والقومية . وادانة نظم الحكم فى الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية وجنوب أفريقيا . والاشادة بالفوضوية أو بالملكية دون التعرض لمخاطر تتعدى المألوف كالتسبب فى جدل أو تفنيد •

لكن التطرق الى تحليل الصهيونية يفضى بصاحبه الى عالم آخر ينقله من التحرير والابداع الى المثول أمام القضاء •• فبموجب القانون الصادر فى ١٩٨١/٧/٢٩ بشأن ذم أى شخص بسبب انتمائه لجنس أو لأمة أو لديانة ، يعرض صاحب كل انتقاد لسياسة دولة اسرائيل وللصهيونية السياسية التى تقوم عليها هذه الدولة للمساءلة التأديبية •

« يؤدى على الفور الى معاملتك ك « نازى » •• ويجر عليك تهديدات بالموت مثلما حدث للقساوسة والسياسيين والمفكرين الفرنسيين ، ومنهم رئيس تحرير « لوموند » وأنا أيضا •

ويستطيع كاتب هذا البحث أن يشهد بذلك ما دام قد تعرض لهذا السبب : الى ملاحقات قضائية واتهام « بالنازية » وتهديدات بالقتل » •

ويتساءل جارودى بعد ذلك :

ـــ ما هو المسار الذى اتبع من أجل وضع دراسة الصهيونية السياسة على صعيد الحروب الدينية ؟

ويعقب جارودى على سؤاله المطروح قائلا :

« لقد قام على سلسلة من المداخلات والمتداعيات والاستبدالات فى

المعانى ، كان بيجين قد دلل عليها فى الشعار القائل باستحالة التفريق بين المناهضة لاسرائيل ؛ والمناهضة للصهيونية والمناهضة للسامية ، وهو شعار بادر زعماء « المنظمة الصهيونية العالمية الى تلقفه وترديده على مسامع العالم أجمع » •

ويقوم منهج كتاب جارودى على دراسة الموضوعات التالية والتمييز بينها :

١ ــ الصهيونية الدينية والصهيونية السياسية •

٢ ــ الصهيونية واليهودية •

٣ ــ اسرائيل التوراتية ودولة اسرائيل الصهيونية •

وتأسيسا على هذا الفهم يوضح جارودى الفارق الأساسى بين نزوع بعض اليهود دينيا الى اقامة مركز ثقافى وروحى لهم فى فلسطين دون أن يكون استعمار فلسطين نفسـها من أهدافهم ــ وهم من أطلق عليهم جارودى صفة « الصهيونية الدينية » •• وبين « الصهيونية السياسية » التى أسسها تيودور هرتزل الملحد الذى عمد الى استغلال الدين اليهودى والاعتماد على التزييفات الكثيرة عبر التاريخ للكتب الدينية لكى ينشىء دولة استعمارية صهيونية على أرض فلسطين •

ويبدأ جارودى بمناقشة عناصر موضوعه على النحو التالى :

أولا ــ الصهيونية الدينية والصهيونية السياسية :

يصعب الخلط بين مشروعين متمايزين تماما :

مشروع الصهيونية الدينية ومشروع الصهيونية السياسية •

فالصهيونية الدينية غالبا ما انطلقت من أقوال ذات طبيعة مجازية وغير حرفية فى التراث اليهودى •

اذ كانت تتعلق بأمل اليهود الأكبر فى انتظار مجىء مسيح آخر حينما تدعى جميع شعوب الأرض (سفر التكوين : ١٢/٣) الى حكم الرب الذى سيتحقق من أجل البشرية جمعاء .

متوجها الى المواقع المعينة فى التوراة لمآثر ابراهيم وموسى « عليهما السلام » .

وقد أوجدت هذه الصهيونية الدينية تقليدا يقضى بالحج الى الأراضى المقدسة . بل أن قيام طوائف روحانية . وخاصة فى صـــفد . فى وقت اشتداد حملات الاضطهاد التى كان يقوم بها فى أسبانيا ملوكها الشديدو التمسك بكاثوليكيتهم « بعد طول التعايش الهانىء » فى ذلك البلد . بين المسلمين واليهود دفع بعض الأتقياء الى العيش فى فلسطين فى ظل ايمانهم .

وحتى عهد قريب (فى القرن ١٩ ب.م) كان هدف « عشاق صهيون » استهداف مركز روحى . فى أرض صهيون هذه . يشع بالايمان وبالثقافة اليهودية .

واللافت للنظر هو أن هذه الصهيونية الدينية ـــ والتى لم تنتشرالا بين مجموعات محدودة ـــ لم تصطدم أبدا بمعارضة المسلمين الذين يعتبرون أنفسهم منحدرين من ذرية ابراهيم . منتمين لعقيدته .

ثم ان هذه الصهيونية الروحانية . البعيدة كل البعد عن أى برنامج سياسى يهدف الى تكوين دولة ، وعن فرض أى سيطرة على فلسطين لم تثر مطلقا مجابهات أو منازعات بين الطوائف اليهودية وبين السكان العرب .. المسلمين والمسيحيين .

الصـــهيونية الســـياسية :

ابتدعها تيودور هرتزل (١٨٦٠ ـــ ١٩٠٤) وعكف فى فيينا منذ عام ١٨٨٢ . على تشكيل مذهبها حتى انتهى من ارساء منهجها عام ١٨٩٤ فى

كتابه عن « الدولة اليهودية » • ثم وضعها موضع التنفيذ فى المؤتمر الصهيونى العالمى الأول • بمدينة بال فى سويسرا عام ١٨٩٧ • هذه الصهيونية بالذات عبادتها ونتائجها تشكل دون غيرها موضوع دراسة جارودى الذى يقول :

ان النتائج العملية التى استخلصها تيودور هرتزل • والحلول التى طالب بها لوضع حد نهائى لهذا العداء والتنافر — وهو فى رأيه تنافر دائم وقطعى — يمكن تلخيصها كما يلى :

١ — رفض الاندماج الذى لم يكن مسموحا به آنذاك فى دول أوربا الشرقية — وفى الامبراطورية الروسية على الأخص — تحقق على نطاق واسع وبصورة متزايدة فى أوربا الغربية « وخاصة فى فرنسا حيث كشفت اللاسامية القناع عن وجهها المخزى بعد قضية دريفوس » •

٢ — انشاء « دولة يهودية » يتجمع فيها كل يهود العالم لا بؤرة روحية أو مركز اشعاع للعقيدة اليهودية وثقافتها وقد عرفت أواخر القرن التاسع عشر ، عصر القوميات فى أوروبا • نشوء احدى طرق التعبير عن القومية بأسلوب عربى خالص • تمثل فى تلك القومية التى برزت بكل زخمها فى ألمانيا • وكان تأثيرها على هرتزل عميقا لا سيما وأن ثقافته كانت جرمانية •

٣ — هذه الدولة ينبغى اقامتها فى مكان « شاغر » وهذا المفهوم المميز للاستعمار الذى كان سائدا فى تلك الحقبة من الزمن كان يقضى بألا يؤخذ بعين الاعتبار وجود مواطنين أصليين • وقد اعتمد رهتزل وقادة الصهيونية السياسية من بعده ، على هذه المسلمة الاستعمارية التى سوف تتحكم بمستقبل المشروع الصهيونى كله ودولة اسرائيل التى انبثقت عنه •

أما المكان فلم يكن له أى أهمية بنظر تيودور هرتزل ، الذى كان كما

ستنتبين فيما بعد أمام أن يختار كمقر لشركته الاستعمارية ذات الامتياز وجنين الدولة المقبلة بين الأرجنتين وفقا لاقتراح البارون هيرش وبين أوغندا التى اقترحتها بريطانيا وانه لأمر ذو مغزى أن يقــوم هرتزل باستشارة سيسل رودس ، الذى كان ينفذ مشروعه الاستعمارى فى جنوب أفريقيا لأن لمشروعه أيضا طابعا استعماريا على حد تعبير هرتزل نفسه .

غير أن هرتزل فكر بايلاء فلسطين الأفضلية بين الأراضى المرشحة لغرس الدولة اليهودية فيها من منطلق اهتمامه باجتذاب تيار عشاق صهيون وتقوية الحركة الناشئة عنه . واضعا فى خدمة أغراضه تراثا دينيا لم يكن هو شخصيا ليؤمن به . وكان من صالحه الكلى ولفائدة مخططاته أن يظل الالتباس قائما وأبلغ مثال على حسن استغلال الغموض ظهر بعد وفاة هرتزل فى تصريح بلفور عام ١٩١٧ حينما أعلنت الحكومة البريطانية أنها تؤيد اقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين لا يلحق الضرر بالسكان الأصليين بينما استغل زعماء الصهيونية السياسية هذا التصريح فى الاتجاه الى انشاء دولة فلسطين اليهودية بالغاء كل وجود لسكان أصليين . تأمينا لبسط سيادة الدولة الصهيونية على فلسطين كلها .

هذا الطابع الاستعمارى للصهيونية السياسية بالاضافة الى أسسه الوهمية وعواقبه الوخيمة المضرة بالشعب الذى قيده نير الاستعمار المضرة أيضا بالسلام العالمى . وهو ما سيكون الموضوع الأساسى للتحليل الانتقادى الذى يقدمه جارودى .

ثانيا — الصــهيونية واليهــودية :

الانتقال من ميدان الكتابة الى ساحة القضاء ومن الجدل السياسى الى المحاربة بالدين . يتم انطلاقا من بلبلة ثانية ومزج آخر ، لا يكتفى معهما بالتسلل خفية من الصهيونية الدينية الى الصــهيونية السياسية — تسلل يسخر الدين لخدمة السياسة ويتيح اضفاء القداسة على سياسة معينة بقصد اعتبارها من المحرمات التى لا يجوز المساس بها — بل تستغل القرابة القائمة بين الصهيونية السياسية وبين الديانة اليهودية . من أجل

توجيه تهمة مناهضة السامية الى كل من ينتقد السياسة الصهيونية التى يتبعها القادة الاسرائيليون وقد برزت أفكار أساسية حول اللاسامية فى كتاب برنار لازار « اللاسامية • تاريخها • أسبابها » المنشور عام ١٨٩٤ والذى أعيد نشره فى العام الماضى فى أجواء مشبعة بأحداث قضية دريفوس • ونشوء الصهيونية السياسية على يد تيودور هرتزل •

وكتاب « برنارد لازار » كان ردا على أوسع المؤلفات على اللاسامية انتشارا « فرنسا اليهودية » لكاتبه دروسون ١٨٨٦ وخلافا لرسالة الهجاء المقذع الجاهل من « رومون » تبدو دراسة برنار لازار حتى بنظر من لا يقاسمه الرأى — الذى يطرحه فى فرضيات على البحث — قائمة على تحليلات تاريخية متأنية داعية للتأمل • تأخذ بعين الاعتبار مدى مسئولية الطوائف اليهودية عما كان ينزل بها من اضطهاد من جهة واستغلال اللا ساميين الدنىء لظواهر انكماش هذه الطوائف وتفردها من جهة أخرى •

ويميز برنار لازار النزعة المعادية لليهودية الصادرة عن المسيحية بشكل عام والمستمرة الوجود منذ القرن الرابع الميلادى حتى منتصف القرن التاسع عشر الأخير • عن ظاهرة مناهضة السامية • التى ظهرت تسميتها باللاسامية لأول مرة • فى كتاب صحفى من همبورج هو : « ولهلم مار » بعنوان « انتصار اليهودية على الجرمانية » عام ١٨٧٣ والمعاداة المسيحية لليهودية هى من مخلفات الفكر القسطنطينى العقائدى والسياسى الذى تبنته الكنيسة المنتصرة فى الامبراطورية البيزنطية •

وبين برنار لازار كيف أن سخافة تقوقع الطوائف اليهودية وانغلاقها على أضيق وأدق تفاسير الشريعة قد وفرت خلال تعاقب القرون أسانيد سهلة المنال لذلك الاتهام وحول هذا يقول برنار لازار فى كتابه المشار اليه أعلاه :

— لقد انعزل اليهود وراء أسوار كان قد رفعها حول التوراة الكتبة الأولون والفريسيون والتلموديون ومشوهو الموسوية الأولى وأعداء الرسل

وهذا خلافا للموسوية الحقيقية • التى اصطفاها وأكبرها أرميا وأشعيا وحزقيال (ص ١٤ و ١٦) •

ويضيف برنار لازار (ص ١٣) قوله بأن خطورة هذه العـــزلة وقد تفاقمت بسبب طبع فريد يختص به اليهودى ويدفعه الى التباهى بامتياز توراته • وبالتالى الى اعتبار نفسه فوق العالمين ومغايرا لباقى الشعوب » •

وقد عمل على ترسيخ هذا المسلك ، ذلك التزايد فى حدة القومية المنتشرة فى أوربا خلال القرن التاسع عشر ، اذ رأى اليهود فى أنفسهم الشـــعب المختـــار المتفوق على الشعوب كافة وهو حال جميع الشـــعوب المتطرفة فى تعصبها القومى كالألمان والفرنسيين والبريطانيين فى وقتنا الحاضر (ص ١٤٣) •

هذا الانغلاق على الفردية لم يكن جديدا •• فقد حارب الحاخامون المتطرفون بتلموديتهم المتصلبة ، جميع محاولات الانفتاح عبر العصور المتعاقبة وينوه برنار لازار بمسعى أبو عمران موسى بن ميمون أكبر فلاسفة اليهود فى جميع العصور الذى ولد ١١٣٥ فى الأندلس ومات ١٢٠٤ فى القاهرة وكان طبيبا لصلاح الدين الأيوبى فى تبيان التوافق بين الأديان والعقل مشيرا الى محاربة المتطرفين له بشراســـة واســـتنكار التلموديين والسبتيين لأهم مؤلفاته « دلالة الحائرين » حتى أن الحاخام سليمان من مدينة مونبلييه استنزل فى عام ١٢٣٢ م التحريم ضد قراء هذا الكتاب وحصل على الاذن بحرقه وعمل التلموديون على أن يحصر اليهود دراساتهم فى شريعتهم دون غيرها وفى نهاية القرن وبايعاز من الحاخام الألمانى عشير بن يحيال اتخذ مجمع سيبودس المكون من ثلاثين حاخاما وكان منعقدا فى برشلونة برئاسة بن عزر: قرارا بتحريم كل يهودى دون الخامسة والعشرين من عمره يقرأ كتبا غير التوراة والتلمود •• (ص ٦٥) ويلخص برنار لازار ، ما أدى اليه هذا التيار ، فيقول : لقــد بلغوا هدفهم وعزلوا اسرائيل عن مجموع الشعوب :

وفى القرن السابع عشر عادت النزعة نفسها • التى كانت قد حاولت

خنق صوت ابن ميمون الى الظهور مع من تصدى من بين التلموديين لقتل الفيلسوف سبينوزا • وكذلك مع أولئك الذين هاجموا مندلسون فى القرء الثامن عشر • لأن ترجمة هذا الأخير للتوارة الى اللغة الألمانية جرت عليه عقاب الحاخامين الذين كانوا مصممين على احتكار التفسير التملودى لشريعتهم • والحيلولة دون افساح المجال أمام الشعب للوصول الى التوراة مباشرة ، مما دفعهم الى منع قراءة تلك الترجمة للتوراة وسوف نرى ما عمدت اليه اليوم • فى دولة أسرائيل • حاخامية الأحزاب الدينية اليمينية المتطرفة ، من حصر تلك القراءة « الانتقائية » المتعصبة للتوراة ، فى النصوص التى تخدم غايات سياسية جديدة ، ومن نجاحها فى فرض توجيهاتها على الدولة •

ويقول جارودى معقباً :

ونحن حينما نتصدى مع برنار لازار التيارات الفكرية اليهودية التى تبرز الاستثنائية اليهودية وليس الشمولية وعقلية الفتـــح والســـيطرة المستقاة من ملاحم يوشيا وتمييز اسدراس العنصرى •والميل الى جعل اسرائيل مركزا للعالم ولتاريخه •• انما نقصد الى تبديد الغموض الذى يتعمد اللا ساميون بثه ، عند محاولتهم استنتاج صور الفساد الصهيونى عن آفة أساسية مزعومة كامنة فى صلب الديانة اليهودية •

وينطوى التراث الوفير فى اليهودية كما هى الحال فى المســيحية على تيارات متناقضـــة • وكما وجد فى المســـيحية نزعة قســـطنطينية وتطرف ، فقد قامت عبر مسار اليهودية • نزعات الى التطرف والانغلاق • يستغلها اليوم أشد الصهاينة تعصبا فى يهودية لا يؤمن بها معظمهم وما نشجبه بالذات هو القراءة الانتقائية للتوراة وللقوانين اليهودية التى وضعها الكهنة والكتبة ، تلك القراءة التى تعزل اليهود عن بقية الشعوب ولا ننسى أبدا أن هناك فى الشريعة اليهودية الأصلية مساهمتها الرائعة فى اعلاء شأن الانسان فى مقابل نزعات الفناء تلك بنور ازدهار الهى للحياة ، عبر مسائل التحالف والوعد •• المسائل التى يرى سفر التكوين

أن جميع شعوب العالم مدعوة الى تبنيها : فالتاريخ انما هو انبثاق دائم لكل جديد أصيل الجدة فى حياة البشر •

وكنت قد ذكرت فى كتاب سابق لى بعنوان « نداء الى الأحياء » أن من كبريات مآسى الدولة الاسرائيلية الحالية خضوعها لأحكام الحاخامات المتطرفين ، مى وقت تحتاج فيه الى رسل •

بالنسبة لهذه السنة الشاملة التى اتبعتها اليهودية منذ القدم تشكل الصهيونية السياسية تعسفا قوميا واستعماريا يدين بتوجيهه • لا لليهودية بل للتعصب القومى والنزعة الاستعمارية المنتشرتين فى أوروبا خلال القرن التاسع عشر • كما أنها لا تستخدم القــراءة الانتقائية والقبلية للتوراة ع بتحول صريح عن صراط الله الا لتزوير مقاصدها السياسية وتمويهها •

ثالثا ـ تزوير التوراة لخدمة أغراض الصهيونية :

ثم يذهب جارودى الى أن مرحلة الصهيونية العسكرية التى تمثل تماما تزوير التوراة لخدمة أغراضها ، فى التوسع المستمر على الحدود والقتل والارهاب • وقد سبق لبن جوريون عام ١٩٣٧ م فى تقرير قدمه لمؤتمر المجلس الصهيونى العالمى فى زيوريخ أن رسم حدود اسرائيل باسناد « توراتى » يقضى بأن تضم « أرض اسرائيل » مناطق هى جنوب لبنان حتى نهر الليطانى وجنوب سوريا وشرق الأردن وفلسطين وسيناء • وفى عام ١٩٥٦ م أعلن بن جوريون فى الكنيست أن سيناء جزء من مملكة داود وسليمان • ونفس النغمة هى التى سادت بعد أحداث ١٩٦٧ وأعلن أن حدى أرض الميعاد هما نهر الفرات ونهر النيل •

وهكذا بين جارودى الى أى مدى زيفت الصهيونية التوراة بهدف اضفاء الشرعية على أى عدوان مبيت سلفا ، أو لتبرير أى الحاق أو ضم لأراضى غيرها • وقد أضفت اسرائيل على مذابح لبنان واحتلال أراضيه ومجازر مخيمى صابرا وشاتيلا ما أضفته من قبل على مذابح دير ياسين من صفة القداسة « المزورة » •

ويذهب جارودى الى أن العنصرية لا تقوم على أساس علمى وانما تعتمد على الأسطورة البالية فى سفر التكوين لتبرير الطبقية والتسلط والعنصرية . ويكشف جارودى عن جنون العظمــة لدى العســكريين الاسرائيليين ، كما يتمثل فى نبوءة ومخاوف أحد أوائل الصهيونيين وهو « مارتن بيوبر » الذى قال أن اليهود أبعد من كونهم أمة ، انهم أعضاء جماعة وعقيدة وكان يريد أن يثبت أن هناك شيئا اسمه « القرية اليهودية » وقال ان دور اصطفاء اسرائيل ليس نوعا من الاستعلاء ولكنه احساس بالقدر والمصير . ويبين جارودى كيف انتشرت هذه الأفكار نتيجة للتحكم فى التوجيه الفكرى لدى النشىء الاسرائيلى منذ وجوده فى المدرسة وغرسه فى عقول الجنود بواسطة الحاخامات وغرسه كذلك فى أذهان الشعوب عن طريق الدعاية الصهيونية .

وبين جارودى كيف استخدم اليهود فكرة الشعب المختار وأرض الميعاد استخداما شاذا لافساد ما بين الاسرائيليين والمسيحيين ، ولتبرير الاغتصاب الدموى للحقوق الانسانية بمساعدة الحاخامات المتعصبين فى الأحزاب الدينية التى تدعو الى « الحرب المقدسة » .

ثم يؤكد جارودى أننا نحارب الصهيونية السياسية لأننا ضد التمييز العنصرى ، ويذهب بعد ذلك الى أن ما يروجه الصهيونيون من أن معاداة الصهيونية هى السبب فى نشوء العداء انسامية ، ليس صحيحا ، وانما السبب يكمن فى الصهيونية ذاتها ، التى تدعى اســتخدام الدين ادعاء مزورا لاضفاء القداسة على السياسة والدين منها براء . ولذلك يكشف جارودى فى فصول كتابه القيم حقيقة الوهم المحيط بالصهيونية السياسية التى تقوم على التمييز العنصرى — داخليا — وعلى العدوان والتوسع خارجيا — مستعينة بالارهاب فى تحقيق أطماع التوسع وغزو عقول الانسانية .

وتأسيسا على هذا الفهم ، يكشف جارودى الستار عن خرافة الحق التاريخى لليهود فى فلسطين ، ويؤكد بمنهجه العلمى « أن الفلسطينيين

العرب هم سلالة أقدم شعب سكن كنعان » وأن الحضارة العربية فى فلسطين نشأت « قبل ظهور العبرانيين » يقول جارودى :

« هذه الأرض هى الموطن التاريخى لليهود •• وفقا لمذكرة المنظمة الصهيونية العالمية الى مؤتمر السلام فى جنيف عام ١٩١٩ •

وكان اعلان قيام دولة اسرائيل فى ١٤ مايو ١٩٤٨ قد أكد بأنه بموجب الحق الطبيعى والتاريخى للشعب اليهودى •

« قد انشئت هذه الدولة فى فلسطين » •

وهذا المفهوم « للحقــوق التاريخيـــة » يرتبط دائما عبر الدعاية الصهيونية بمفهوم « الوعد » بالأرض الذى يعطى للاسرائيليين : حقا الهيا صريحا فى امتلاك فلسطين والسيطرة عليها » •

ومع ذلك فان جارودى يتناول كلا من المسألتين على حدة ، ذلك لأنه ليس هناك ، خارج نصوص التوراة أى اشارة لروايات العهد القديم قبل القرن العاشر « قبل الميلاد » لا فى مدونات شعوب الشرق الأوسط ولا فى الحفريات الأثرية • بل أن عالما كالأب « ديفو » حريصا على انقاذ عراقة العهد القديم التاريخية • يعترف كغيره من الناس بأنه ليس هناك « خارج التوراة » أى اشارة واضحة للعبريين واقامتهم بمصر وخروجهم منها •• ولا حتى الى غزو أرض كنعان • ومن المشكوك فيه اكتشاف نصوص جديدة تبدد هذا الصمت •

أما « الوعد » بأرض فلسطين فى حالته الحاضرة ــ فلم يظهر الا فى كتابات المنتفعين به • وكان مفسرون آخرون ، طوال قرن من الزمان قد توصلوا أيضا الى استنتاجات أكثر حسما ــ كما سنرى فيما بعد بصدد أسطورة « الوعد » فى التــوراة ــ من أمثال : فــون راد • ونوث • وطومبسون • وفان سيتر ، وألبير دى بورى وغيرهم •

وأول ما يلاحظ عند عدم التسليم دونما تفحص ناقد ــ بصحة الأجزاء

(جارودى)

التاريخية من العهد القديم • ان تاريخ العبريين — بدلا من تشكيله « محورا » للتاريخ • كما تزعم نظرة « الاستثناء » التى تنادى بها الصهيونية السياسية وتساندها بعض التعاليم المسيحية — لا يبدو فى أى وقت من الأوقات متميزا عن تاريخ ممالك بلاد ما بين النهرين والحيثيين والمصريين •

وعند استعراض جارودى للمرحلة التاريخية التى تنوه بها الوثائق المدونة ، يتبين ما يلى :

العصر البرونزى القديم فى الألف الثالث • حيث ثبت • وعلى الأخص بعد اكتشاف ألواح « أنبا » عام ١٩٧٦ وجود سابق فى أرض كنعان لحضارة مدنية كبرى لدى الشعوب الناطقة باحدى لغات العرب السامية كالأرامية ولغة كنعان •

— ثم المرحلة الممتدة ما بين ٢٠٠٠ ق•م و ١٩٠٠ ق•م• والمتميزة بتسلل البدو الرحل •

— والسيطرة المصرية اعتبارا من منتصف القرن السادس عشر ق•م ، حينما جعل فراعنة الأسرة الثامنة عشرة من فلسطين ثغرا مصريا ••

وهذه المنطقة الواقعة فى قلب الهلال الخصيب الممتد من النيل الى الفرات عبرت بها وتمازجت مجموعات بشرية من كل نوع ودين • الى أن دخلها بدو أو رعاة فى سبيلهم الى الاستقرار باحثين عن المراعى وآتين من بلاد ما بين النهرين أو من شرقى الأردن • ليصلوا الى أرض كنعان فى بداية الألف الثانى • فى العصر البرونزى القديم • وليجدوا بين سكانها الأصليين أولئك الكنعانيين الذين كانوا يتميزون بحضارة مدنية • كشفت لهم • فى نهاية الألف الثانى عن معدن الحديد والكتابة الأبجدية وخلافا للصورة التوراتية التقليدية فان العبرانيين لم يشكلوا عنصرا متميزا قبل دخول البدو أرض كنعان •• بل تشكلت تجمعاتهم من وحدات عرقية مختلفة كانت جزءا من هجرات بدوية واسعة « من الأموريين أو الآراميين حسب قول الأب ديفو » •

وبين أولئك البدو الرحل من استقر فى أرض كنعان بينما تابع الآخرون سيرهم الى أرض مصر •

هؤلاء البدو — ومنهم الذين عرفوا فيما بعد بالعبرانيين — أخذوا عن الكنعانيين لغتهم • وكتابتهم • ومعتقداتهم •• حتى حوالى ١٤٠٠ ق•م• حينما سعوا الى مراع جديدة فى مصر ، مقتفين على الأرجح أثر الغزاة الهكسوس •

وعندما طرد الهكسوس من مصر ، تأزم موقف الذين جاءوا بحمايتهم •• اذ اعتبروا أعوانا للعدو وتم اخضاعهم لأحوال معيشـــية ازدادت قسوتها مع الأيام • وهؤلاء الأخصام الهامشيون الذين لم يكونوا يشكلون عرقا معينا بل مجموعة من معارضى الفراعنة عرفت باسم « عابروا » ومنه اشتق بلا شك اسم العبريين •• حسب رأى الأب « ديفو » لم يروا بدا من الفرار من مصر • ولابد أن « خروج » هؤلاء الأتباع الأجانب الساخطين كان مألوفا وتافها الى حد أن الحوليات المصرية قد أغفلت كليا ذكر هذا •

ويتوقف جارودى هنا أمام عظمة الاسلام فى موقفه من اليهود فيقول :

« واذا كان الصليبيون غداة استيلائهم على القدس عام ١٠٩٩ قد أحرقوا اليهود فى معبدهم فان صلاح الدين الأيوبى • الذى كان يستعيد القدس عام ١١٨٧ قد أذن لليهود بالعودة الى المدينة المقدسة •

ولم يعد اليهود الى فلسطين الا على أثر حملات الاضطهاد والملاحقة فى أوروبا •• وليس بدافع من حنين الى « وطن الأجداد » ففى القرن الخامس عشر الميلادى • كان أول العائدين يهود أسبانيا بعد سقوط الحكم العربى فيها •• أولئك الذين لم يشعروا بحاجة الى الهجرة طوال ثمانية قرون من التعايش مع العرب • ولكنهم اضطروا الى الفرار من جـــور محاكم التفتيش والملوك المتشددين فى « كاثوليكيتهم » •• لم يأت منهم الى فلسطين سوى عدد قليل جدا • بينما التجأت الأكثرية الساحقة الى

فرنسا • وهولندا ، وايطاليا • ومصر • وقبرص ، والبلقان وفى عام ١٨٤٥ لم يكن فى فلسطين سوى « ١٢ » ألف يهودى من أصل مجموع السكان البالغ ٣٥٠ ألفا وفى عام ١٨٨٠ : « ٢٥ » ألفا من أصل ٥٠٠ ألف وقد أتت حملات الاضطهاد فى روسيا عام ١٩٨٢ بموجة جديدة تبعتها موجات من يهود بولندا ورومانيا •

ومع نمو الصهيونية السياسية انطلاقا من كتاب تيودور هـــرتزل حول الدولة اليهودية « الصادر عام ١٨٩٦ لابد لتفهم الدوافع الجديدة للحركة من وضع النقاط على الحروف بالنســـبة لمســـألة « الحقـــوق التاريخية » •

ويواصل جارودى فى كتابه كشف أحلام الصهيونية وأضـــاليلها ، فيتحدث تفصيلا عن تزييف التاريخ لتبرير العدوان ، وكيف ابتكر اليهود فكرة العنصرية واستخدمها النازيون ضدهم ، ويخلص من دراسته هذه الى أن « المعجزة الحقيقية فى فلسطين : عربية » •

يقول جارودى :

« لم يكن العبرانيون هم الشاغلين الأوائل لفلسطين بل كانوا فيها بالأحرى بين كثيرين غيرهم من شعوب « الهلال الخصيب » ولا يستطيعون بحال من الأحوال المطالبة بوضع استثنائى لهم فى سياق هذا التاريخ الطويل الا أن الصهيونية تخضع أحداث الماضى للتلاعب والتحـــريف المنظمين حينما لا تستبقى فى الكتب المدرسية الاسرائيلية وفى مضامين الدعاية الخارجية ما يعتبر ذا دلالة فى تاريخ فلسطين سوى الأويقات العابرة والنادرة التى قيض للعبرانيين فيها أن يؤدوا دورا ما •

١ ـــ احتلال القبائل فى عهد « يوشع » لأرض كنعان وقد حدث فى القرن ١٣ ق•م وفقا لنصوص القرن العاشر التوراتية •

وهذا التوغل ما لبث أن حول الى حرب مقدسة والى غـــزو لاستئصال شأفة الأعداء والقائمون بهذا التحويل انما هم لاهوتيو

القرن السادس فى اعادتهم لكتابة التاريخ طبقا لأغراض سياسية محددة ٠

٢ — سنوات حكم داود وسليمان ومجموعها ٧٣ سنة ٠

٣ — النفى الى بابل ٠٠ ثم العودة منها ٠

٤ — وأخيرا ثورات عام ٦٣ م وعام ١٣٥ م ضد الرومان ٠٠

أما بقية التاريخ فلا أثر لها ٠

كما لو أن شيئا لم يحدث فوق هذه الأرض منذ الألف الثالث حتى مجيء العبرانيين خلال ألفين من السنين ثم لا شيء أيضا خلال قرابة ألفين آخرين بدءا من « باروكوشيا » ٠٠٠٠ وحتى انشاء دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ م » ٠

ويخلص من دراسته الى أن علم الأجناس يؤكد أن الفلسطينين هم أحق بالأرض من يهود الشتات ، ويطرح سؤالا يلخص جذور الادعاء الصهيونى وهو :

« من يملك الحق فى ارث ابراهيم الخليل ؟ » ٠

يقول جارودى :

« الحقيقة أنه لم يكن للعنصر اليهودى من وجود أصلا وفيما عدا هذيان هتلر والصهيونيين كان « اليهود » خلال جميع مراحل التاريخ أحد مركبات الفئات السكانية التى لم تكن تشكل بدورها أصولا عرقية ٠

ان البدو الرحل أو الرعاة المتجهين نحو الاستقرار ، ممن دخلوا أرض كنعان كانوا آراميين ، أتوا من شمانى الفرات ٠ ومن شرقى الأردن ومن شبه الجزيرة العربية ، أى أنهم بحكم لغتهم لا بحكم دمهم — كانوا « ساميين » كما هم اليوم العرب والاسرائيليون يشهد على ذلك ما فى اللغتين ، العبرية والعربية من تقارب ٠

و « العابرو » « العبريون » الآتون من مصر وقت « الخروج كانوا فئة اجتماعية من الهامشيين ، المعارضين لا عنصرا متميزا • والقبائل التى تسللت الى أرض كنعان بسلام أو بحرب تمازجت بالسكان المحليين ثقافيا وزواجا تشهد على ذلك قوانين اسدراس ونحميا العنصرية الصادرة بعد عدة قرون •

ثم ان مملكة داود وسليمان كانت متعددة الجنسيات ، حفية بالأجانب ونزعاتهم الدينية وعندما سمح البابلى أحشيروش للمنفيين من اليهود فى بابل « بالعودة » بقى معظمهم فى بلاد ما بين النهرين •

حيث شكلوا جذورا أسرية •

وأخيرا حينما طرد الرومان الاسرائيليين المتمردين سنة ٧٠ م •

وفى (باركوشيا) فيما بعد نجح المنفيون فى تحويل بعض السكان الذين آووهم الى اليهودية •

وكان جوزيف ريناخ قد كتب فى (جريدة المناقشات) يوم ١٩١٩/٣/٣٠ قوله بأن « يهود فلسطين لا يشكلون سوى أقلية لا تذكر واليهود كالنصارى والمسلمين عمدوا بحماسة وايمان الى ادخال الشعوب فى دينهم ، بل انهم قبل العهد المسيحى أدخلوا فى ديانة موسى الموحدة لله ساميين آخرين (كالعرب) ويونانيين ومصريين ورومانيين • بأعداد كبيرة وبعد ذلك نشط التبشير اليهودى فى آسيا وأفريقيا الشمالية وايطاليا وأسبانيا وبلاد الغال وكان الرومان والغاليون المحولون الى اليهودية هم بلا شك الأكثرية فى الجماعات اليهودية المشار اليها فى حوليات « جربجواردى تور » كذلك كان بين اليهود الذين طردهم الملك الكاثوليكى فرديناند من أسبانيا كثير من الأسبان المتحولين الى اليهودية • وقد انتشروا فى ايطاليا وفرنسا والشرق وأزمير • والأكثرية الساحقة من اليهود الروس والبولونيين والكاليدين يتحدرون من « الخزر » وهم شعب تترى فى جنوبى روسيا تحول برمته الى اليهودية فى عهد شارلمان •

لذا فمن يتحدث عن عرق يهودى ، أما أن يكون جاهلا أو ذا نية خبيثة • ذلك أن اليهود لم يكونوا سوى قبيلة بين العديد من القبائل العربية أو السامية التى استقرت فى غربى آسيا » •

يهودية •• لا صهيونية :

ويستخلص « جوزيف ريناخ » من كل ما سبق نتيجة واضحة هى :

« بما انه لا يوجد عنصر يهودى ولا أمة يهودية بل مجرد ديانة يهودية فالصهيونية اذن هى بالتالى حماقة وثلاثية الخطأ : تاريخيا وأثريا وعرقيا يؤكد هذا مكسيم رودنسون ، بمزيد من الدقة العلمية فيقول :

« من المرجح ، كما يجنح عام الانسان الى تبيانه أنه يجرى فى عروق السكان المعروفين بعرب فلسطين — ومعظمهم معربون — قدر من دم العبرانيين القدامى أى الآراميين شعب ابراهيم عليه السلام — أكبر مما يجرى فى عروق أغلبية يهود الخارج ، ممن لم يمنع انغلاقهم الدينى من امتصاص متحولين الى اليهودية مختلفى الأصول العرقية •

وأوضح خاتمة لازالة الخداع التاريخى هذا هى التى أوردها توماس كيرنان فى كتابه العرب « صدر فى بوسطن ١٩٧٥ » قائلا :

« كان الصهاينة أوربيين وليس هناك أبدا من رابط حيوى أو عضوى بشرى بين أجداد يهود أوروبا وبين القبائل العبرانية القديمة » •

وانهاء لموضوع « الحقوق التاريخية المزعومة » يذكر جارودى بمواقف ثلاثة جوهرية فى مسيرة اقامة الدولة الصهيونية :

١ — وعد بلفور الذى تضمنته رسالة موجهة الى البارون دى روتشيلد فى الثانى من نوفمبر تشرين ثانى عام ١٩١٧ « ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يفهم

جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يغير الحقوق المدنية والدينية التى تتمتــع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلســطين ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى •

وسرعان ما وعى بلفور مخاطر وعده فقد كتب يوم ١٩١٩/٢/١٩ الى « لويد جورج » ما يلى :

« النقطة الضعيفة فى موقفنا هى أننا فيما يتعلق بفلسطين قد رفضنا مبدأ تقرير المصير ذاتيا • فلو كان السكان الحاليون قد استشيروا لكان قرارهم حتما ضد الاستيطان اليهودى •

وهذا على أية حال كان ما أكده تقرير لجنة كنج — كرين التى أرسلها الرئيس الأمريكى ولسون عام ١٩١٩ لتقصى الحقائق حول « أفكار ورغبات مجمل السكان » • يقول التقرير بالنسبة لفلسطين :

— لقدامى السكان هنا : من مسلمين ومسيحيين على السواء ، نفس الموقف المعارض لأى نزوح يهودى جماعى والمضاد لأى مسعى نحو بسط سيادة يهودية عليهم • وهنا نتساءل عما اذا كان هناك من بريطانى أو أمريكى بين الرسميين ؛ يمكن أن يعتقد بامكان تحقيق البرنامج الصهيونى ، الا أن يكون بدعم جيش كبير » •

ونبذت اللجنة البرنامج الصهيونى الموسع مقترحة الابقاء على الوحدة السورية الفلسطينية تحت انتداب بريطانى أو أمريكى مع كفالة وطن قومى يهودى محدود •

وقد وفق « أرثر كوستلر » فى وصف العملية التى جرت عندما قال فى كتابه « الوعد والوفاء » (ص ٤) :

« أمة وعدت أخرى علنا بأرض أمة ثالثة ومع هذا الوعد بدأت سلسلة الأكاذيب التى تحكمت بمسيرة دولة اسرائيل وقادتها • ولم يكف

الانتهاك المستمر للاشارة الواردة فى وعد بلفور الى احترام حقوق « الطوائف غير اليهودية » •

وكان اللورد كروزون قد كتب منذ ١٩١٩/١/٢٦ يقول « بينما يقول لك وايزمن شيئا وتظن أنه يعنى ـ وطنا قوميا يهوديا يمضى تفكيره الى شىء مختلف كل الاختلاف فهو يتطلع الى دولة يهودية • وسكان عرب خاضعين تحت حكم اليهود وأنه يسعى الى تحقيق ذلك خفية وبضمانة بريطانية •

ويكشف جارودى بعد ذلك عن البرنامج الصهيونى وكونه استعماريا باعتراف « هرتزل » ولذلك يذهب جارودى الى أن « الصهيونية جزء من الابادة العنصرية لغير اليهود » يقول :

« خرافة الحنين المتوارث جيلا بعد جيل » الى « العودة » تخفى وراءها الحقيقة الاستعمارية للصهيونية فى القرن العشرين •

والروحانيون اليهود الذين نادوا بالعودة الى فلسطين ، ظلوا منعزلين مثل يهودا هاليفى (١٠٨٥ ـ ١١٤١ م) الفيلسوف والشاعر اليهودى فى زمن كان اليهود يتمتعون فيه بوضع متميز فى أسبانيا المسلمة • فقد كان هذا الشاعر الصوفى الكبير يرى فى كل يهودى نبيا مـؤكدا أن « الحدس الالهى » الذى هو هبة خاصة بهم لا يتفتح الا فى بلاد اسرائيل « ونداؤه هذا ـ الذى يستند اليه الصهيونيون السياسيون اليوم دون مشاركة لصاحبه فى ايمانه ـ لم يلق تجاوبا فى حينه • كما لم يتبع خطاه أحد بعد أن توجه الى القدس ومات عند أبوابها كذلك كان الحال فى القرن الثالث عشر بالنسبة للفيلسوف المتصوف « نشتيد » الذى توجه للعيش فى القدس دون أن يجد أحدا يتبعه •

ان الاضطهاد كان هو الدافع للهجرات الكبرى الى فلسطين وليس الحنين الى الوطن ، لم يكن الحاخامات المبشرون بالخلاص المنتظر فى كتاب « زوهارر » الذى ظهر فى القرون الوسطى ليؤكد خرافة الشعب

المختار — ليشجعوا عليه أبدا واليهود الذين سبق أن طردهم الصليبيون من القدس ، عاد « الملوك الكاثوليك » فطردوهم من أسبانيا عام ١٤٩٢ م عدا من تحول عن دينه أمام ارهاب محاكم التفتيش الخاصة بالكنيسة الكاثوليكية . وحينئذ لجأ العدد الأكبر منهم الى أنحاء متفرقة من أوروبا بينما توجه العدد القليل الى فلسطين ، حيث كان متصوفوا صفد يقرنون رؤياهم الشاملة للمحبة الالهية ووحدة العالم بتأويل أسطورى لتاريخ اسرائيل » .

ثم يطرح جارودى عددا من القضايا التى تكشف أحلام الصهيونية وأضاليلها وكيف أن علم الآثار يؤكد تزوير الكهنة تاريخ يوشع وداود عليهما السلام ويتساءل جارودى : « كيف تبادل الاستعمار والصهيونية الاستفادة من أسطورة الشعب المختار » ؟ ولماذا يركز الصهيونى على فكرة (الابادة) ؟ فيقول :

« الصهيونية السياسية تتمسك بالاستثناء والتفرقة تعزيزا للفكرة القائلة بأن اليهود لا يستطيعون العيش بأمان فى الشتات (دياسبورا) ولكن فى دولة منفصلة فقط . كما لو أن الدولة وحتى الممالك مهما بلغت من القوة لم يجتحها أحد ولم يلحق بها الخراب . ولم ينهب الغزاة أهلها وليس صحيحا أن الصهيونية السياسية — فى مشروعاتها أو فى انجازها للدولة — قد أنقذت اليهود . لقد تم انقاذ اليهود من النازية بفضل انتصارات ستالينجراد والعلمين ولولا هذه الضربات الموفقة للاندفاع الهتلرى الى الشرق . لباتت فلسطين — بالدولة الصهيونية فيها أو بدونها — رهينة الارهاب النازى .

ان السبب البعيد لهذا التزييف التاريخى الذى قام به الصهاينة هو سبب سياسى . فالمقصود من تلك « الاستثنائية » هو انتزاع الدولة الصهيونية من المجموعة الدولية واعتماد علاقات مع بقية الدول لا تكون طبيعية وقائمة على التفاهم المتبادل والمصالح المشتركة والغايات السلمية الخلاقة بل علاقات أستثنائية يتحكم فيها الشعور بالذنب الى حد يكفى

عنده التلويح بمحرقة « الهولكوست » ليصبح كل شيء مسموحا به للضحية المختلفة عن غيرها ، بما فيه تسديد التعويض عن جرائم الأمس .

ونتيجة ذلك التمسك من جانب الصهيونية السياسية بالترويج لوهم الاستثناء والتميز — كانت عزلة تامة — نرى تلك النتيجة فى عزلة اسرائيل داخل منظمة الأمم المتحدة حيث لم تكن لتتحدى كل شيء لولا الدعم غير المشروط وغير المحدود من الولايات المتحدة الأمريكية ولكن اذا توقف الدعم الخارجى ذات يوم — كما حدث فى الماضى مع الصليبيين ، بشأن الأسلحة والأموال — فان الارتباط المالى والعسكرى للدولة الصهيونية سيكون له من التأثير ما يكشف عن أسوأ كارثة أعدتها الصهيونية السياسية لليهود أنفسهم ولتستتر عنى هذه الحقيقة الرهيبة ، يعمد الزعماء الاسرائيليون الى استخدام كل الوسائل لتصوير أنفسهم وكأنهم كل يوم على حافة الزوال « فى محرقة هولكوست جديدة » وفى سبيل ذلك فهم بحاجة الى اذكاء معاداة السامية فى الخارج ، والى التهويل بالتهديد العربى فى الشرق الأوسط بينما اتصلت حلقات ذبائحهم من دير ياسين عام ١٩٤٨ الى صابرا وشاتيلا عام ١٩٨٢ وهكذا فان الزعماء الصهيونيين سواء نسبوا أنفسهم الى اليسار أم الى اليمين أو كانوا أعضاء فى الحزب العمالى أم فى ليكود أو كانوا ناطقين باسم الجيش أم باسم الحاخامية يتذرعون دوما وأبدا بذرائع توراتية لتبرير كل مطالبة بأرض يكفلها لهم « حق الهى » بامتلاك فلسطين يجرى كل هذا ، كما لو أن بالامكان ابراز صك هبة ممهور من الله ، من شأنه اثبات حق نزع الملكية من كل شاغل لتلك الأرض .

هذا المفهوم للوعد وكذلك وسائل تحقيقه ، كما يستقيها زعماء الصهيونية السياسية من سفر يوشع ، ومن الانتصارات التى حققها بأمر الرب وعونه كما يزعمون فى استئصال شأفة الشعوب السابقة وبالاضافة الى مسائل الشعب المختار واسرائيل الكبرى من النيل الى الفرات كل هذا يشكل الأساس الأيدلوجى للصهيونية السياسية .

ويطرح جارودى بعد ذلك قضية تكشف أضاليل الصهيونية تتلخص

فى تساؤله : « لماذا اختلفت روايات كهنة اليهود لتاريخهم فى كل عصر ؟ ؛ ثم يكشف كيف تحاول « الصهيونية تضليل المسيحية بعد تشويه اليهودية » ، وينتهى من هذه الدراسة الى استقراء التوراة والأناجيل لكشف ما يدعيه اليهود ، ويستلهم القرآن الكريم فى التعريف بذرية ابراهيم حيث المشاركة فى العقيدة الواحدة هى الأساس حينما لبى ابراهيم نداء ربه (فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين) « سورة الصافات ١٠٢ » .

ويقف جارودى هنا خاشعا ليقول :

« بمثل هذا التسليم غير المشروط تسليم الانسان كل أموره لتقدير الله سبحانه كانت البداية بالنسبة لذرية ابراهيم » .

ويعقب جارودى قائلا :

« ان أى سوء استخدام للقانون اليهودى لن يستطيع اسكات الذين يحسنون التمييز بين شريعة الكهان وبين رؤيا الأنبياء ونحن لن نسمح لأى كان أن يحول اسرائيل الى معزل « جيتو » دينى بعزائم الخلاص المنتظر يهزأ بالسنين الشاملة للانسانية وللقانون الدولى .

هذه الصرخة تفضح الانحراف الفكرى فى أسس اليهودية الناتج عن توظيف الصهيونية السياسية للخرافات والأساطير فى تحقيق أغراضها

والواقع أن مجمل سياسة دولة اسرائيل الداخلية والخارجية مستعد وفق منطق محكم من الخاصيتين الأساسيتين للصهيونية السياسية باعتبار هذه الأخيرة ظاهرة استعمارية صرفة متخفية بزى عقائدى مزيف تشكل كما وصمها فى مهدها معظم الحاخامات والمتعلقين السابقين بالعقيدة اليهودية والمشتركين بمؤتمر بال عام ١٨٩٧ خيانة للديانة اليهودية المفرغة من مدلولها الروحي كله . والمستخدمة لتبرير سياسة قومية . وعنصرية .

ان عنصرية الصهيونية السياسية نظام شديد التماسك تستمد منه دولة اسرائيل تشريعها وتطبيقها لكل قوانينها •

وقد سبق لهذه العنصرية أنكانت المبدأ المكون لمشروع تيودور هرتزلكما كشف عنه كتابه « الدولة اليهودية » وكذلك يومياته • فمنذ الثورة الفرنسية وفى فرنسا أولا ثم فى مختلف بلاد أوروبا خلال القرن التاسع عشر كان موقف التمييز العنصرى البانى واللانسانى ازاء الطوائف اليهودية يتراجع بقدر تقدم الديمقراطية اذ أن معظم هذا الطوائف المندمجة فى الدول التى تتبعها سلمت أمورها لدولها حيث ساهمت فعليا بتوجيه سياستها واقتصادياتها وثقافاتها • وتميز نتاج البارزين من تلك الطوائف بشموليته العالمية التى سبق أن رفعت من شأن فكر سبينوزا • فمن كارل ماركس الى مارتن بوبر ومن موسيقى مثل مندلسون الى فيزيائى مثل اينشتاين كانت الرسالة المنقولة موجهة الى الانسانية جمعاء •

لماذا اتفق هرتزل مع أعداء اليهود ؟

وفى الاجابة عن هذا السؤال يكشف جارودى عن تحالف الصهيونية والعداء للسامية غير المقدس كما يوضح كيف أصبحت العنصرية أساسا لقوانين الجنسية •

يقول جارودى :

« جاء مشروع هرتزل ليخط له اتجاها معاكسا لتلك السنة الحميدة • ذلك أنه قد تأثر تأثرا عميقا بقضية « دريفوس » التى اتهم فيها ذلك الضابط الفرنسى اليهودى بالخيانة ظلما لكى تستخدم مشاعر اليهود من أجل تغطية فساد عدو كبير من رجال المال والسياسة والحرب فهب هرتزل بضراوة • ليهاجم اندماج اليهود فى مجتمعاتهم واستعان بالنظرية الأساسية للمعادين السامية ، فى دفاعه عن الفكرة القائلة بأن اليهود غير قابلين للاندماج فى غيرهم وبالتلى يتوجب عليهم الانعزال من أجل تشكيل دولة منفصلة لا تكوين ديانة أو مساهمة ثقافية •

وتحقيقا لأهدافه لم يكن هرتزل ليتردد فى استخدام لهجة خاصة تناسب كلا من مفاوضيه على حدة • لاقناعه بما يمثله اليهود من مخاطر تستوجب تسهيل رحيلهم •

مثلا ؛ فى لندن أكثر هرتزل من القول بأن من شأن حل الصهاينة للمشكلة اليهودية ابعاد خطر اندلاع ثورة تبدأ مع اليهود ولا أحد يعلم أين تنتهى وفقا لما قاله هرتزل لوزير خارجية ألمانيا فون بولوا ولغليوم الثانى ولوزير داخلية روسيا بليف وللقيصر نقولا الثانى ولأبرز مناهضى السامية « الوزير الروسى بليف » المسئول عن مذابح اليهود فى كتشنيف فى نيسان عام ١٩٠٣ وكانت أفظع المذابح أو « البوجرومات » المنظمة فى روسيا •

وقد كتب هرتزل اليه فى الشهر التالى : مايو « آيار » موصيا بالصهيونية كعلاج مضاد للثورة التى لا بد أن تجتذب الشباب اليهودى بعد كتشنيف وعند استقبال بليف اياه فى شهر أغسطس « آب » طلب منه رسالة دعم للصهيونية وقد نال هذه الرسالة التى كانت تنص على وعد بدعم صهيونية تعمل على تهجير اليهود لا على تنمية قومية أجنبية فى روسيا •

هذه الرسالة وجدها هرتزل « مرضية » فحث بليف على ابلاغ السلطان العثمانى بمضمونها لكى يدع اليهود يدخلون فلسطين ثم نشر على الناس مراسلاته هذه رغم تحفظات أصدقائه فى المؤتمر الصهيونى عام ١٩٠٣ م » •

ثم يتحدث جارودى عن تحالف العنصريين فيقول :

« وقبل أن ينشر كتابه عام ١٨٩٥ همَّ أحد معارضيه بقتله صارخا انك تلحق أفدح الضرر باليهود فلم يتردد هرتزل فى الاجابة بالقول لقد بدأت أحظى بالحق فى أن أكون أكبر الدعاة لمناهضة السامية » •

وانطلاقا من وعيه التام لتلافى مساوىء مشروعه الصهيونى ومعاداة

السامية كان يقول لسوف يصبح اللاساميون أوثق أصدقائنا وستكون البلاد اللاسامية حليفتنا •

ثم يقول جارودى :

« ومنذ انشاء دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ لم تعد عنصرية الصهيونية السياسية تكتفى بالعمل على حساب يهود العالم أجمع بل تجاوزت ذلك لتشمل الشعب الفلسطينى الذى تنفى الصهيونية السياسية وجوده أصلا •

ذلك هو البرنامج الموضوع قبل انشاء دولة اسرائيل • أما تحقيقه على الصعيدين السياسى والاقتصادى فيستجيب تماما للتعريف الذى أعطاه الأستاذ اسرائيل شاحاك الأستاذ فى الجامعة العبرية بالقــدس والرئيس السابق للرابطة الاسرائيلية لحقوق الانسان •

ويتحدث جارودى عن أسطورة الديمقراطية فيقول :

« ومن الغريب سماع الدعاية الصهيونية تقول ان دولة اسرائيل هى « الديمقراطية » الوحيدة فى الشرق الأوسط بالاضافة الى زعمها بأن توفر الحرية فيها يصل الى حد تمكن المعارضة من الافصاح عن آرائها فى الصحافة بل وفى الشارع أيضا •

اذا كان صحيحا أن مقاومين بواسل للعنصرية فى دولة اسرائيل كالأستاذ شاحاك والمحامية فليسيا لانجر وعضو الكنيست شولميت آلومى ، ويورى أفنيرى والجنرال بيليه والأستاذ لبيونز وغيرهم • وعددهم قليل مع الأسف فى مجال محاسبة المبادىء الجارى تطبيقها — يتوصلون بعد كفاح بطولى الى نشر آرائهم وشهاداتهم رغم التهديد والوعيد فيجب ألا ننسى أبدا أن الاعضاء عن حريتهم تلك لا يتوافر الا داخل المؤسسة اليهودية لكن هذه الديمقراطية الاسرائيلية تنطوى على تمييز عنصرى فى أساسها كما هو قائم فى جميع البلاد الاستعمارية حيث كان الجنس الأبيض هــو الحاكم •

وينتقل جارودى بعد ذلك الى دراسة الصهيونية « من الاستعمار التقليدى الى الاستيطان » ويطرح تساؤلا هاما عن القانون العنصرى وكيف يتحكم فى الاقامة والزواج فيقول :

التمييز العنصرى المتعلق بالمواطنة ، يمارس أيضا عند حق الاقامة والزواج فهناك مدن بكاملها كالناصرة والكرمل « شمال شرقى حيفا » مقامة فوق أرض مملوكة للصندوق القومى اليهودى • توجد خارج حدود القطاع المخصص لغير اليهود •

العنصرية •• والأرض :

وطابع الصهيونية الاستعمارى والعنصرى لا يتبدى فقط فى معاملات الأحوال الشخصية بل فى عمليات اغتصاب الأراضى •

فكما أن الصهيونية قد أنكرت ورفضت دائما وجـــود الفلسطينيين ابتدعت أسطورة الأرض التى لا يقطنها شعب لشعب لا يملك أرضا — هذه الأرض الصحراوية التى يمكن أن يستنبتها هذا الشعب ويجعلها رياضا غناء الا أنه لم تقم أى معجزة اسرائيلية بل يمكن اســـتغراب السرعة الخاطفة التى تم بها طرد السكان واحلال آخرين مكانهم وكذلك سرعة الاغتصاب الذى أتاح تغيير الأيدى المالكة للأرض فلا معجزة اذن فى خطة منهجية لنزع الملكية ، موضوعة قبل قيام دولة اسرائيل بوقت طويل كأداة أساسية بيد السياسة الاستعمارية للصهيونية السياسية •

فى ١٢ يونيو (حزيران) ١٨٩٥ كتب تيودور هرتزل فى يومياته :

— « علينا التمهل فى اتمام نزع الملكيات الخاصة فى الأراضى العائدة الينا سنحاول تسهيل خروج السكان المحرومين من الموارد باغرائهم بالعمل فى الخارج مع منعهم من العمل داخل بلادنا أما ملاك الأرض فسينضمون الينا وأما اجراءات نزع الملكيات وابعاد الفقراء • فيجب اتمامها بكتمان وتان وحذر » •

ويخلص جارودى من دراسته لجرائم اسرائيل الى أن القدس ذاتها تكون مدينة السلام حقا حينما يحميها العرب لا اسرائيل . ولذلك يكشف عن ادانة الحاخامات للصهيونية فى البداية والضغوط التى أجبرتهم على التراجع فيقول :

« بعد أن رأينا الطرق التى سلكتها الصهيونية لطرد العرب فلننظر الى محاولتها الرامية الى استجلاب اليهود لتوطينهم فى فلسطين ونقول بأنها محاولات لأن عمليتها قد فشلت اذ ليس فى اسرائيل اليوم سوى ١٨ بالمائة من يهود العالم وعدد الخارجين منهم يفوق عدد الداخلين حسبما هو حاصل حاليا وذلك لسبب بين فالصهيونية السياسية كانت قد وعدت بتوفير السلامة لليهود فى اسرائيل الا أن هذه الحجة لم تكن أبدا مقنعة بل هى اليوم أقل اقناعا اذ بعد تتابع الحروب وعجز الساسة الاسرائيليين التام — بسبب عقيدتهم الصهيونية — عن مخالطة شعوب الشرق الأوسط سلميا . لم يعد هناك اليوم بلد فى العالم أجمع غير اسرائيل . تتهدد فيه سلامة اليهود ، نتيجة سياسة اسرائيل ومشاركة جنوب أفريقيا الرامية — فى عصر الانعتاق من الاستعمار — الى استبقاء أبشع أشكال الاستعمار :

وخلافا للأسطورة التى روجتها الصهيونية السياسية فان الدافع الدينى وأقل منه الدافع القومى لم يكن له دور يذكر فى العودة الى فلسطين وليس هذا نتيجة عدم اكتراث بل بالأحرى لأسباب دينية محضة . تتعلق بأسس اليهودية نفسها فى أرفع تعاليمها . فاذا كان صحيحا تعايش تيارين نابعين من التوراة ومن المأثورات الحاخامية وهما : النفخة الروحانية الكونية المتمثلة فى تبشير الرسل بالخلاص الكونى المنتظر . والنزعة القومية الضيقة — كما تتبدى على الأخص فى كتاب « يوشع » حول المذابح والابادة المقدسة أو لدى عـزرا ونحميا فى كتب التمييز العنصرى والحكم الدينى لخدمة التعصب المتطرف — فان الصهيونية تمثل قراءة وحيدة الجانب انتقائية نافخة فى أبواق القومية على حساب سمو اليهودية الروحية باعتبارها دينا سماويا هذا على الرغم من أن هرتزل بالذات أبا الصهيونية السياسية كان ملحدا لا يهتم بالنصوص التوراتية الا فى نطاق امكان تبريرها لسياسته العنيفة .

(جارودى)

وقد أدانت أكثرية الحاخامات الصهيونية السياسية فور بروزها ٠٠ بل أن مؤتمر فيلادلفيا بين ٣ و ٩ نوفمبر ١٨٦٩ أدان فكرتها المبدئية حتى قبل أن يعبر تيودور هرتزل عن نظرياتها المتبجحة ٠ كما توصل هذا المؤتمر الحاخامى الى قرار يؤكد وجود تعارض جذرى بين مبادىء اليهودية الشمولية وبين القومية الصهيونية ٠

لكن هذا لم يكن يعنى انتفاء أى دلالة للقدس لديهم فقول أشعيا « العام القادم فى أورشليم » ،« والمزمور ١٣٦ اذا نسيتك يا أورشليم » هما فى صميم العقيدة اليهودية بيد أنهم يرفضون وضع هذه العقيدة لخدمة سياسة معينة وتخطى الشمولية الكونية نحـــو القومية ٠ انهم يجعلون أورشليم القدس وكما فعل أرميا وأشعيا ـــ مركز الوعد بالخلاص المنتظر الذى سبق المسيحية فى التوجه الى جميع الشعوب ، وفى تبليغ البشر بالعودة الحقيقية لا بعودة طائفة معينة من أرض معينة بل بعودة الأرض بأسرها وبمن عليها من البشر الى الخالق الأزلى الى مملكة الله كما تتبدى فى آيات أشعيا الرفيعة ٠

القدس ورسالات السماء :

بأورشليم القدس ترتبط أسمى أحداث ديانات الوحى الثلاث الكبرى : فقد كان للقدس لدى اليهود والمسيحيين والمسلمين اذن مدلول المركز الرفيع الذى تتبوأه عقيدتهم ويتجهون اليه بالاجلال والتقدير ٠٠ انها بنظر ديانات الوحى الثلاث رمز تجمع البشر جميعا حول ايمان مشترك ٠ ثم يتـوجه معراج النبى محمد صلى الله عليه وسلم وهذا هو سبب اجلال المسلمين لها وسماحهم بحج الناس اليها دون تمييز طوال القرون الأحد عشر التى تولوا خلالها حراستها وخدمتها اذا حسبنا الفترات الزمنية التى سيطر فيها على القدس الصليبيون والاسرائيليون ٠

لقد كان أول اجراء قام به صلاح الدين بعد تحريره القدس هو اعادة فتح أبوابها لليهود ولكل النصارى ، بينما كان الصليبيون قد قتلوا فيها أو طردوا منها اليهود والمسيحيين الأرثوذكس والمسلمين ٠ كان

الصليبيون يشكلون صهيونية مسيحية كما تشكل الصهيونية السياسية اليوم صليبية يهودية ، وفى الحالتين فساد فى الروحانية ، وضلال فى العقيدة — كما أثبت ذلك الحاخام عمانوئيل ليفين فى كتابه الصهيونية ضد اليهودية المنشور فى باريس عام ١٩٦٩ .

المخطط الصهيونى لتفتيت العالم العربى :

ويكشف جارودى عن المخطط الصهيونى لتفتيت العالم العربى طائفيا وسياسيا فيقول :

« بغزو لبنان أصبح الكذب فاضحا ، الى الحد الذى صعب معه عدم تبين الحقيقة وفظاعتها ، رغم كل محاولات الصحافة والتلفزيون فى تمويه الأمور والتخفيف من حدتها وكانت أولى الحجج التى أبديت تبريرا للاعتداء على لبنان هى محاولة اغتيال السفير الاسرائيلى فى لنـــدن والملصقة بمنظمة التحرير الفلسطينية على الفور وعلى أثر اعتقال الفاعلين والتحقيق معهم كشفت رئيسة الوزراء مارجريت تاتشر عن ملابسات الحادث ، فقالت « فى القائمة التى وجدت مع الفاعلين والمتضمنة لأسماء أشخاص ينتوى هؤلاء قتلهم ورد اسم المسئول عن مكتب منظمة التحرير الفلسطينية فى لندن مما يثبت أن المهاجمين غير مدفوعين من قبل المنظمة الفلسطينية ، كما زعمت اسرائيل » ويضيف جارودى : « وفى اعتقادى أن الهجوم الاسرائيلى على لبنان ليس انتقاما لمحاولة اغتيال السفير .. هذه التى وجد الاسرائيليون فيها حجة لخوض حرب جديدة ، هذا التكذيب للدعاية الاسرائيلية مر فى فرنسا مرورا خاطفا بينما هو قد ألغى أسطورة « الدفاع الشرعى عن النفس » التى استخدمت كمبرر لذلك العدوان الجديد .

وعلى بعد مائتى متر من مقر القيادة العسكرية الاسرائيلية فى بيروت وتحت أنظارها ، وتحت ضياء قنابلها المضيئة ليلا ، قام « أعوان » المحتل الاسرائيلى بمجزرة جماعية استمرت ثلاثة أيام تم فيها ذبح أولئك الذين

كان الزعماء الاسرائيليون يهدفون الى ابادتهم ولخص بيجين الموضوع كله بجملة واحدة « غير يهود قد قتلوا غير يهود » •

وهذا ليس سوى ظاهر القصة التى ينبغى النظر الى مضمونها كمرحلة بين كثير من مراحل تحقيق مشروع الصهيونية السياسية « اسرائيل الكبرى » •

وللاقتناع بعدم علاقة غزو لبنان بمحاولة الاغتيال فى لندن ، ولا بأى تهديد لأمن الجليل ، يكفى وضع الهدف اللبنانى فى موقعه من منظور المشروع الصهيونى « اسرائيل الكبرى » •

خطة بن جوريون :

ففى وقت لم يهاجم خلاله أى دبلوماسى اسرائيلى ، ولم تكن منظمة التحرير الفلسطينية موجودة أصلا • ولم يهدد أى ارهاب أمن الجليل ، كان ذكر غزو لبنان واردا فى البرنامج الزمنى لعمليات ضم الأراضى الى اسرائيل ، اذ كتب بن جوريون فى (يومياته) بتاريخ ١٩٤٨/٥/٢١ ، ما يلى :

« يشكل لبنان نقطة الضعف فى التكاتف العربى •• فالتفوق العددى الاسلامى فيه مصطنع ، ويمكن التقليل من شأنه بسهولة ، ويجب أن تنشأ فيه دولة مسيحية تكون حدودها الجنوبية عند نهر الليطانى • ونعقد معها معاهدة تحالف ومن ثم حينما نكون قد حطمنا القوة العسكرية العربية ، وضربنا عمان بالقنابل ، سنمشط شرقى الأردن لتسقط سوريا بعد ذلك •

ولو تجرأت مصر وحاربتنا فستقصف بورسعيد والاسكندرية والقاهرة بالقنابل وهكذا ننهى الحرب وننتقم لأجدادنا من مصر وآشور والكلدانيين » •

وهنا يتحقق المرء على ضوء الأحداث الراهنة ، كم يمكن للهلوسة الميثولوجية لدى صهيونية متعجرفة ؛ أن تدفع بآلاف المخلوقات الحية الى سفك الدماء وذرف الدموع •

خطــــة ديان !

وقبل توافر مبررات الهجوم على لبنان بوقت طويل ، أدخل موشى ديان بعض التحسينات على « السيناريو » الذى وضعه بن جوريون لغزو لبنان ففى عام ١٩٥٤ ، يوم لم تكن للضابط سعد حداد ـــ هذه الدموية بيد بيجين سوى صـــبى صغير •• يطالعنا موشى ديان بالخطة التالية المنشورة فى « يوميات » موشى شاريت أحد رؤساء الوزارة الاسرائيلية السابقين وبتاريخ ١٦/٦/١٩٥٥ ، حيث يقول شاريت :

« وفقا لديان ، فالأمر الضرورى الوحيد هو العثور على ضابط صغير الرتبة أما أن نتوصل الى اقناعه أو أن نشتريه بالمال ، من أجل أن يقبل اعلان نفسه منقذا للسكان الموارنة (المسيحيين) • وعندئذ يدخل الجيش الاسرائيلى لبنان فيحتل المنطقة اللازمة ويقيم نظاما مسيحيا يكون حليفا لاسرائيل • أما المنطقة الواقعة جنوبى نهر الليطانى فتضم نهائيا لاسرائيل ـــ وبعد بضعة أيام من يومياته يكتب شاريت هذه الملاحظة :

ـــ « استحسن رئيس هيئة أركان الحرب فكرة شراء ضابط (لبنانى) يقبل أن يكون دمية بيدنا ، بطريقة تجعل الجيش الاسرائيلى يبدو وكأنه يستجيب لنداء من أجل تحرير لبنان من مضطهديه المسلمين •

وكما هو معتاد ، بعد كل تصعيد للموقف ، ينادى الزعماء الاسرائيليون بوجوب المضى بعيدا من أجل تحقيق الخطة البعيدة المدى المعتمدة من الصهيونية السياسية وها هو أرييل شارون ، يرى « بأننا لم نقم بعد ، الا بجزء يسير من العمل » •

الحرب تمهيد للحرب :

وينطبق على هذه الحرب ، كما يبدو على غيرها من حروب الصهيونية ، ما قاله البروفسور « ليبوفتز » فى مؤتمره الصحفى يوم ١٤/٦/١٩٨٢ ، من أن الهدف من هذه الحرب هو التحضير للحرب التى تليها .

ويحدث كل هذا ، فى الواقع كما لو أن القادة الصهيونيين يطبقون حرفيا ما جاء فى كتاب يوشع « كل مكان يطؤه اخمص أقدامكم . أعطيه لكم » .

انه مفهوم « اسرائيل الكبرى » هدف الصهيونية السياسية الدائم ، ما يعنيه قائد الاحتياط الجنرال جازيت ، الرئيس الحالى لجامعة بن جوريون فى بير سبع وهو يستعرض الغايات الجوهرية الكامنة وراء الأزمة الاسرائيلية العربية .

والموضوع الصهيونى ، الذى نستشرف هنا نتائجه القصية — بينما يدل النص على أن الزعماء الصهاينة يتعمدون مواجهته بمنطق عقيدتهم وهذيانهم — هذا المشروع لا تقتصر علاقته على جزء محدود من العالم بل هو يهدد جميع الشعوب .. وتطلعاته الاستعلائية تمثل خطورة فعلية لأن الدولة الصهيونية قد حققت حتى الآن كل ما كانت تعلن عن اعتزامها تحقيقه مستقبلا .

وفيما يلى دون جارودى من ذلك المقال الصادر عن « المنظمة الصهيونية الدولية » الفقرات الأكثر دلالة .. والكاشفة عن الأبعاد التى يتصل بها حلم الصهيونية السياسية القديم بـ « اسرائيل الكبرى » .

— « استرداد سيناء بمواردها الحالية ، هو هدف أولى لا تزال اتفاقات « كامب ديفيد » ومعاهدات السلام تقف حائلا دون الوصول اليه . وباعتبارنا محرومين من موارد شبه جزيرة سيناء ملزمين ببذل نفقات باهظة فى هذا المجال فمن المحتم أن نعمل على استعادة الوضع الذى كان

سائدا فى سيناء قبل زيارة السادات • والاتفاق التعس المعقود معه عام ١٩٧٩ •

« ان وضع مصر الاقتصادى ، وطبيعة نظامها وسياستها العربية قنوات تصب فى مجرى واحد يستدعى من أسرائيل مواجهته ••

واذا استطاعت مصر الاستفادة — فى المستقبل المنظور — من استعادتها لسيناء ، فان ذلك لن يغير فى ميزان القوى •• ولذا يجب أن يكون تقسيمها الى أقاليم جغرافية متمايزة هدفنا السياسى فى التسعينات « على الجبهة الغربية » وعندما تصبح مصر مجزأة هكذا ومحرومة من السلطة المركزية يتفكك كيان دول مثل ليبيا والسودان وغيرهما • ان تشكيل دولة قبطية فى أعالى مصر وكيانات اقليمية ضعيفة الأهمية هو فاتحة تطور تاريخى يؤخره حاليا اتفاق السلام ولكنه محتم على المدى الطويل •

« ورغم الظواهر فالمشكلات الكامنة فى الجبهة الغربية تقل كثيرا عن مثيلتها فى الجبهة الشرقية وتقسيم لبنان الى خمسة أقاليم يصور مسبقا ما سيحدث فى مختلف أرجاء العالم العربى • وانشطار سوريا والعراق الى مناطق محددة على أساس المعايير السكانية أو الدينية • يجب أن يكون — على المدى البعيد هدفا أوليا لاسرائيل • علما بأن المرحلة الأولى منه تتمثل فى تحطيم القوة العسكرية لدى هاتين الدولتين •

« ان البِنَى السكانية لسوريا تعرضها لتفكك يمكن أن يؤدى الى خلق دولة شيعية على طول الساحل الغربى ودولة سنية فى منطقة حلب ، وأخرى فى دمشق وكيان درزى يمكن أن يطمح الى تشكيل دولة خاصة به — ربما فوق أرضنا بالجولان — وعلى كل حال •• فان دولة كهذه من شأنها أن تكون — على المدى البعيد — ضمانا للسلام والأمان فى المنطقة وتحقيق هدف كهذا فى متناول يدنا •

« والعراق — الغنى بنفطه ، والفريسة للصراعات الداخلية — هو فى

مرمى التسديد الاسرائيلى » وانحلاله سيكون — بالنسبة الينا — أهم من انحلال سوريا لأن العراق يمثل أقوى تهديد لاسرائيل فى المدى المنظور واندلاع حرب بينه وبين سوريا يسهل انهياره الداخلى • قبل أن يتمكن من توجيه حملة واسعة النطاق ضدنا علما بأن كل مواجهة بين عرب وعرب ستكون مفيدة لنا وتقرب ساعة الانفجار المنتظر •• ومن الممكن أن تعجل الحرب الحالية مع ايران بحلول تلك الساعة •

« وتعتبر المملكة الأردنية هدفا استراتيجيا فى الوقت الحاضر •• بينما هى لن تشكل — فى المدى البعيد — تهديدا لنا بعد تفككها ونهاية حكم الحسين وانتقال السلطة الى يد الأكثرية الفلسطينية وهو ما ينبغى على السياسة الاسرائيلية أن تتطلع اليه فهذا التغيير يعنى حل مشكلة الضفة الغربية ذات الكثافة الشديدة من السكان العرب اذ أن هجرة هؤلاء العرب الى الشرق سلما أو حربا وتجميد نموهم الاقتصادى السكانى هما الضمانة للتحويلات القادمة وعلينا بذل كل الجهود من أجل الاسراع بهذا المسار •

ويضيف تقرير المنظمة الصهيونية الدولية قائلا : يجب استبعاد خطة الحكم الذاتى وكل خطة تستتبع تسوية أو مشاركة فى التعايش • تقف حائلا دون انفصال الشعبين : أو الشرط الأساسى لتعايش سلمى حقيقى •

« على العرب الاسرائيليين — ضمنا الفلسطينيين — أن يدركوا أنهم لن يستطيعوا اكتساب وطن الا فى المملكة الأردنية •• ولن يعرفوا الأمان الا باعترافهم بالسيادة اليهودية فيما بين البحر المتوسط ونهر الأردن •

« وفى عصر الذرة هذا لم يعد ممكنا قبول تراحم ثلاثة أرباع السكان اليهود داخل منظمة ساحلية مكتظة بأهليها ومعرضة لتقلبات الطبيعة ، لذا فان توزيع انتشار هؤلاء السكان هو من أول واجبات سياستنا الداخلية فيهودا والسامرة والجليل هى الضمانات الوحيدة لبقائنا الوطنى • واذا لم نصبح الأكثرية فى المناطق الجبلية فيخشى أن يحل بنا مصير الصليبيين الذين فقدوا هذه البلاد كما أن اعادة التوازن الى المنطقة على الصعيد السكانى والاستراتيجى والاقتصادى يجب أن تكون مطمحا رئيسيا لنا •

وهذا ينطوى على ضرورة السيطرة على الموارد المائية فى المنطقة الواقعة بين بئر السبع والجليل الأعلى • والخالية من اليهود حاليا •

ويعقب جارودى على ما سبق من مقال المنظمة الدولية الصهيونية قائلا :

« ومشروع الصهيونية هذا ، الاستعمارى العنصرى ، المنطوى على طرد الفلسطينيين واغتصاب حقوقهم وابعادهم تم على سلسلة من الحروب العدوانية فى الشرق الأدنى وأخيرا على تفتيت كيان الدول العربية جمعاء ، بات يشكل تهديداً للسلام العالمى •

وبما بدا من المفارقات أن بلدا قليل المساحة محدود السكان كهذا يمكن أن يؤدى دورا بالغ الأهمية على مسرح السياسية الدولية •

لتفهم ذلك لا يكفى التنويه بموقعه الاستراتيجى •• رغم اتسامه بالأهمية البالغة عند مفترق طرق القارات الثلاث •• وحاييم وايزمن كان على صواب حينما أكد أمام مفاوضيه البريطانيين أن « الدولة اليهودية فى فلسطين ستكون درعا واقية لانجلترا وخاصة فيما يتعلق بقناة السويس » •

والواقع أن بيد اسرائيل مفاتيح أكبر طريق تجارى وعسكرى للغرب نحو الشرق واذا كان هذا لم يعد اليوم لحساب بريطانيا — نظرا لانتقال الهيمنة الدولية فهو لحساب الولايات المتحدة الأمريكية وقد أصبح لدور اسرائيل كشرطى فى الشرق الأوسط مزيد من الضرورة بالنسبة للولايات الأمريكية منذ أن تعذر اعتمادها على قواعدها فى ايران « بعد انقلاب نظام الشاه » فاسرائيل وحدها ، تستطيع السيطرة اذن ليس فقط على السويس وعلى المنطقة النفطية ، كما تستطيع توفير قواعد مأمونة فى شرقى البحر الأبيض المتوسط وهذه مهمات لا تستطيع الولايات المتحدة بمفردها أن تنجزها » فتجربة فيتنام قد صدمتها بشأن تدخلها المباشر فى شئون العالم الثالث •

وقد حصل الجيش الاسرائيلى على معظم تجهيزاته العسكرية بموجب برنامج المساعدات العسكرية الأمريكية للخارج البرنامج الذى أعطى اسرائيل (١٥) مليار دولار — من أصل (٢٨) مليار وزعت على العالم منذ عام ١٩٥١ ٠

وبين الـ (٥٦٧) طائرة التى كانت بحوزة اسرائيل عشية غزو لبنان ٠ فهناك (٤٥٧) مشتراه من الولايات المتحدة الأمريكية بفضل المنح والقروض المقدمة من حكومة واشنطن ٠

ان التعاون الوثيق القائم بين القوات المسلحة وبين مصانع السلاح ، فى كلا — البادين يجعل من المستبعد والمكروه شعبيا كل مشروع للاقتصاص الأمريكى من اسرائيل ويتلقى « البنتاجون » من اسرائيل معلومات حول خصائص السلاح الذى تتلقاه ولم يجرب الجيش الأمريكى البعض منه بعد ٠٠ كما سيكون الحال بالنسبة لطائرة الاستكشاف (هوكى) التى استخدمت فى المرحلة الأولى من حرب لبنان ، ضد الأهداف البعيدة فى العمق السورى ٠

وهكذا يستطيع الجيش الأمريكى تجربة أدق أسلحته الهجومية بواسطة جيش آخر هو أشد فعالية من أى فرقة أمريكية منقوله » ٠

ومما تقدم يتبين لنا أن جارودى قد استطاع أن يكشف أكاذيب الصهيونية وأضاليلها بمنهج موضوعى يعتمد على الوثائق والأدلة والبراهين التى تجعل العالم بعامة والعالم العربى بخاصة مطالبا بالاستعداد لمواجهة هذا المخطط الصهيونى الارهابى الذى يستهدف تدمير الانسانية ٠

الباب الخامس

الاســـــلام هو الحل الوحيــد

فى محاضرته التاريخية بالأزهر الشريف وقف المفكر الفرنسى الكبير جارودى يطرح رؤيا عميقة لمسيرة الانسانية ، قال : « ان المنهاج الغربى الحضارى حقق فشلا تاريخيا ذريعا .. وان الاسلام وحده بين بقية الأديان ، هو القادر على منح الأمل من جديد لكافة المجتمعات الغربية التى فككها النظام التكنوقراطى للحضارة » .

وهذه النتيجة الهامة التى توصل اليها جارودى عبر رحلته الفكرية . والتى تمثلت الحضارات الانسانية تمثلا نقديا ، تؤكد الفهم العميق لطبيعة الاسلام كمنهج للحياة ، له تصوره الشامل لحقيقة الوجود ، والانسان ، ومركزه فى هذا الكون وغايته من وجوده .

ولذلك تخطى بالتجاوز وبالنقد ما يذهب اليه المحدثون من أصحاب المذاهب والنظريات والفلسفات الاجتماعية ، من أنهم انما يقـــررون « عقائد » يريدون احلالها محل العقيدة الدينية . « فالشيوعية ليست مجرد نظام اجتماعى .. انما هى كذلك تصور اعتقادى .. تصور يقوم على أساس مادية هذا الكون ووجود المتناقضات فى هذه المادية .. هذه المتناقضات المؤدية الى كل التطورات والانقلابات فيه . وهو ما يعبر عنه بالمادية الجدلية .

كما يقوم على التفسير الاقتصادى للتاريخ ورد التطورات فى الحياة البشرية الى تطور أداة الانتاج .. الخ . ومن ثم فهى ليست مجرد نظام اجتماعى ؛ انما هى تصور اعتقادى يقوم عليه — أو يدعى أنه يقوم عليه — نظام

اجتماعى •• وذلك بغض النظر عما بين أصل التصور وحقيقية النظام الذى يقدم الآن من غجوات ضخام (١) •

ويذهب الأستاذ سيد قطب رحمه الله ، الى أن الشخصية الانسانية « وحدة » واحدة فى طبيعتها وكينونتها • وحدة تؤدى كل وظائفها كوحدة •

وهى لا تستقيم فى حركتها ولا تتناسق خطواتها الا حين يحكمها منهج واحد منبثق فى أصله من تصور واحد •• وحين تحكم ضمير الانسان ووجدانه شريعة ، ثم تحكم واقعة نشاطه شريعة •• وكل من هذه وتلك ينبتق من تصور مختلف •• هذه من تصور البشر •• وتلك من وحى الله •• فان شخصيته تصاب بما يشبه داء الفصام « شيزوفرنيا » ويقع فريسة لهذا التمزق بين واقعه الشعورى الوجدانى •• وواقعه الحركى العملى ويصيبه القلق والحيرة •• كما نشاهد اليوم فى أرقى البــلاد الأوربية والأمريكية ، ثمرة للصراع بين بقايا الوجدان الدينى الذابلة وواقع الحياة العملية ، القائم على تصورات وقيم لا علاقة لها بالوجدان الدينى •• ودلك بعد « الفصام النكد » الذى وقع هناك بين الدين والحياة . وكانت له أسبابه الخاصة فى تاريخ النصرانية (٢) •

ـــ وما يسميه جارودى « بالفشل التاريخى » للمنهاج الخاص بالتنمية من جهة ، وللمنهاج الغربى الحضارى من جهة أخرى ، انما يعكس هذا « الفصام النكد » الذى كانت له آثاره المدمرة فى أوربا ثم فى الأرض كلها « حين طغت التصورات الغربية والأنظمة الغــربية ، والأوضاع الغربية ، على البشرية كلها فى مشارق الأرض ومغاربها • ولم يكن بد ـــ وقد انفصلت حياة الخلايق عن منهج الخالق ـــ وأن تسير فى هذا الطريق البائس ، وأن تنتهى الى هذه النهاية التعيسة وأن تحيط بالبشر الدائرة التى يتعذبون الآن فى داخلها ويذوق بعضهم بأس بعض ، بينما هم عاجزون عن معرفة طريق الخلاص منها •• وهم يصطرعون فيها (٣) •

(١) سيد قطب : المستقبل لهذا الدين ، ص ١٤ •
(٢) سيد قطب : المرجع نفسه ، ص ١٧ •
(٣) نفسه ، ص ٢٥ •

من أجل ذلك يعلن جارودى على مسمع من الدنيا كلها أن الاسلام هو الحل الوحيد (١) •• اذ يقول : « الاسلام اليوم هو الدين الوحيد بين كل الأديان والنبوءات الذى ما زال فى حالة تقدم مستمر •• فهو وان أصابه الضعف ربما فى القرن الثامن فى أسبانيا الا أنه ما زال ينتشر منذ هذا الوقت فى آسيا وفى الهند وفى أندونيسيا بل انه فى أماكن أبعد من هذا فى ماليزيا وتايلاند والصين وكوريا واليابان وفى الفترة التى وقف فيها الزعيم الراحل جمال عبد الناصر فى مواجهة الغرب حدث فى أفريقيا السوداء تدهور فى المسيحية صاحبه اندحار فى الاستعمار وبتحرر كثير من الدول أصبحت القارة الأفريقية بأكملها فى سبيلها لأن تكون قارة اسلامية •

وكما وصلت الموجة أيضا فى أمريكا عند زنوج القارة الجديدة وفى آسيا الوسطى •• وهكذا فان هناك صورة جديدة للاسلام قد بدأت فى الظهور تكمل نهضته وتفتحه حتى داخل البلاد التى تسودها الضغوط السوفيتية •

وعندما تنفجر هذه الآفاق سيظهر للعالم أجمع أن الاسلام يستطيع مواجهة تحديات القرن كما استجاب فى الماضى لمتطلبات قارات ثلاث (٢) •

ثم يتحدث جارودى عن « الفصام النكد » بين الدين والحياة فى أوربا ومن تبعها ، يقول :

« منذ قرون خمسة يسيطر الغرب •• أى يسيطر على العالم بدون أى شريك وقد فرض الغرب نموذجه للتنمية ومنهجه الثقافى أيضا — ويتطلب نموذجه للتنمية أن تنهب كل الثروات المادية والانسانية التى تمتلكها كل الشعوب لفائدة الغرب وحده أى يعادل خمس سكان الكرة الأرضية فقط • ولذلك فالغرب ينتج أى شىء وبكميات كبيرة وفى وقت سريع سواء أكانت

---

(١) محاضرة جارودى بالأزهر الشريف ١٩٨٢ ترجمة الدكتورة رجاء ياقوت •

(٢) جارودى : السابق •

حاجة مفيدة أم مؤذية أو حتى سيئة كالأسلحة المدمرة التى تعد بحق سوقا لا ينضب معينه أبدا • ويمثل ذلك فى أجلى صورة هذا النموذج المخيف في التنمية وصفته الانتحارية • اذ أنه فى عام ١٩٨٢ فقط صرفت ٦٥٠ مليارا من الدولارات لأغراض حربية أى أنه لكل فرد فى هذه المعمورة ما يوازى أربعة أطنان من المتفجرات التقليدية • وهكذا أصبح من الممكن فنيا ولأول مرة فى تاريخ الانسانية منذ ثلاثة ملايين من السنوات ، هدم كل آثر للحياة فى هذه الأرض •

وفى نفس العام سنة ١٩٨٢ حسب التعداد الذى قدمته هيئة الأمم المتحدة فهناك خمسون مليون نسمة في العالم ماتوا جوعا أو بسبب سوء التغذية • ولا يمكننا أن نتخيل صورة أبشع من هذه الصورة التى وصلت اليها الكرة الأرضية بعد خمسة قرون من « التقدم » كما يجرؤون على تسمية هذه الفترة فى الغرب » •

ويخلص جارودى من ذلك الى اتسام المنهاج الخاص بالتنمية والمنهاج الغربى الحضارى بما يسميه « الفشل التاريخى » فالحضارة الغربية على حد تعبيره — تعتبر « نفسها وقد بنيت من تراثين اثنين : التراث اليهودى — المسيحى من ناحية والتراث اليونانى الرومانى من ناحية أخرى هذان التراثان قد أكسباه هذه السمة التى يطلقون عليها لقب « الانسانية » وهى اتجاه علمي يجعل من الانسان كفرد مركزا ومقياسا لكل من على البسيطة وهذه الفكرة ترجع الى الفلسفة الأفلاطونية التى تفرق بين المادة والروح وتجعل من الجسد سجنا للروح » •

ويضيف جارودى الى هذا الميراث أن « فلسفة أرسطو أكسبت الأوربيين نظرة غريبة للعالم وكأنه عالم قوى تسود فيه العقلانية وكذلك احلام البشر بالتفوق والتحكم فى الطبيعة وفى البشرية جمعاء •• وهكذا يدوم اللبس بين الفردية البورجوازية والشخصية المسيحية •• بين عقلانية اليونانيين من جهة والوضعية من جهة أخرى بين العلم والقضية بين السياسة والماكيافيللية •• أى بين سيادة الأساليب واغفال البحث عن

الأغراض والغايات » • وهكذا يخلل جارودى بعمق عناصر الفصام النكد فى الحضارة الأوربية ، وميراث هذه العناصر ، حيث نجد التناقض والفصام مثلا واضحا فى الجمع بين التراثين اليهودى والمسيحى ونحن نعلم أن اليهود لم يقبلوا رسالة المسيح عليه السلام ولم يقبلوا منه التخفيف الذى جاءهم به من عند الله • وهو يقول لهـم كما جاء فى القرآن الكريم •

(ومصدقا لما بين يدى من التوراة ؛ ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون) •

« آل عمران : ٥٠ »

ومن ثم قاوموا المسيح — عليه السلام — وقاوموا دعوته الى « السماحة والتطهر الروحى ، والتخفف من المراسم الشكلية التى لا رصيد لها من تقوى القلوب وانتهى بهم الأمر الى اغراء « بيلاطس » الحاكم الرومانى على أرض الشام يومئذ بمحاولة قتل المسيح — عليه السلام وصلبه — لولا أن توفاه الله ورفعه اليه سبحانه وتعالى (١) •

« وأيا ما كان الأمر ، فقد سارت الأمور بعد ذلك بين اليهود وأتباع عيسى — عليه السلام — سيرتها البائسة • فبذرت بذور الحقد على اليهود فى نفـوس الذين صـاروا نصارى • كما بذرت بذور الكره فى نفوس اليهود على هؤلاء وانتهت بانفصال أتباع المسيح عن اليهود ، وانفصال النصرانية عن اليهودية •

ولقد كان من نصيب « بولس » — الذى لم ير المسـيح — عليه السلام وانما دخل النصرانية عن الوثنية الرومانية — أن يتولى نشر النصرانية فى أوروبا • مطعمة بما رسب فى تصوراته من الوثنية الرومانية والفلسفة الاغريقية وكانت هذه كارثة على النصرانية منذ أيامها الأولى

---

(١) سيد قطب : السابق ، ص ٢٦ •

فى أوروبا .. فوق ما لحق بها من تحريف فى فترة الاضطهاد الأولى . فترة تناقل الروايات فى ظروف لا تسمح بتمحيصها ولا تحقيقها .

« وكتب بولس رسائله بعد ذلك — بعد القرن الأول الميلادى — وهى شاهد على امتزاج الأمثلة الدينية بصورة الفلسفة — ولا سيما فلسفة الحلول — وكان يقول : ان المسيح جالس على يمين الله . ويدعو لمن يطلب لهم الخير « أن تسكن فيهم كلمته » ويسأل لهم الغفران منه . ويبشرهم بأنهم سيبلغون المجد متى عاد الى الأرض ويبدو من جملة كلامه أنه كان ينتظر معاده فى زمن قريب . وكثيرا ما أشار اليه — صلوات الله عليه — باسم : « ربنا يسوع المسيح » وسمى نفسه باسم : « رسول يسوع المسيح بحسب أمر الله مخلصنا وربنا يسوع المسيح » (١) .

ويقول سيد قطب « ولكن الكارثة العظمى كانت فى الحدث الذى تم بعد ذلك . وكان ظاهره انتصار النصرانية . وهو دخول الامبراطور الرومانى « قسطنطين » فى النصرانية واستطاعة الحزب النصرانى أن يصبح هو الحزب الحاكم سنة ٣٥٥ م » .

ويصف درابر الأمريكى فى كتابه « الدين والعلم » هذا الحادث وآثاره النكدة يقول :

« دخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين . الذين تقلدوا وظائف خطيرة . ومناصب عاليـة فى الدولة الروميـة . بتظـاهرهم بالنصرانية ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين — ولم يخلصوا له يوما من الأيام .. وكذلك كان « قسطنطين » .. فقد قضى عمـره فى الظـلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية الا قليلا فى آخر عمره (سنة ٣٣٧ م) .

ان الجماعة النصرانية وان كانت قد بلغت من القـوة بحيث ولت

---

(١) ص ١٦٩ من كتاب « الله » للأستاذ عباس محمود العقاد .

قسطنطين الملك ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها . ونشأ من ذلك دين جديد . تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء .. هنالك يختلف الاســلام عن النصرانية . اذ قضى على منافسه « الوثنية » قضاء باتا ، ونشر عقائده خالصة بغير غش ..

« وان هذا الامبراطور الذى كان عبدا للدنيا ، والذى لم تكن عقائده الدينية تساوى شيئا رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبين المتنافسين. النصرانى والوثنى — أن يوحدهما ويؤلف بينهما : حتى أن النصارى الراسخين أيضا لم ينكروا عليه هذه الخطة . ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر اذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة . وسيخلص الدين النصرانى عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها » (١)

يقول « ألفرد بتلر » فى كتابه : « فتح العرب لمصر « ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد » :

« ان ذينك القرنين — الخامس والسادس — كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين . نضال يذكيه اختلاف فى الجنس واختلاف فى الدين — وكان اختلاف الدين أشد من اختلاف الجنس اذ كانت علة العلل فى ذلك الوقت تلك العداوة بين « الملكانية » و « المونوفيسية » وكانت الطائفة الأولى — كما يدل عليه اسمها — حزب مذهب الدولة الامبراطورية وحزب الملك والبلاد . وكانت تعتقد العقيــدة الثنــائية الموروثة — وهى ازدواج طبيعة المسيح — على حين أن الطائفة الأخرى وهى حزب القبط المنوفبســيين — أهــل مصر — كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها ، وتحاربها حربا عنيفة . فى حماسة هوجاء ، يصعب علينا أن نتصورها ، أو نعرف كنهها فى قوم يعقــلون ، بله يؤمنــون بالانجيل » .

---

(١) انظر كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للسيد ابى الحسن الندوى .

ويقول « ت. و. أرنولد » فى كتاب : « الدعوة الى الاسلام » ترجمة حسن ابراهيم وزميليه ، عن هذا الخلاف الطائفى السياسى العنصرى وآثاره فى الابتداعات والاضافات والتعديلات فى النصرانية :

« ... ولقد أفلح « جستنيان » قبل الفتح الاسلامى بمئة عام فى أن يكسب الامبراطورية الرومانية مظهرا من مظاهر الوحدة . ولكن سرعان ما تصدعت بعد موته . وأصبحت فى حاجة ماسة الى شعور قوى مشترك يربط الولايات وحاضرة الدولة .

أما « هرقل » فقد بذل جهودا لم تصادف نجاحا كاملا فى اعادة ربط الشام بالحكومة المركزية . ولكن ما اتخذه من وسائل عامة فى سبيل التوفيق قد أدى — لسوء الحظ — الى زيادة الانقسام بدلا من القضاء عليه . ولم يكن ثمة ما يقوم مقام الشعور بالقومية سوى العواطف الدينية . فحاول بتفسيره العقيدة تفسيرا يستعين به على تهدئة النفوس أن يوقف ما يمكن أن يشجر بعد ذلك بين الطوائف المتناحرة من خصومات وأن يوحد بين الخارجين على الدين وبين الكنيسة الأرثوذكسية وبينهم وبين الحكومة المركزية .

« وكان مجمع خلقيدونية قد أعلن فى سنة ٤٥١ ميلادية أن المسيح ينبغى أن يُعترف بأنه يتمثل فى طبيعتين ، لا اختلاط بينهما » ولا تغير ولا تجزؤ ولا انفصال . ولا يمكن أن ينتفى خلافهما بسبب اتحادهما . بل الأحرى أن تحتفظ كل طبيعة منهما بخصائصها » وتجتمع فى أقنوم واحد ، وجسد واحد لا كما لو كانت متجزئة أو منفصلة فى أقنومين بل متجمعة فى أقنوم واحد : هو ذلك الابن والله والكلمة ..

« وقد رفض اليعاقبة هذا المجمع ، وكانوا لا يعترفون فى المسيح الا بطبيعة واحدة . وقالوا : انه مركب الأقانيم . له كل الصفات الالهية والبشرية . ولكن المادة التى تحمل هذه الصفات لم تعد ثنائية بل أصبحت وحدة مركبة الأقانيم ..

« وكان الجدل قد احتـدم قـرابة قرنين من الزمان بين طائفـة الأرثوذكس وبين اليعاقبة الذين ازدهروا بوجه خاص فى مصر والشام والبلاد الخارجة عن نطاق الامبراطورية البيزنطية . فى الوقت الذى سعي فيه هرقل فى اصلاح ذات البين عن طريق المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة .. ففى الوقت الذى نجد فيه هذا المذهب يعترف بوجود الطبيعتين اذا به يتمسك بوحده الأقنوم فى حياة المسيح البشرية ، وذلك بانكاره وجود نوعين من الحياة فى أقنوم واحد . — فالمسيح الواحد — الذي هو ابن الله — يحقق الجانب الانسانى والجانب الالهى بقوة الهية انسانية واحدة . ومعنى هذا أنه لا يوجد سوى ارادة واحدة فى الكلمة المتجسدة ..

« لكن هرقل قد لقى المصير الذى انتهى اليه كثيرون جدا ممن كانوا يأملون أن يقيموا دعائم السلام . ذلك أن الجدل لم يحتدم مرة أخرى كأعنف ما يكون فحسب ، بل ان هرقل نفسه قد وصم بالالحاد ، وجر على نفسه سخط الطائفتين على السواء (١) » .

ويذهب سيد قطب الى (٢) أن هذه الملابسات السيئة التى عاجلت النصرانية فى بدء نشأتها أولا ، ثم عند انتصارها السياسى على ذلك النحو ثانيا ، ثم ما تلا ذلك الانتصار من خلافات سياسـية وعنصرية وتحريفات وتعديلات فى العقيدة بسببها ثالثا ..

« كل أولئك قد ملأ التصور الاعتقادي فيها بعناصر غريبة كل الغرابه على طبيعتها ، وعلى طبيعة « الدين الالهى » كله .. ومن ثم لم يعد التصور النصراني كما صنعته التحريفات المتوالية أولا ثم كما صاغته المجامع المقدسة العامة والخاصة أخيرا (٣) — قادرا على أن يعطى التفسير الالهى للوجود وحقيقته ، وحقيقة صلته بخالقه . وحقيقة هذا الخالق

---

(١) ص ٥٢ — ٥٣ من الترجمة العربية .
(٢) سيد قطب السابق ص ٢٩ — ٤٦ .
(٣) يراجع بالتفصيل كتاب محاضرات فى النصرانية للأستاذ محمـد محمد أبو زهرة .

وصفاته ، وحقيقة الوجود الانسانى وغايته وطريقه •• هذه المقومات التى لابد أن تصح حتى يصح النظام الاجتماعى الذى ينبثق منها ، ويقوم بعد ذلك عليها •

« غير أن الأمر لم يقف عند فساد التصور الاعتقادى على هذا النحو بل مضت الملابسات النكدة فى طريقها خطوات أخرى عاثرة •

لقد أرادت الكنيسة أن تقف فى وجه الترف الرومانى ، والسعار الشهوانى الذى كانت الامبراطورية الرومانية قد انتهت اليه ، قبل دخولها فى النصرانية والذى يصفه درابر الأمريكى فى كتابه : « الدين والعلم » بقوله :

« لما بلغت الدولة الرومية فى القوة الحربية والنفوذ السياسى أوجها ووصلت الحضارة الى أقصى الدرجات •• هبطت فى فساد الأخلاق • وفى الانحطاط فى الدين والتهذيب الى أسفل الدركات •• بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا الى الأرض واستهتروا استهتارا ، وكان مبدؤهم أن الحياة انما هى فرصة للتمتع ينتقل فيها الانسان من نعيم الى ترف • ومن لهو الى لذة ولم يكن زهدهم وصومهم فى بعض الأحيان الا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم الا ليطول عمر اللذة !! كانت موائدهم تزهو بأوانى الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ويحتف بهم خدم فى ملابس جميلة خلابة • وغادات رومية حسان • وغوان كاسيات عاريات غير متعففات تدل دلالا • ويزيد فى نعيمهم حمامات باذخة ، وميادين للهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال • أو مع السباع ولا يزالون — يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعا يتشحط فى دمه • وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم ، أنه ان كان هناك شىء يستحق العبادة فهو القوة ، لأنه بها يستطيع الانسان أن ينال الثروة التى يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين ، واذا غلب الانسان فى ساحة القتال بقوة ساعده ، فحينئذ يمكن أن يصادر الأموال والأملاك ، ويعين ايرادات الاقطاع وأن رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة القاهرة

فكان نظام رومة يشف عن أبهة الملك ، ولكنه كان طلاء خادعا كالذى نراه فى حضارة اليونان فى عهد انحطاطها (١) .

« أرادت الكنيسة أن تقف فى وجه هذا الشعار الجامح ، وهـذا التردى الكاسح .. ولكنها لم تسلك اليه طريق الفطرة السوية المعتدلة المتزنة ولا كان قد بقى بين يديها من حقيقة التصور النصرانى الصحيح ما تقيم به الميزان بين الناس بالقسط ، ولا ما تقيم به الميزان بين الافراط والتفريط فى وظائف فطرتهم الطبيعية .

ويصور « ليكى » فى كتابه : « تاريخ أخلاق أوروبا » ما كان عليه العالم النصرانى فى ذلك العصر من التأريخ بين الرهبانية والفجور .. بقوله :

« ان التبذل والاسفاف قد بلغا غايتهما فى أخلاق الناس واجتماعهم وكانت الدعارة والفجور والاخلاد الى الترف والتساقط على الشهوات — والتحلق فى مجالس الملوك وأندية الأغنياء والأمراء ، والمسابقة فى زخارف اللباس والحلى والزينة فى حدتها وشدتها .. كانت الدنيا فى ذلك الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوى والفجور الأقصى ، وأن المدن التى ظهر فيها أكثر الزهاد كانت أسبق المدن فى الخلاعة والفجور (٢) » .

يقول درابر فى كتابه : « الدين والعلم » :

ولم تكن الرهبانية والنظام الدينى السلبى الا مصادمة للفطرة ، فبقيت مقهورة بعوامل الديانه الجديدة وسلطانها الروحى » وساعدتها عوامل أخرى .

ثم قهرت الطبيعة ، وتسرب الضعف والانحراف الى المراكز الدينية ؛ حتى صارت تزاحم المراكز الدنيوية — وربما تسبقها فى فساد الأخلاق

---

(١) عن كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للأستاذ ابى الحسن الندوى .
سيد قطب : السابق ، ص ٣٤ .
(٢) عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للسيد ابى الحسن الندوى .

والدعارة والفجور لذلك أوقفت الحكومة المآدب الدينية التي كانت ترمي الى عقد الألفة والأخوة بين المسيحيين ، وأعياد الشهداء والأولياء وذكرياتهم ، التي وجدت فيها الخلاعة والفجور حمى ومرتعا ، واتهم القسس بكبائر ومنكرات .

« ويقول الراهب جروم « Jerume » : ان عيش القسس ونعيمهم كان يزري بترف الأمراء والأغنياء المترفين . وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطا عظيما واستحوذ عليهم الجشع وحب المال وعدوا طورهم حتى كانوا يبيعون المناصب والوظائف كالسلع . وقد تباع بالمزاد العلني » ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران ، ويأذنون بنقض القانون ، ويمنحون شهادات النجاة ، وأجازات حل المحرمات والمحظورات ، كأوراق النقد وطوابع البريد — ويرتشون ويرابون وقد بذروا المال تبذيرا ، حتى اضطر البابا « أنوسنت الثامن » أن يرهن تاج البابوية » ويذكر عن البابا « ليو العاشر » انه أنفق ما ترك البابا السابق من ثروة وأموال ، وأنفق نصيبه ودخله ، وأخذ ايراد خليفته المرتقب سلفا وأنفقه ، ويروى أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفي البابوات لنفقاتهم وارضاء شهواتهم (١) .

« وقد جاء في كتاب : « تاريخ الكنيسة » في بيان قرار المجمع الثاني عشر في هذا الشأن :

« أنهى المجمع تعاليمه ، فيما يتعلق بأمر الغفران ، فقال : ان يسوع المسيح لما كان قد قلد كنيسته سلطان منح الغفران » وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذي نالته من العلي منذ الأيام الأولى قد أعلم المجمع المقدس وأمر بأن تحفظ للكنيسة — في الكنيسة ، هذه العملية الخلاصية للشعب المسيحي ، والمثبتة بسلطان المجامع .. ثم ضرب بسيف الحرمان من يزعمون أن الغفرانات غير مفيدة ، أو ينكرون على الكنيسة سلطان منحها . غير أنه قد رغب في أن يستعمل هذا السلطان باعتدال

---

(١) عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للسيد أبي الحسن الندوي سيد قطب : السابق ، ص ٣٧ .

واحتراز حسب العادة المحفوظة قديما — والمثبتة فى الكنيسة • لئلا يمس التهذيب الكنسى تراخ بفرط التساهل » •

••• وهذا نص الغفران « الذى كان يباع بيع السلعة » :

« ربنا يسوع يرحمك (يا فلان) ، ويحلك باستحقاقات آلامه الكليه القداسة ، وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى ، أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنسية التى استوجبتها وأيضا من جميع الأفراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها — مهما كانت عظيمة وفظيعة — ومن كل علة — وان كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا والكرسى الرسولى — وأمحو جميع أقذار الذنب • وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة ، وأرفع القصاصات التى كنت تلتزم بمكابدتها فى المطهر • وأردك حديثا الى الشركة فى أسرار الكنيسة وأقرنك فى شركة القديسين • أردك ثانية الى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك ، حتى أنه فى ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذى يدخل منه الخطاة الى محل العذاب والعقاب ويفتح الباب الذى يؤدى الى فردوس الفرح ، وان لم تمت سنين مستطيلة ، فهذه النعمة تبقى غير متغيرة • حتى تأتى ساعتك الأخيرة باسم الآب والابن والروح القدس •• (١) » •

فاذا أضفنا هذه الى تلك •• اذا أضفنا عنت الكنيسة فى أخذ الناس بالحرمان القاسى باسم الدين — والدين برىء — الى ترف رجال الكنيسة وفساد حياتهم •• الى مهزلة صكوك الغفران أدركنا طرفا من تلك الملابسات النكدة التى أدت فى النهاية الى ذلك « الفصام النكد » فى تاريخ أوروبا المنكود (٢) •

غير أن الأمر لم يقف عند هذه الحدود •• فقد دخلت الكنيسة فى نزاع طويل وحاد مع الأباطرة والملوك — لا على الدين والأخلاق ولكن على السلطة والنفوذ •

---

(١) من كتاب / محاضرات فى النصرانية « للأستاذ الشيخ محمد ابو زهرة .

(٢) سيد قطب : السابق ص ٣٩ .

« وبدأ النزاع والمنافسة بين البابوية والامبراطورية فى القرن الحادى عشر فاشتدت بعنف وحمى وطيسها وانتصرت فيها البابوية أولا حتى أن هنرى الرابع ممثل الامبراطورية اضطر سنة ١٠٧٧ م أن يتقدم بخضوع نحو البلاط البابوى فى قلعة كانوسا •• ولم يسمح له البابا بالدخول الا بعد أن يشفع له الرجال فسمح له بالمثول بين يديه فدخل الامبراطور حافيا لابسا الصوف وتاب على يديه فغفر له البابا زلته • وظلت الحرب بين البابوية والامبراطورية بعد ذلك سجالا •

يقول أبو الحسن الندوى :

« •• ولكن من أعظم أخطاء رجال الدين فى أوربا • ومن أكبر جناياتهم على أنفسهم وعلى الدين الذى كانوا يمثلونه ، أنهم دسوا فى كتبهم الدينية المقدسة ، معلومات بشرية • ومسلمات عصرية ، عن التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية • ربما كانت أقصى ما وصلوا اليه من العلم فى ذلك العصر وكانت حقائق راهنة لا يشك فيها رجال ذلك العصر ، ولكنها ليست أقصى ما وصل اليه العلم الانسانى •

« واذا كان ذلك فى عصر من العصور غاية ما وصل اليه علم البشر فانه لا يؤمن عليه التحول والتعارض ، فان العلم الانسانى متدرج مترق ، فمن بنى عليه دينه فقد بنى قصرا على كثيب مهيل من الرمل • ولعلهم فعلوا ذلك بنية حسنة ولكنه كان أكبر جناية على أنفسهم وعلى الدين فان ذلك كان سببا للكفاح المشئوم بين الدين والعقل والعلم • الذى انهزم فيه الدين • ذلك الدين المختلط بعلم البشر الذى فيه الحق والباطل •• والخالص والزائف •• هزيمة منكرة ، وسقط رجال الدين سقوطا لم ينهضوا بعده • وشر من ذلك وأشأم : أن أوروبا أصبحت لا دينية •

« ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه فى كتبهم المقدسة بل درسوا كل ما تناقلته الألسن ، واشتهر بين الناس وذكره بعض شراح التوراة والانجيل ومفسريهما من معلومات جغرافية وطبيعية وصبغوها صبغة دينية • وعدوها

من تعاليم الدين وأصوله التى يجب الاعتقاد بها • ونبذ كل ما يعارضها ، وألفوا فى ذلك كتبا ومؤلفات • وسموا هذه الجغرافيا التى ما أنزل الله بها من سلطان : « الجغـرافيا المسـيحية « Christian Geography » وعضوا عليها بالنواجذ وكفروا كل من لم يدن بها •

« وكان ذلك فى عصر انفجر فيه بركان العقلية فى أوروبا ، وحطم علماء الطبيعة والعلوم سلاسل التقليد الدينى • فزيفوا هذه النظريات الجغرافية التى اشتملت عليها هذه الكتب وانتقدوها فى صرامة وصراحة ، واعتذروا عن عدم اعتناقها والايمان بها بالغيب ، وأعلنوا اكتشافاتهم واختباراتهم فقامت قيامة الكنيسة ، وقام رجالها المتصرفون فى زمام الأمور فى أوربا وكفروهم ، واستحلوا دماءهم وأموالهم فى سبيل الدين المسيحى وأنشأوا محاكم التفتيش التى تعـاقب — كما يقول البابا — « أولئك الملحـدين والزنادقة الذين هم منتشرون فى المدن ، والبيوت والأسراب والغابات والحقول » فجدت واجتهدت وسهرت على عملها وعملت على ألا تدع فى العالم النصرانى عرقا نابضا ضد الكنيسة وانبثت عيونها فى طول البلاد وعرضها ، وأحصت على الناس الأنفاس : وأحصت عليهم الخواطر حتى يقول عالم نصرانى : « لا يمكن لرجل أن يكون مسيحيا ويموت حتف أنفه » « يقصد يموت موتة طبيعية » •

« ويقدر أن من عاقبت هذه المحاكم يبلغ عددهم ثلاثمئة ألف أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفا أحياء كان منهـم العـالم الطبيعى المعروف « برونو » • نقمت منه الكنيسة آراء من أشدها قوله بتعدد العـوالم ، وحكمت عليه بالقتل واقترحت بأن لا تراق قطرة من دمه وكان ذلك يعنى أن يحرق حيا ، وكذلك عوقب العالم الطبيعى الشهير « جاليليو » بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس •

« هنالك ثار المجددون المتنورون ، وعيل صبرهم ، وأصبحوا حربا على رجال الدين وممثلى الكنيسة ، والمحافظين على القديم ، ومقتوا كل ما يتصل بهم ويعزى اليهم ، من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب وعادوا

الدين المسيحى أولا والدين المطلق ثانيا وتحولت الحرب بين زعماء العلم والعقلية وزعماء الدين المسيحى — وبتعبير أصح الديانة البولسية — حربا بين العلم والدين مطلقا وقرر الثائرون أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان . وأن العقل والنظام الدينى ضدان لا يجتمعان ، فمن استقبل أحدهما استدبر الآخر ومن آمن بالأول كفر بالثانى ، واذا ذكروا الدين ذكروا تلك الدماء الزكية التى أريقت فى سبيل العلم والتحقيق ، وتلك النفوس البريئة التى ذهبت ضحية لقسوة القساوسة ووساوسهم ، وتمثل لأعينهم وجوها كالحة عابسة وجباها مقطبة وعيونا ترمى بالشرر ، وصدورا ضيقة حرجة وعقولا سخيفة بليدة ، فاشمأزت قلوبهم ، وآلوا على أنفسهم كراهة هؤلاء وكل ما يمثلونه ، وتواصوا به وجعلوه كلمة باقية فى أعقابهم .

« ولم يكن عند هؤلاء الثائرين من الصبر والمصابرة على الدراسة والتفكير ومن الوداعة والهدوء ، ومن العقل والاجتهاد ما يميزون به بين الدين ورجاله المحتكرين لزعامته ويفرقون به بين ما يرجع الى الدين من عهدة ومسئولية ، وما يرجع الى رجال الكنيسة من جمود واستبداد وسوء تمثيل فلا ينبذون الدين نبذ النواة ولكن الحفيظة وشنآن الرجال والاستعجال ... لم يسمح بالنظر فى أمر الدين والتريث فى شأنه كغالب الثوار ، فى أكثر الأعصار والأمصار » .

ومما تقدم جميعا وبشهادات الأوربيين أنفسهم يتضح أن خلاص البشرية من ذلك الفصام النكد لن يكون الا باتباع تعاليم الاسلام وتنفيذ منهجه القويم .. وهذا ما ينادى به كل المنصفين من مفكرى الغرب ومنهم جارودى الذى أعلن بعد رحلته الطويلة من الشك الى اليقين أن المنهاج الغربى الحضارى قد حقق فشلا تاريخيا ذريعا .. وان الاسلام وحده بين بقية الأديان هو القادر على بعث الأمل من جديد ومنحه لكافة المجتمعات الغربية التى فككها النظام التكنوقراطى للحضارة ..

وفى تفصيل ذلك يقول جارودى فى محاضرته بالأزهر الشريف :

« ولكننا لو أدخلنا فى الحسبان التراث الثالث للغربيين بعد التراث

اليهودى — المسيحى ... من ناحية ، والتراث اليونانى — الرومانى من ناحية أخرى ، ألا وهو التراث العربى الاسلامى ، لأصبحت مسيرة الحضارة العربية منذ عصر النهضة وحتى الآن أكثر وضوحا .

ونحن نتناسى كثيرا أن ما نطلق عليه أسم « عصر النهضة » فى الغرب لم يبدأ بالفعل فى ايطاليا بعد صحوة العصور اليونانية الرومانية التى تختلف عن النموذج اليهودى المسيحى ولكنه قام بالفعل قبل ذلك بثلاثة قرون عندما فتح العرب الجامعة الاسلامية فى قرطبة بأسبانيا ونشروا الترجمات العديدة للكتاب العرب كما شجعهم على ذلك القسيس ريموند من توليدو .

وهكذا فبدلا من أن يترجم هذا كصراع بين النزعة اليونانية — الرومانية وبين النزعة اليهودية — المسيحية ، صراع بين العلم والايمان ، بين الدولة والمسيحية ، بين الفرد والمجتمع فان هذا التراث العربى الاسلامى ككل كان على العكس يسمح بتعايش جميل بين السماوية والروحانية الخاصة بعقيدة ابراهيم التى يؤمن بها اليهود والمسيحيون والمسلمون على حد سواء . كما كان يسمح بالعلم التجريبى ، وخصوصا باقامة أمة لا تشغلها فقط الصراعات بين الأفراد أو الصراعات بين الدول .

ولكن للأسف الشديد فان هذا التراث الثالث لم ينقل للغرب الا بطريقة مشوهة .. فقد التهمت أوروبا أحد أشكال الحضارة الاسلامية ألا وهو العلم التجريبى الذى يختلف عن العقلانية اليونانية والمدرسية السكولاستيكية (حيث تسود فلسفة أرسطو) والتى تسمى بالمدرسة المسيحية حيث اهتمت بعلوم اللاهوت فى أواخر القرون الوسطى . وهكذا يكفى أن يترجم أو يقتبس « روجر بيكون » — بعض فصول من كتاب « الأبصار » لابن الهيثم حتى يطلق عليه لقب مؤسس الأسلوب التجريبى فى العلوم .

ولكن الغرب اكتفى بهذه الظاهرة فقط — وبهذا فقد أنصف هذه الفلسفة العقلانية الاسلامية وفرق بين العلم والحكمة ، بين التحكم فى الأساليب والتفكير فى الأغراض والغايات » .

ويضيف جارودى « مع أن الذى يميز العالم الاسلامى ككل هو أنه لا يفرق أبدا بين الاستخدامين اللذين يقوم عليهما العقــل الانســانى ألا وهما البحث عن الأسباب والبحث عن الأغراض من ناحية — والتأمل والاستنباط اللذان يسمحان للمرء أن يرتفع من الأحداث الى القوانين والنواميس . ومن ناحيــة أخرى أن يرتفع من غايات بســيطة الى غايات أسمى حتى يلمس ما يشعر المرء بضآلته أمام اللانهاية لهــذه الاجراءات .

هذا القصور الذى أصاب العقل الغربى جعل الانسان الغربى يتساءل — دائما عن « الكيف » أى عن الأسلوب ويغفل السؤال عن الأسباب . هكذا يتساءل :

« كيف نصنع الأسلحة الذرية ؟ » ، « كيف نذهب الى القمر ؟ » ولا يتساءل : « لماذا نصنع قنبلة ذرية ؟ » . « لماذا نذهب الى القمر » ؟

هل هذه فعلا أشياء أساسية بالنسبة للانسان يجعلها تأتى فى المقام الأول ؟ ألا يمكننا بنفس هذه الأمكانيات المالية والعلمية والانسانية أن نصل الى أهداف أخرى ؟؟ وكأننا هكذا وبهذا العقل الذى تنقصه أنبل وظيفة تلك التى قد تجعلنا نتساءل عن معنى لحياتنا وتاريخنــا ولكل أعمالنا ، وكأن فكرة التقدم معناها أن كل ما هو ممكن علميا وفنيا يجب أن يكون .

وفى هذه الأساليب التى قد نعتبرها مقدمة فان أعظم نتاج العلم والفن فى الغرب ليس فى خدمة الانسان وفى سبيل تقدمه وتحرره أو لأية أغراض انسانية ولكنه فقط فى خدمة التنمية كتنمية ولخدمة الســيطرة كسيطرة والعنف كعنف .

فهو اذن فى خدمة هدم الطبيعة والانسان وليس لخلق مستقبل أفضل له » .

ويذهب جارودى الى أن الحضارة الغربية تموت ، فيقول :

« وهكذا فان حضارتنا الغربية حاليا في سبيل الموت لا لأنها تفتقد — الأساليب ولكن لأنها تفتقر الى الغايات •

هذا هو الوجه الخطير لأزمة الحضارة الغربية أزمة المعنى ، أن علماءنا الوضعيين وفنانينا الذين فقدوا التوجهة الصحيحة وكتابنا المتشـــائمين يجسدون هذه الأزمة بدلا من أن يساعدونا في التغلب عليها وكأن الحضارة ليست تفكيرا في الأغراض وفي معنى الحياة والموت • وهكذا ترى وحتى وسط الكبار منهم من يدفن الأمل ويحاول أن يقنع الشباب بأنه ليس لحياتهم أو لموتهم أى معنى اطلاقا •

بل أكثر من هذا فان هناك عالما فرنسيا وصلت به فلسفته الوضعية الى حد أن استنتج لكل مقاييس الحياة بعض النماذج والصور التى تشير الى بعض التطور البيولوجي للحياة ، ويحاول أن يقنعنا أن وجودنا كله لا يقوم الا على ما هو ضرورى وما هو أيضا عفوى دون أن يكون لهذا الوجود أى معنى انسانى •

وأكبر فلاسفتنا ذهب الى حد تعريف الحياة وكأنها عاطفة أو انفعال لا جدوى لها يمثل فيها الناس الآخرون « جهنم » •

كما يتغنى أديب آخر عن « اللامعقول » ويقدم لنا صورة مظلمة يكون فيها الاله « الذى حكمت عليه الآلهة بالعذاب الأبدى » وقد أصبح سعيدا ••

وعلى مستوى أدنى من هذا فان نفس المواضيع قد طرقت حيث يقول أحدهم أن « الانسان ألعوبة للهياكل والتركيبات » ويتكلم الآخر عن « موت الانسان » أمام ما يدعيه البعض من « موت الرب » وهكذا فهم أنبياء مزيفون لا ينبئون الا بموت ودمار كل شىء •

هل سيقولون « أن هذه مجرد أزمة للرأسمالية » ؟

للأسف فالعالم الاشتراكى الرسمى الذى يمثله الاتحاد السوفيتى ،

بالرغم من كل هذه الآمال التى قد ولدت عند ضحايا الرأسمالية ، لم يوفر لهم منذ ثورة أكتوبر ١٩١٧ نظاما مقنعا يرد على النظام الرأسمالى •

هذا لأنه يتحدث بنفس الغايات ، ألا وهى التنمية مع مراعاة الرغبة التى يعلنونها عن التغلب على البلاد الرأسمالية وكأن الاشتراكية فقط مجرد طريقة للوصول الى هدف التنمية الرأسمالية وبدرجة أفضل من الرأسماليين أنفسهم •

أما فى مجال الثقافة الاشتراكية الرسمية قد تناست القيم الروحية فى هذه الحياة هذا على عكس ما قاله كارل ماركس نفسه فى كتابه « رأس المال » حيث يرى أن مولد الانسان وخروجه من المرحلة الحيوانية مرتبط باحساسه بالهدف وبالغرض ويبدأ بالفعل تاريخه العظيم ، مع أنه كان ينقد الفكرة الثنائية للروحانية كما يراها علماء اللاهوت فى وقته مع أنه أيضا كان يعتقد أن الدين بمثابة أفيون للشعوب » •

ويتساءل جارودى :

ألا يمكننا أن نخرج من هذا الطريق المسدود الذى وصلنا اليه بعد هزيمة الغرب المضاعفة وندخل من جديد المعنى وهو بحق البعد الأسمى وهذا عن طريق نفس التقاليد الدينية التى استقبلها الغرب سواء كانت اليهودية أو المسيحية ؟ •

« أما النبى محمد صلى الله عليه وسلم فلم يقل أبدا أنه يؤسس دينا جديدا •

فالقرآن لا يفتأ يؤكد أنه تكملة للدين الأساسى دين ابراهيم عليه السلام الذى باسلامه المطلق للارادة الالهية قد وافق على التضحية بابنه وهذا يعد بحق المنهج المثالى الأكمل •

وقد بدأت رسالة التوراة فى الاضمحلال عندما خالطها تفسير قبلى كنسى يزعم أنه شرعى لوحدة الانسان مع الله سبحانه وتعالى كما عاشها ابراهيم وكما يقول هذا القانون الذى أرسل لموسى •

فالوحدة بين الرب والقانون كانت موجهة بالفعل الى كل الناس وكما تؤكد الكتب السماوية فى كل قبائل الأرض ٠

ولكننا نرى فى الوصية القديمة وبعد أن انقسمت اسرائيل ومملكة يهوذا حوالى سنة ٩٣٠ قبل الميلاد نرى بوضوح تلك الفكرتين — أولاهما « روحية » عما يسمى « الشعب المختار » يكون فيها هذا الشعب من لبوا نداء الله أو مثل ابراهيم من يكونون أمة الايمان باسلامهم لله والفكرة الثانية التى ترجع الى العنصر يكون فيها « الشعب المختار » هو من بقى فيه الدم والجنس الخاص بأولاهما ابراهيم عليه السلام ٠

أما المفهوم الأول فهو عمومى شامل للناس جميعهم أيا كان عنصرهم أو جنسهم « الذين يلبون نداء الله » وهو المفهوم الذى يأتينا من الأنبياء مثل عاموس وحزقيال واسحاق ويعقوب الذى سيئول بعد ذلك لسيدنا عيسى عليه السلام ٠

أما المفهوم الثانى القبلى العنصرى فهو قائم على التفرقة بين الأجناس ويظهر فى صورته الصارمة فى مملكة يهوذا عندما يطالب رجلان ، يعتبران ثقة بجانب ملك الفرس ، ألا وهما الكاتب — ازدراس والكاهن نهيمى بعد عودتهما من المنفى — عندما يطالبان بقوانين التفرقة العنصرية التى تمنع الزواج من خارج القبيلة ٠

أما العنصر الثانى الذى أدى الى افساد دين ابراهيم بعد هذا التفسير القبلى والعنصرى للوحدة بين الخالق والمخلوق فهو نشـــأة الكنيســـة واللاهوت ٠ هنا أيضا يحق لنا أن نفرق بين الاتجاه « اللاوى » والاتجاه النبوى ، فالكاهن Heuite متخصص فى شئون المناسك فقط وهو يعتبر همزة الوصل بين الرب والعباد ويقوم على تطبـــيق دقيق للمراســـم ولأحكام الكنيسة الكهنوتية التى تغطى على أية واجبات دينية أخرى حتى أن هؤلاء الكهنة يفرضون عقوبة الموت على من لا يحترم عطلة يوم السبت ٠

والعنصر الثالث وراء افساد الثقافة الدينية هو التفسير المادى لما

بسمى « بالوعد » فالكنيسة القائمة على أهواء هؤلاء الكهنة وليس على النبوة • تربط بين « الوعد » وبين الأرض كما تربط بين الاختيار ، فى اطار ما يسمونه بالشعب المختار بين الدم والعنصر ، ذلك بالرغم من هذه التقاليد الروحية العامة التى تسود الديانة اليهودية ، لذلك فنحن نرى للأسف وحتى يومنا هذا فى فبراير ١٩٨٣! م مثلا — حيث تقوم جريدة اسرائيلية بتوجيه المديح للجنرال آريل شارون وأعماله البشعة فى لبنان مقالا بعنوان : يوشع جد شارون » •

فسيدنا عيسى عليه السلام — بحياته وتعاليمه وموته ثم بعثه يجدد هذه التقاليد النبوية العظيمة التى تواجه هـذه الفلسـفة الكهنوتيـة البيروقراطية وحتى يتسنى له أن يقوم برسالته على الوجه الأكمل — فقد ركز على الروحانية وعلى التسامى وعلى البعد عن السياسة •• لذلك عندما حاول سيدنا عيسى عليه السلام أن يواجه هذه المادية التى تحيط به وأن يرجع التوازن ويذكر الانسان بحاجته لما هو أسمى وأعلى من الخبز فانما قد رفض نسيان القيم الروحية دون أن يهاجم فى نفس الوقت الحياة المادية ذاتها ولكن هؤلاء الذين كانوا يطلقون كذبا على أنفسهم « خلفاء سيدنا عيسى والذين كانوا يكسبون من ورائه الثراء والسلطة فقد قاموا بتمريض الناس وملئهم بالخوف والكراهية ضد المادة وضد العالم وضد التاريخ •

ولقد حاول سيدنا عيسى فى ظل سيطرة قياصرة روما أن يبقى على الحياة الداخلية للانسان وعلى سموه واتجاهه الى الله • ولقد نطق الجملة التى قد تعد هامة فى هذا الوقت : « أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وكان الامبراطور بمثابة الاله الذى كان يعاقب بالموت فعاقب من يحاول أن يأخذ منه النفوس التى يزعم أنه يسيطر عليها كما يسيطر على الأجساد •

وهكذا تحولت هذه الكلمة الى شعار كاذب يفرق بين الايمان والسياسة ويجعل من الدين مسألة خاصة كى يتمكن الحكام من أن يسودوا غافلين عن أعين الله » •

« أما النبى محمد صلى الله عليه وسلم كما يقول جارودى — فلم يكن مجرد نبى وانما كان أيضا رجل دولة ومشرعا وزوجا وأبا وتاجرا وقاضيا وقائد حرب وأخذت الرسالة النبوية أبعادا جديدة لم يكن من الممكن أن تأخذها وقت سيدنا عيسى عليه السلام . فقد اشتملت على العلاقات الاجتماعية دون أن تفقد أبعادها الروحية أبدا . وقد قيل فى القرآن الكريم (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) « الرعد ١١ » .

هكذا كانت الخاصية القرآنية هى منهاج أخلاقى للعمل . فالدين الاسلامى يرفض بتاتا حياة الأديرة التى يكون فيها التأمل هو السبيل الوحيد والهدف الأسمى .

فالانسان فى القرآن هو خليفة الله فى الأرض والقائم عليها وهو مسئول تماما عن تاريخه . لذلك فهذه الرسالة لا يمكن أن تنفذ الا فى داخل الجماعة أو الأمة ، فالمسلم هو أولا من يقتنع بأن الله قد خلقه ليكون مسئولا عن مصير كل الناس .

هذه الأمة الاسلامية هى من نوع جديد لا ترتكز على جماعة من نفس الدم أو من نفس العنصر ولا ترتكز على أرض أو على سوق معينة ولا حتى على حضارة بعينها . فهى لا تقوم على أى شىء قد يورث سواء فى الطبيعة أو فى التاريخ أو على شىء يقوم على عطاء معين أو على ماض معين . وانما تقوم الأمة على الاختيار هو بمثابة الاستجابة للنداء والاستسلام لارادة الله الذى يحتم على الفرد معاونة الآخرين سواء فى حاجاتهم المادية أو فى احجاتهم الروحية .

كذلك فأنت لا تجد فى الاسلام شيئا يجعلك تعتبر الدين مسألة خاصة أو شخصية ففكرة اعطاء ما ليقيصر لقيصر وما لله غير مقبولة بتاتا من المسلم .. أى عمل انسانى له أبعاده الروحية السماوية وأول واجب بالتالى على الحاكم هو أن يوائم بين أعماله والارادة الالهية ، غير ناظر لفائدة شخصية أو لمصلحة تتعلق بمجموعة معينة أو بدولة معينة وانما تتعلق بالعالم أجمع وبالانسانية جمعاء .

(جارودى)

وهكذا فان الايمان والسياسة هما بعدان للانسان قد ظلا مختلطين بالكنيسة والدولة أى بمؤسستين رســميتين وهكذا اختلط الأمر على الناس » .

أما المفهوم الاسلامى الذى لا يعرف فكرة الكنيسة . فقد جاء — كما يقول جارودى — من « الوحدة العميقــة التى تربط بين هــذين الاستخدامين للعقل ، والحركة التى تربط بين الأسلوب والأحداث والتى تعطينا الأساليب ، والحركة الثانية التى تجعلنا نصعد من هدف الى هدف . من هدف معين الى هدف أسمى وأن ترتب هكذا الأساليب كلها بانسجام لتوائم الأهداف الروحية المسنمة .

أما الغرب ومنذ عصر النهضة فقد هدم الطريقة الوحيدة للعقل التى قد تؤدى الى غائدة ما وحجبها عن استخدامها الروحى الوحيد ألا وهو البحث عن المعنى . وقد أدى هذا البتر للعقل الى أن أصبح العلم مجرد مذهب يقرر الاكفتاء به من حيث قدرته على الذهاب الى المسائل القصوى الدائرة على المعرفة البشرية وأوصل الفن الى التكنوقراطية والسياسة الى تكتيك السلطة فقط .

وعلى العكس من ذلك فالرسالة القرآنية تسمح لنا بأن نعيد التفكير فى كل أشكال العمل من التقنية الى السياسة وتطالبنا سواء أكنا علماء أم فنيين أم رجال سياسة أم مجرد رجال عاديين ألا نتساءل عن « الكيف » — أى عن الأسلوب ولكننا نتساءل أولا « لماذا » أى عن أسباب الأهداف وعن المعنى وعن هدف وغاية كل عمل من عمالنا .

« أما الشىء الثانى الذى أعطاه لنا القرآن وهو شىء هام جدا بالنسبة لحياتنا فهو المضاد لهاتين النزعتين الفــردية والقوميــة وهما الوباءان اللذان سيؤديان الى موت وانتحار الكوكب الأرضى بأكمله .

فعندما أسس سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أول دولة اسلامية فى سنة ٦٢٢ م — رفض أى تعاون يقوم على الصلة القبلية أو على

صلة الدم أو على أية طبيعة أخرى • وقد أعتبر أن المجتمع سيكون مجتمعا انسانيا حقا وغير حيوانى أى أنه لن يقوم على المصالح وعلى الرغبات • وقد أقام الاسلام نوعا من السلام مع الأمة اليهودية وبعد ذلك بستة أعوام مع مسيحى نجران بالجزيرة العربية وانتشر هذا الصلح وضم الهنود والبوذيين فى عصر الخلفاء الأول وهكذا أقام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نموذجا للأمة الاسلامية التى لا يمكن أبدا أن تكون أمة قومية وانما دولية •• وهكذا لا تقوم الدولة الا بتنفيذ أحكام الله •

أما الفردية فهى تختلف اختلافا كليا فى النظرة الشاملة المسلمة للعالم فالعالم لا يحكمه الا التوحيد اى لا ينظر للشىء الا كجزء من كل • وليس وجهة نظر مضاحة دولة معينة أو فئة معينة ولكن للمصلحة العامة للكوكب الأرضى كله •

ان أحكام الاسلام لا تنطلق من وجهة نظر فرد يعتبر نفسه المركز الرئيسى لكل شىء ولكنها من عند الله سبحانه وتعالى ومن منطلق هذه الروحية التى تجعل من الأنا الفردية بعدا روحيا وأساسيا هو المشاركة فى كل شىء •

ان القرآن وهو وحى من عند الله سبحانه وتعالى •• مثل التوراة تدخل سماوى فى تاريخ وحياة الناس — وذلك يدعونا الى أن نفكر فى قراءة القرآن على مستوى آخر قائم على الفلسفة الدينية لأنه كلام منزل من عند الله سبحانه وتعالى •

وعظمة الله سبحانه وتعالى وسموه تعنى أنه لا يمكننا أبدا أن نعرف عنه سبحانه ألا ما حدثنا به القرآن الكريم لأنه لا يوجد هناك أى وجه تشابه واحد بين الانسان وخالقه • فقد قيل فى القرآن أن العين لا يمكن أن تراه فهو يفوق أى حس انسانى وهو يفوق أى تعريف وأى تصــور بشرى •

ويضيف جارودى :

« للاسلام اليوم امكانيات واحتمالات الانتشار فى العالم أكثر حتى من الوقت الذى وصل فيه الى ذروته •

فالمنهج الأمريكى والمنهج السوفيتى قد أثبتا فشلهما • أما الاسلام فهو يمنح للانسان الأمل فى عالمنا هذا الذى يسوده الخوف حتى على استمراره وعلى بقائه — ومن اليسير عليه لو تخلّى عن فكرة اغلاق باب الاجتهاد واستطاع أن يجد المبادىء التى تعيد اليه الحيوية والعظمة كما يستطيع أن يستخلص من قرآنه المبادىء الخالدة التى تمكنه من أن يواجه مشاكل العصر » •

ويرى جارودى أن الصلاة تربط الانسان بالبشرية فيقول :

« فالقرآن الكريم عندما يأتينا بحلول تاريخية معينة فانه يأتينا فى نفس الوقت بقيم خالدة عظيمة وهذا الطابع التاريخى للرسالة السماوية واضح فى القرآن نفسه حيث تقرأ ما معناه أن الله قد منحكم المساكن المصنوعة بجلد الحيوان حتى تكون خفيفة يوم تنتقلون من مكان الى آخر ويوم تحطون خيامكم فمن الواضح هنا أن الحديث موجه لمجموعة من البدو الرحل فى وقت معين من التاريخ كى يعلموا بحقيقة ثابتة وأبدية وهى سماحة ووجود الله عز وجل •

وهذا يخالف تلك النظرة المتعجرفة الفرعونية للانسان حيث يرى أنه من القوة بحيث يمكنه أن يعتمد على نفسه فقط •

وهذا يذكرنا بعظمة الله سبحانه وتعالى بدلا من أن نفكر فى الاكتفاء بأنفسنا ويذكر أيضا هؤلاء الذين بنوا الأهرامات على سبيل المثال •

أما اذا طالبنا القرآن بأن نغتسل قبل القيام بالصلاة فهو يخبرنا بأننا نستطيع أن نستخدم الرمل لنغسل وجوهنا وأيدينا •• فمن الواضح أن الكلام موجه هنا الى سكان الصحارى وليس الى سكان الاسكيمو مثلا •

هكذا فقد أعطانا الله رسالة خالدة عندما تحدث عن تجربة معينة

فالاغتسال هنا رمزى يؤكد ضرورة مناسك النظافة التى تصاحب الصلاة .
أى الوقفة فى الحياة اليومية التى تعيد لحياتنا مركزها الحقيقى وتجردنا
من كل ما يحيط بنا من هموم وقتية حتى تأخذ كل أعمالنا معناها الحقيقى
وترتبط بالتالى بعظمة الله سبحانه وتعالى •

والصلاة لا تربط الانسان فقط بالطبيعة والكون ولكنها تربطه بالبشرية
جمعاء فالقبلة فى المساجد تصور حلقات من دوائر متقابلة ترمز الى الوحدة
التامة وكذلك ساعات الصلاة تتغير مع خطوط الطول فى حركة ضخمة
للتعبد لا تفتأ تتردد على الأرض بأكملها وهكذا يكون تعبير الوحدة فى
الاسلام برموز طبيعية تتفق مع كل النبوءات منذ ابراهيم عليه السلام
حتى سيدنا موسى ومن سيدنا عيسى الى سيدنا محمد صلى الله عليه
وسلم •

والقرآن الكريم خاطب الانسانية فى جميع مراحلها — بما فيها من
ضعف وقوة وصور فى الفترة التى نزل فيها أحداثا تتكرر مع البشرية
فى مراحل أخرى من تطورها ••

من ذلك مثلا ما ورد فى القرآن الكريم عن (أبو لهب وأمواله)
ما يجعلنا نستخلص من هذه السورة القصة التى تدور فى القبيلة وكذلك
المعنى الخاص بتكديس الأموال دون أى هدف انسانى والتنمية العمياء
التى هى الآن سمة كل الدول •

تلك هى الآفاق التى تفتح لنا نحن مسلمى الغرب كى نكسب المستقبل
فالاسلام الخالد يمكنه اليوم أن يغزو العالم كله برسالته لأنه يعطينا
الاجابة على تلك الأسئلة التى تجول بخاطرنا فى هذا العصر •

— السؤال الذى يراودنا بعد هذه التنمية العمياء للعلوم والفنون •

— والسؤال الذى يراودنا بعد هذه الزيادة العمياء للشعوب والدول •

١ — فبدلا من أن نحول عالم الأشياء والمخلوقات الى أحداث وقوانين

فالاسلام يذكرنا بضرورة البحث عن هدف ومعنى أولا • فهذا الانسان الغربى الذى يكرر السؤال عن الكيف ويتناسى السؤال عن السبب سنحاول أن نذكره أن انتكنيك للتكنيك والعلم للعلم يؤدى الى العدم وأن الحياة من أجل لا شىء هى الانتحار البطىء للكوكب كله وأن هذا كله يأتى من نسيان تبعية الأساليب ونسيان الأبعاد الروحية للحياة •

هكذا يمكننا بالاسلام أن نبين ضرورة المعنى والسمو وتذكر الخالق العظيم •

٢ — أما بالنسبة للفردية وللقومية التى تجعل من الفرد أو من الدولة مركزا ومعيارا لكل شىء فهى سوف تؤدى الى كارثة كبيرة تواجه فيها المصالح والمآرب حب السلطة وأحلام النمو المفرط وهـذا لن يؤدى بالتالى الا الى العنف والفناء •

ولهذا يمكن للاسلام أن يمنح الحل بهذه الصورة الجديدة • ألا وهى صورة الجماعة التى لا تقوم الا على الاحترام العام للقيم الروحية •

فالاسلام هو تتويج لتراث ابراهيم عليه السلام الذى نادى الانسان سواء عن طريق اليهودية أو المسيحية • بالبحث عن هدفه الأسمى وهو يستطيع الآن أن يعطينا من جديد الأمل فى هذه المجتمعات الغربية التى فككها النظام التكنونوقراطى للحضارة الذى أدى لا الى سعادة — الانسان وانما الى هدمه وفنائه •

وهكذا يمكن للاسلام أن يحمى الانسان من هذا النظام الخاطىء فى التنمية العمياء التى تؤدى الى نهايته الحتمية •

ولن يمكننا نحن مسلمى الغرب أن نؤدى هذا الدور الا اذا لم نغفل أبدا أننا كى نحترم أجدادنا يجب أن نوصل الشعلة لا أن نبـــقى على الرماد » •

الباب السادس

الاســـلام ومستقبل الحضــارة

« سئل — رهط من علماء الغرب عن مصير الانسان — فقال العالم المشهور (سير جوليان هكسلى) ما فحواه : ان أدوار التطور الكبرى قد انتهت بالنسبة الى النوع الانسانى ، الا ما يكون منها خاصا بالدماغ والفكر، » فان النوع الانسانى لا يزال قابلا فى هذه الوجهة للمزيد من التقدم والنماء ، وليس المنظور أن يكون هذا التطور « عضويا حيويا » فى بنية الدماغ ، فان حكم الدماغ من حيث النماء الجسدى كحكم سائر الوظائف الحيوية ... ولكن الأفكار التى تتولد من مباحث العلم والفن على الأجيال المتعاقبة تزيد محصول الانسان من المعرفة فتزداد قدرته على التفكير الصحيح تبعا لذلك ، ويحدث التجاوب بين العارفين فى البيئة الواحدة فيصحح بعضهم تفكير بعض ويأتى من تجميع الأفكار وتصحيحها ما هو منتظر للنوع الانسانى فى مجموعه من تطور العقل وصحة التفكير .

والذين خالفوا السير جوليان هكسلى فى تطور الدماغ من البنية الجسدية لم يخالفوه فى اعتقاده أن التقدم سيأتى من معالجة التفكير ؛ وأن مرانة الذهن على التفكير فى مصاعب الحياة هى التى يرتبط بها النماء فى حجم الدماغ وفى قدرته على الفهم والادراك ، ثم فى تعوده أن يعمل بداهة وارتجالا ما يعمله اليوم بعد التنبه والاجتهاد .

وقرر هكسلى وموافقوه من العلماء والمفكرين الذين سئلوا عن مصير الانسان أن هذه الآراء جميعا أبعد ما تكون عن « المادية » أو عن تلك الفلسفة التى تربط مصير الانسان بجسده ، وبالمعيشـــة المادية التى تعيشها الجماعة وتفرضها على عقول أفرادها .

« فلا عمل للمادية فى توجيه مستقبل الانسان ، وانى هى الأفكار والعلوم مناط التقدم كله ، ومناط الاتجاه — من ثم — الى أطوار من الرقى والنماء تعلو على أطواره اليوم (١) » •

ويذكر الأستاذ العقاد (٢) أن المفكرين الدينيين عقبوا على هذه الآراء « فوافقها الكثيرون منهم » ولكنهم قالوا ان نجاة النوع الانسانى مما يهدده غدا لن يكون معلقا بأفكاره العلمية ولا بمباحثه فى شئون الفلسفة الطبيعية ، لأن هذا النوع الانسان انما يأتيه خطر الفناء من جانبين اثنين : أحدهما كوارث الكون الكبرى ولا حيلة له فى دفعها بعلومه وفلسفاته ، والجانب الآخر كارثة الحرب الذرية ، وهى بعض آثار التقدم العلمى ولن يكون خلاص النوع الانسانى منها على يد العالم المتقدم لأنه هو مصدر الخطر ووسيلة الكارثة المرهوبة ؛ وسلاح الحرب الشعواء التى تودى بحياة هذا النوع أو تبقى ما بقى منه فى حالة كحالات الهمجية الأولى • وقد سئل أينشتين مرة : ماذا يكون سلاح الحرب العالمية الرابعة اذا كانت الذرة هى سلاح الثالثة ؟ فقال جادا غاية الجد وساخرا غاية السخرية : تكون سلاحها الحجارة ! يشير بذلك الى رجعة الانسان كرة أخرى الى العصر الذى سبق عصر القوس والسيف فضلا عن عصر الطيارة والصاروخ •

« قال أولئك المفكرون : ان الخطر اذا كان من نفس الانسان فلا نجاة له بعلوم العقل ومخترعات الصناعة ، وانما تكون نجاته بعلم من عالم الروح تنتفع به الضمائر والعقول • انما تكون نجاته بالدين ، وبالايمان الدينى والعقيدة الالهية ، ولا نجاة له فى غير هذا الطريق (٣) » .

وكل هذه الآراء من أقوال كبار المفكرين — كما يقول العقاد — « انما تهدم المادية باسم الفكر والمعرفة وتعتمد على الفارق بين جانب الانسان

(١) عباس محمود العقاد : « المادية تنهزم » فى : مجلة الأزهر — فبراير ١٩٦٣ •
(٢) المرجع نفسه .
(٣) العقاد : نفس المرجع السابق •

العقلى وجانبه الجسدى لترجيح القول باعتماده فى تقدمه بعد اليوم على الناحية الفكرية منه ، أو على النـاحية التى تأتى من تجمع المعـلومات والانتفاع بها فى حياته العلمية » .

ولكن الفلسفة المادية ــ فيما يرى العقاد ــ لن تنهزم من ناحية التفكير وحده ، ولا من ناحية الدفاع المفكر دون النظر الى مادة بدنه ومادة الكائنات الطبيعية من حوله ، بل تنهدم الفلسفة المادية لا محالة من كل نظرة واقعية ننظرها الى حقيقة المادة ، وحقيقة تركيبها مستقلة عن الفكر ، بل عن الدماغ وهو محمول على المادة من بعض نواحيه . ان المادة نفسها ليس لها قوام أصيل يقاس بغير مقاييس الفكر المحض ، كما تقاس الفكرة عن الروح وعن عالم التجريد والمجردات (١) .

ومن تقريرات العلماء ، يتضح أن هناك فارقا أساسيا بين علوم المادة وعلوم الحياة . وأن هناك بالذات « فارقا أساسيا بين طبيعة علوم المادة ، وطبيعة علم الانسان ، وبين طبيعة موقف العقل من هذه وتلك . وأن هذا الفارق كامن فى أمرين ثابتين ، لا يتعلقان ببيئة ولا زمان ، ولا بظروف وقتية مرهونة بالزمان والمكان هما : تعقد الأمور ، وطبيعة تركيب عقولنا .. وأن تقدم الانسان فى علوم المادة وابداعه فى العالم المادى ، وصحة بحوثه ونظرياته فى هذا الحقل . وأن هذا الحقل غير ذاك فى طبيعتهما أولا ثم فى مدى التقـدم الذى وصل اليه الانسان بالفعل ثانيا . ثم فيما ينتظر تقدم الانسان فى كليهما ثالثا (٢) » .

هذا الواقع « العلمى » من « الجهل المطبق » بالانسان ــ مع العلم النسبى بالمادة ــ كما يقول سيد قطب (٣) ــ نتيجة متوقعـة ، وثمـرة طبيعية ، لحقيقة دور الانسان فى الأرض ، وغاية وجوده الانسانى فى الكون ، كما تبدو من خلال التصور الاسلامى .. والاسلام يرتب على هذه الحقيقة نتائجها ، فيطلق يد الانسان فى عمارة الأرض ، واستخدام

---

(١) العقاد : المرجع السابق .
(٢) سيد قطب : الاسلام ومشكلات الحضارة ، ص ٢٣ .
(٣) المرجع نفسه ، ص ٢٤ .

طاقاتها وخاماتها والتحليل فيها والتركيب ، والتحوير فيه والتعديل ..
بينما هو يضع لهذا الانسان منهج حياته ، الذى يحكم هذه الحياة ، ولا يكل اليه هو وضع هذا المنهج ، لأنه مزود بطاقات معينة ليتحكم فى المادة عن علم — نسبى طبعا — بينما هو غير مزود بمثل هذه الطاقات لمعرفة نفسه ، حتى يتحكم فى أمرها عن علم كما هو يتحكم فى المادة (١) » .

فالانسان — فى التصور الاسلامى — هو سيد هذه الأرض ؛ « بخلافته فيها عن الله ، وكل ما فيها مسخر له ، بقدرة الله تعالى ، وقد أوتى امكان العلم بشؤونها هبة من الله والاستمتاع بطيباتها وجمالها ، نعمة منه خالصة ... وليست الأرض وحدها وكل ما فيها من أحياء وأشياء .. ولكن كذلك السموات مهيأة لمساعدة الانسان فى خلافته فى الأرض ، ومراعىً فى بنائها دون الانسان فى هذه الخلافة .. انه أمر عظيم هائل .. ولكنه كذلك (٢) » !

(هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ، ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات .. وهو بكل شىء عليم . واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : انى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم : انى أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ واذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر ، وكان من الكافرين ..) .

« البقرة ٢٩ — ٣٤ »

(الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من

---

(١) نفسه ، ص ٢٤ .
(٢) نفسه ، ص ٢٤ .

فضله ، ولعلكم تشكرون • وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) •

« الجاثية ١٢ — ١٣ »

(والأنعام خلقها لكم ، فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون • ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون • وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ، ان ربكم لرؤوف رحيم • والخيل والبغال والحمير لتركبوها ، وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون • وعلى الله قصد السبيل • ومنها جائر • ولو شاء لهداكم أجمعين • هو الذى أنزل من السماء ماء ، لكم منه شراب ،ومنه شجر فيه تسيمون • ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن كل الثمرات ، ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون • وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون • وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون • وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون • وعلامات وبالنجم هم يهتدون) •

« النحل : ٥ — ١٦)

ولكن هذا الانسان فى التصور الاسلامى — على حد تعبير سيد قطب (١) — « على كل ما استودعه الله من أمانة الخلافة الكبرى فى هذا الملك العريض • وعلى كل ما سخر له من القوى والطاقات والأشياء والأحياء فيه ، وعلى كل ما أودعه من طاقات المعرفة والاستعداد لادراك الجوانب اللازمة له فى الخلافة من النواميس الكونية •• على كل هذا هو مخلوق ضعيف ، تغلبه شهواته أحيانا • ويحكمه هواه أحيانا ، ويقعد به ضعفه أحيانا ، ويلازمه جهله بنفسه فى كل حين •• ومن ثم لم يترك أمر نفسه ومنهجه فى الحياة لشهواته وهواه وضعفه وجهله •• ولكن أكمل

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥ •

الله عليه نعمته ورعايته ، فتولى عنه هذا الجانب الذى يعلم — سبحانه — أن الانسان لا يقدر عليه قدرته على المادة ، ولا يعلم بمقتضيات علمه بقوانين المادة •

وأول ما ظهر من ضعفه وعجزه وخضوعه للاغراء والشهوات ما يصوره القرآن الكريم من استسلامه لاغواء الشيطان له بشهوة الخلد وشهوة الملك ، ونسيانه أنه عدوه الذى يتربص به ونسيانه كذلك تحذير الله له •• وهو تصوير الحقيقة الخالدة فى الانسان — ما لم يعتصم بالله ومنهجه للحياة — والا فهو الشقاء والنكد فى الحياة الدنيا وفى الحياة الأخرى : (ولقد عهدنا الى آدم من قبل ، فنسى ولم نجد له عـزما ، واذ قلنـا للملائكة : اسجدوا لآدم ، فسجدوا ، الا ابليس أبى • فقلنا : يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك ، فلا يخرجنـكما من الجنة فتشـقى • ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى • فوسوس اليه الشيطان : قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ فأكلا منها ، فبدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة • وعصى آدم ربه فغوى • ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى • قال : اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو ، فاما يأتينكم منى هدى : فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى • ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا • ونحشره يوم القيامة أعمى • قال : رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ؛ وكذلك اليوم تنسى • وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) ••

(طه ١١٥ — ١٢٧)

وتتواتر الاشارات الى جهل الانسان بأمر نفسه ومستقبله ومصيره ومآل أفعاله ، مع تأثره بالشهوات وبالهوى والضعف بحيث لا يصلح — بجهالته هذه وضعفه وهواه — لأن يتولى وضع منهج لحياته هو ؛ وان كان مزودا بالقدرة على استخدام المادة ، ومعرفة قوانينها اللازمة له فى الخلافة •• فى اطار المنهج الذى رسمه الله لحياته ••

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ..) .

« الروم : ٦ — ٧ »

(ويسألونك عن الروح قل : الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا ...) .

« الاسراء : ٨٥ »

(وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت . ان الله عليم خبير) ...

« لقمان : ٣٤ »

(اباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) ...

« النساء : ١٩ »

(فعسى أن تكرهوا شيئا ، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) ..

« النساء : ١٢ »

(وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون) ..

« البقرة : ٢١٦ »

« لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) .

« الطلاق ١٠ »

(ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى) ..

« النجم : ٢٣ »

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) ...

« المؤمنون : ٧١ »

(ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا) ..

« المعارج : ١٩ »

وغير هذه الاشارات في القرآن كثير ... وهى تجىء — غالبا — تعقيبا على التشريعات والتوجيهات التى يسنها الله للناس ، ويخبرهم معها أنهم هم لا يستطيعون أن يشرعوا لأنفسهم ، وليست لديهم القدرات والاستعدادات الضرورية لوضع منهج لحياتهم هم أنفسهم ، لأنهم يجهلون انفسهم ، ويجهلون مآل تصرفاتهم ورغباتهم ، ويخضعون لأهوائهم وشهواتهم ... وكلها مؤثرات تجعل من الخطر على وجودهم ، وعلى خط سيرهم فى الحياة أن يتولوا هم وضع شريعتهم وتخطيط منهج حياتهم الأصيل (١) .

فنجد هذه الاشارات فى مثل هذه المناسبات .

(ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) .

« الجاثية : ١٨ »

(يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما اتيتموهن — الا أن يأتين بفاحشة مبينة — وعاشروهن بالمعروف . فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) .

« النساء : ١٩ »

« يا أيها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة . واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن الا أن يأتين

---

(١) نفسه ، ص ٢٨ .

بفاحشة مبينة • وتلك حدود الله • ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه •• لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) •

« الطلاق : ١ »

(يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين • فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك • وان كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك — ان كان له ولد — فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه السدس — من بعد وصية يوصى بها أو دين — آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا •• فريضة من الله •• ان الله كان عليما حكيما) •

« النساء : ١١ »

كما نجد التنصيص القاطع والتشديد الحاسم — الذى لا يقبل المحال والجدال — على أنه لا يسلم المسلم ، ولا يؤمن المؤمن ، حتى يجعل منهج الله للحياة منهجه ، وشريعة الله للحياة شريعته ، ولا يتخذ من عند نفسه لحياته منهجا ولا شريعة •

وتتوالى النصوص القاطعة المؤكدة لهـذه القاعدة الأسـاسية فى الاسلام على هذا النحو :

(ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت (١) — وقد أمروا أن يكفروا به — ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ، واذا قيل لهم : تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا • فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، ثم جاءوك يحلفون بالله ان أردنا الا احسانا وتوفيقا ؟ أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ، فأعرض عنهم ، وعظهم ، وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا • وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله • ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر

---

(١) الطاغوت كل سلطان لا يستند الى سلطان الله ، وكل وضع لا يجعل شريعة الله أساسا للحياة •

سيد قطب : المرجع السابق ، ص ٢٩ •

لهم الرسول ، لوجدوا الله توابا رحيما • فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) •

« النساء : ٦٠ — ٦٥ »

(انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا — للذين هادوا — والربانيون والأحبار • بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء • فلا تخشوا الناس واخشون • ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا •• ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون •• وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص • فمن تصدق به فهو كفارة له •• ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون •• وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم ، مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين • وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه •• ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون •• وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه •• فاحكم بينهم بما أنزل الله • ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق • لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا • ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم • فاستبقوا الخيرات • الى الله مرجعكم جميعا ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون .. وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك • فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وان كثيرا من الناس لفاسقون •• أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟) ••

« المائدة : ٤٤ — ٥٠ »

وفى هذا القدر كفاية لتقرير نظرية الاسلام فى شأن « الانسان » وتسليطه على عالم المادة وتسخيره له واتيانه القدرة على معرفة النواميس الكونية اللازمة له فى الخلافة •• وفى الوقت ذاته تقرير عجزه عن معرفة

ذاته بمثل هذا الوضوح الذى يعرف به نواميس المادة — واعفائه — تبعا لهذا — من وضع منهج حياته الذاتية بنفسه : وعون الله له بوضع المنهج الملائم لكيانه وفطرته ووظيفته فى الأرض •• ثم •• الزامه باتباع منهج الله هذا ، واخراجه من دائرة الايمان والاسلام ، اذا هو لم يتخذ هذا المنهج ، أو اذا هو اتخذ لنفسه منه جانبا وابتدع هو الجانب الآخر : « واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك) •• وانذاره بسوء الحال فى الدنيا والآخرة ان هو فعل ذلك أو بعضه : (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى) •••

« طه : ١٢٤ »

(فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) ••
« البقرة : ٢٧٩ » وغيرها كثير •

ويبين لنا سيد قطب (١) : وجهة النظر الاسلامية فى حقيقة ما أعطى الانسان من الاستعداد لمعرفته وما لم يعط ، ومقتضيات هذا وذاك فى حياته •• نعود الى عناصر المأساة التى تعانيها البشرية اليوم ، باتخاذها حضارة ومناهج حياة قائمة على ذلك « الجهل المطبق » بالانسان — كما يقرر « العالم » الغربى الكبير — فنجد هذا الجهل المطبق بالانسان — الى جانب المعرفة الواسعة بالمادة — عنصرا رئيسيا فى هذه المأساة •• لا لذاته •• ولكن بسبب عدم الاعتبار به : ثم المضى معه فى اقامة مناهج للحياة البشرية ، فى معزل عن هدى الله ، بل فى عداء واصرار على تجنب هدى الله وفى نفرة منه كالتى يصورها القرآن الكريم فى قوله تعالى : (فما لهم عن التذكرة معرضين • كأنهم حمر مستنفرة • فرت من قسورة !) •••

« المدثر : ٤٩ — ٥١ »

من أجل ذلك جميعا ، يدهب جارودى الى أن الاسلام هو الحل

(١) المرجع نفسه ، ص ٣١ •

الوحيد ، وأن الحضارة الانسانية يرتبط مصيرها بالاسلام ، وحين يذهب الى ذلك ، فانه لم ينطلق من فراغ ، وانما نتيجة لبحث واستقصاء ونقد للحضارات والنظم الاجتماعية والسياسية ، قبل أن يهتدى الى الاسلام ، يقول جارودى مستخلصا من تأملاته فى الستينات لأزمة الحركة الشيوعيه الدولية ، والانفصال الصينى ، وغزو تشيكوسلوفاكيا فى عام ١٩٦٨ م ، والطريق المسدود أمام النظم المادية (١) : أن « المراجعة الأليمة أصبحت ضرورية من الآن فصاعدا للشيوعيين ولغير الشـيوعيين وللمعـادين للشيوعية .

ذلك أنه يجب طرح المشكلة فى كل عمومياتها . لقد أصبح من الأمور العادية القول : أن امكانيات الانسان قد تزايدت فى خلال عشرين سنة عنها خلال آلاف السنين . فماذا فعلوا فى الدول الرأسمالية ، وحتى فى أغنى هذه الدول من أجل تكيف العلاقات الانسانية مع هذا التحـول الضخم ؟ وماذا تم فى الدول الاشتراكية حيال نفس الموضوع ؟ .

ان الانتصار على « اللانهائيات » الثلاث قطع مرحلة حاسمة : فعند مستوى أصغر « اللانهائيات » فتحت السيطرة على الطاقة الذرية عهـد التفتت المدروس للمادة ، الأمر الذى يتيح من الامكانيات قدرا تتلاشى معه الحدود أمام ثراء وسلطة البشر .

وعند مستوى أكبر « اللانهائيات » أتاحت استكشافات الفضاء الأولى آفاقا لا حصر لها للتغيرات الانسانية ، وربما لهجرتها عبر الفضاء . لقد تم تعدى الحدود العالمية للجنس البشرى .

وعند مستوى أعقد « اللانهائيات » حققت الثورة العلمية والتكتيكية أى ثورة « العقول » الالكترونية والتسيير الآلى للانتاج ، فى خلال سنوات قليلة أكبر المساعدات فى ميدان الحسابات والتقديرات البشرية حتى أن عقل الانسان الذى تحرر من وظيفته المبدعة قد اتسعت آفاقه

---

(١) روجيه جارودى : التحول الكبير ، ص ٦ .

فجأة الى درجة أن قدراته الحقيقية تجاوزت لفترة من الزمن خياله الذى أصيب بالدوار أمام الاحتمالات الممكنة ••

وأصبح المرء يشعر ، فى نفس الوقت . أن كل شىء ممكن وأنه يوجد تخلف أليم بين الحياة التى هى فى طريق التكوين والحياة الحقيقية •

ان غالبية الطاقة الذرية تستخدم فى تكديس وسائل التدمير وليس فى وسائل الانتاج وأصبحت ملحمة الفضاء الرائعة موضوع منافسة فى ميدان العظمة « مع بيات عسكرية غير معلنة » بين الدول الكبرى •

أما بالنسبة لنتائج صبغ أنشطة الانسان بصبغة الثورة العلمية والتكنولوجية فان الشك لا يزال قائما بصددها : هل ستؤدى الى قيود وتنازلات جديدة فى ظل السيطرة التكنوقراطية أم الى تفجير لم يسبق له مثيل لامكانيات الانسان المبدعة •• امكانيات كل انسان ؟ (١) » •

ويذهب جارودى الى أن طرح المشكلة « بهذه الصورة لا يعنى العودة الى مفهوم التمييز المطلق للعوامل التكتيكية •• كما لا يعنى الاستسلام لميكانيكية تطور القوى الانتاجية وحدها والتى تنبع منها جميع أشكال الحياة الاجتماعية ابتداء من الهياكل السياسية حتى الايديولوجيات (٢) » :

ويقول جارودى :

« نحن لا نعتقد أن العالم الحالى يمكنه بالضرورة ، عن طريق التدرج التاريخى ، أن يصل الى حالة التوازن ؛ أى أننا لا نعتقد أن النظام القائم فى الولايات المتحدة سوف يصبغ بالصبغة الاشتراكية بحكم الظروف ، وأن نظام الاتحاد السوفيتى سوف يصبغ بالصبغة التحررية بحكم هذه الظروف نفسها » •

من أجل ذلك أخذ جارودى فى رحلته الفكرية يبحث عن نوع جديد من الاصلاح ، فطرح عددا من التساؤلات منها :

---

(١) روجيه جارودى : السابق ، ص ٧ •
(٢) نفسه ، ص ٧ •

- ما هي التغيرات التي تحدث الآن وما هي التناقضات الجديدة التي سوف تتمخض عنها ؟

- ما هي المبادرات الضرورية لتكييف مجموعة العلاقات الانسانية مع هذا التحول ؟

- من الذي سيعي كنه التناقضات الجديدة ومن الذي سيتخذ المبادرات الضرورية لتخطي هذه التناقضات ؟

وقد اتجه جارودي منذ الستينات الى نقد سلوك القادة السوفييت دون تحفظ ، ولا سيما منذ نبذ يوغسلافيا ومقاطعتها في عام ١٩٤٨ م حتى غزو تشكوسلوفاكيا في عام ١٩٦٨ م ؛ وتجاوز هذا النقد الى البحث عن « عقيدة » يمكنها أن تخلق علاقات اجتماعية تتمشى مع متطلبات العصر وتجعل التحول العلمي والتكنيكي الهائل يخدم تحرير الانسان في مكان ، فاقترح جارودي نوعا من التفكير المشترك حول المبادرة الكبرى الضرورية للرد على التحول الجوهري الذي يعيشه عصرنا ؛ وذلك بتقديمه مشروعات للعمل بالنسبة لأسئلة رئيسية منها :

١ — ما هو كنه الثورة العلمية والتكنيكية الجديدة ؟ وما هي نتائجها ؟ وهل تتفق متطلباتها مع متطلبات تطور الديمقراطية والتفتح المبدع للانسان ؟

٢ — ما هي التناقضات الجديدة التي سيوجدها هذا التحول في الدول الرأسمالية ، وما هي المبادرات التي اتخذت والتي يمكن أن تتخذ لتخطي هذه التناقضات ؟

٣ — ما هي التناقضات التي سيولدها هذا التحول في الدول الاشتراكية ؟ وما هي المبادرات التي اتخذت للتغلب عليها ؟ .. هل النموذج السوفيتي يتمشى مع هذا المطلب ؟ أم النموذج الصيني ؟ أم النموذج اليوغسلافي ؟ أم أن الحل يكمن في البحث عن نظام جديد للانسانية ؟

٤ — ما هى التغيرات التى تنتج عن هذا التحول فى ميدان العلاقات الدولية ؟ وما هى المبادرات التى يمكن أن تكفل فى المرحلة الحالية تنظيما عالميا للاحتياجات والموارد والآمال وذلك لتحقيق الازدهار الكامل للانسان •• كل انسان ؟

ومن هنا أعلن جارودى أنه « لم يعد من الممكن التزام الصمت (١) » • من أجل « الانسان » الذى آمن رجال العلم المخلصون بأن « الجهل به مطبق » • (٢) ، الى جانب الملابسات النكدة التى وقعت بين الكنيسة والعلماء فى أوربا ، جعلت الناس يشردون من ظل الكنيسة — ومن كل ظل الدين — شرودا لا عقل فيه ولا وعى ، ولا مجال لتحكيم العقل والوعى ، ولا لسماع أية كلمة مخلصة للتفرقة بين الدين فى ذاته والكنيسة أولا ، ثم بين قدرة الانسان على العمل فى عالم المادة وعجزه عن العمل فى منهج حياة الانسان أخيرا •

وكان لهذا الشرود أسبابه المفهومة فى أوربا •• واليك عنصرا واحدا من عناصره : كانت مناهج البحث العلمى قد نشأت — فى ظل الاسلام — فى جامعات الأندلس والشرق كما يقول دوهرفج وبريفولت — وكانت أوربا فى القرن الخامس عشر تنهل من هذه الجامعات ، وتعرف لأول مرة فى تاريخها شيئا عن هذه المناهج ، وشيئا عن المذهب التجريبى (الذى عرف به فيما بعد روجر بيكون وفرنسيس بيكون) والأول يعترف اعترافا صريحا بأنه اقتبس من « العالم » الاسلامى (٣) •

وفى هذا يقول دوهرفج :

« ان آراء روجر بيكون فى العلوم أصدق وأوضح من آراء سميه المشهور (فرنسيس بيكون) •• ومن أين استقى روجر بيكون ما حصله فى العلوم ؟ من الجامعات الاسلامية فى الأندلس • والقسم الخامس من

---

(١) جارودى : التحول الكبير ، ص ١٢ •
(٢) سيد قطب : الاسلام ومشكلات الحضارة ، ص ٣٤ •
(٣) سيد قطب : السابق ص ٣٤ •

كتابه : (Opus Majus) الذى خصصه للبحث فى البصريات ، هو فى حقيقة الأمر نسخة من كتاب المناظر لابن الهيثم ، وكتاب بيكون فى جملته شاهد ناطق على تأثره بابن حزم •

ويقول بريفولت فى كتابه : « بناء الانسانية » Making of Humanity « أن روجر بيكون درس اللغة العربية ، والعلم العربى ، والعلوم العربية فى مدرسة أكسفورد ، على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس » وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب اليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى • فلم يكن روجر بيكون الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين الى أوربا المسيحية • وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة •• والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى ، هى طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية . وقد كان منهج العرب التجريبى فى عصر بيكون قد انتشر انتشـــارا واسعا ، وانكب الناس ، فى لهف ، على تحصيله فى ربوع أوربا » •

« لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ولكن ثماره كانت بطيئة النضج •• ان العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى أسبانيا ، لم تنهض فى عنفوانها الا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام • ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد الى أوربا الحياة ، بل ان مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الاسلامية بعثت باكورة أشعتها الى الحياة الأوربية (ص ٢٠٢) •

« أنه على الرغم من أنه ليس تمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوربى الا ويمكن ارجاع أصلها الى مؤثرات الثقافة الاسلامية بصورة قاطعة ، فان هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما تكون ، فى نشأة تلك الطاقة التى تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهاره • أى فى العلوم الطبيعية ، وفى روح البحث العلمى (ص ١٩٠) •

« ان ما يدين به علمنا للعرب ليس فيما قدموه الينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة • بل يدين لها بوجوده نفسه • فالعالم القديم — كما رأينا — لم يكن للعلم فيه وجود • وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم ، وأخذوها عن سواهم ، ولم تتأقلم فى يوم من الأيام فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية • وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات • ولكن أساليب البحث فى دأب وأناة وجمع المعلومات الايجابية وتركيزها والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبى ، كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليونانى • ولم يقارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم الا فى الاسكندرية فى عهدها الهلينى • أما ما ندعوه « العلم » فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ؛ ولطرق من الاستقصاء مستحدثة ، بطرق التجربة والمقاييس وتطور الرياضيات الى صورة لم يعرفها اليونان • وهذه الروح وتلك المناهج أوصلها العرب الى العالم الأوربى (ص ١٠٩) •

وعندما انتقل المنهج الاسلامى الواقعى التجريبى الى العقلية الأوربية كما يقول سيد قطب (١) : « اتجه الفكر الغربى الى البحوث التجريبية • وبدأ البحث العلمى يكشف حقائق فلكية وجغرافية وطبيعية ؛ غير تلك المجموعة من الأوهام والأساطير والخرافات التى تتبناها الكنيسة وتعتبرها « حقائق مقدسة » وهى ليست من النصرانية فى شىء ، انما هى مجرد أفكار — غير علمية — كانت شائعة فى تلك الأزمان — ولم يتنزل بها كتاب من عند الله — فتبنتها الكنيسة ، ودافعت عنها بوصفها جزءا من « العقيدة » •

« وعندئذ كان ذلك الفصام النكد بين الدين والعلم حتى مطالع القرن العشرين فى أوربا ، وظل اندفاع الناس — والعلماء خاصة — فى شرودهم الآبق عن الدين كله (كأنهم حمر مستنفرة • فرت من قسورة) •• ولم يهدأ هذا الشرود — شيئا ما — الا فى مطالع القرن العشرين • حيث جعل

---

(١) سيد قطب : المرجع نفسه ، ص ٣٦ •

بعضهم يقف ليلتقط أنفاسه اللاهثة ، وهو يحس بالخواء الروحي من آثار الرحلة الجاهدة في التيه المقفر ، نحو أربعة قرون ...

يقول سيد قطب :

« وما بنا — في هذا البحث المجمل — أن نستعرض بالتفصيل كل الملابسات والظروف » التي أحاطت بهذا الفصام النكد — في أوربا — بين العلم والدين (١) ، ولا أن نصف بالتفصيل كذلك تلك الرحلة الشاردة الطويلة المجهدة في التيه المقفر ، ولا أن أتصور بالتفصيل مدى اللأواء والشقوة التي عانتها البشرية كلها ، وهي تشرد من الله ، وتتخلى عن كل ظل لمنهجه للحياة . وتعادي هذا المنهج وتبتدع لنفسها — بجهلها المطبق — مناهج من عند أنفسها طوال هذه القرون » .

ما هي الثورة العلمية والتكنولوجية الجديدة ؟

في الاجابة على هذا السؤال يقول جارودي في « التحول الكبير (٢) : « تبدو نهاية القرن العشرين لمن يكتفي بالنظر الى المشهد الذي تعطيه على السطح ، كضرب من ضروب الفوضى بسبب النزاعات التي تندلع من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب .. والثورات الوحشية التي تبدو كأنها تدميرية فقط والأوامر الكاذبة التي تلقى لغير ما غاية أو هدف .

ولكن ، هل هذه التقلصات التي تعتبر أكثر عمقا بكثير من تلك التي تميزت بها نهاية العالم القديم هي مقدمة لعهد الظلمات والتدمير الذي للجنس البشري ؟ .. ان هذا ليس مستحيلا .

ولكن نهاية هذا القرن العشرين بالنسبة لمن لا يكتفي بالمشاهد

---

(١) يراجع بتوسع في هذا الموضوع كتاب سيد قطب : « المستقبل لهذا الدين (فصل) الفصام النكد » .

(٢) جارودي : التحول الكبير ، ص ١٣ .

السطحية ، ومن يبحث عن وحدة الأحداث ومعناها ، ليست فقط بوتقة تتجمع فيها آمال آلاف السنين الغابرة أو خرافة عصر لا نعرفه .

ألا يمكن أن تكون هذه الأزمة الكلية من النوع الايجابى الذى يكشف عن أعمق تحول للانسان منذ اكتشاف أدوات العمل والنار ؟ .

وربما لا تكون نهضة ــ فنهضة القرن السادس عشر تبدو بجانبها « ريفية » وضئيلة القيمة ، بل بعثا حقيقيا « للانسان الانسانى » .

ولكن ما هو كنه « ذلك » الجنين .. وماذا يجب علينا أن نفعله حتى لا يخرج مبتسرا ؟ لأن ذلك أمر ممكن .

اننا نريد دراسة هذه المسائل ابتداء من ملاحظات تخص أحداث السنتين الأخيرتين والمعنى العميق لأربع مجموعات من الأحداث لا اختلاف ، بينها فى رأينا :

- ☐ حركة الطلبة .
- ☐ اضراب العمال .
- ☐ المساهمة الكبيرة « للكوادر » فى هذه الاضرابات .
- ☐ الاتجاه السياسى الجديد لتشيكوسلوفاكيا من شهر يناير حتى أغسطس ١٩٦٨ م .

تعتبر حركة الطلبة ــ المرتبطة بحركة « الكوادر » [illegible] هذه الحركات دلالة على ظهور وضع جديد . وعلى هذه الحركة [illegible] أن تواجه نفس المشكلة ، ونعنى بها اندماجها فى جهاز الانتاج وهو اندماج فورى بالنسبة للفنيين والمهندسين « بالكوادر » ، واندماج لاحق بالنسبة للطلبة .

ان صفة الشمول لثورة الطلبة [illegible]
التى هى فى نفس الوقت مشكلة « الكوادر » [illegible]

طابع الشمول وأحيانا التزامن الذى اتصفت به الحركات الطلابية لا يجب أن يخفى عنا اختلافات هذه الحركات العميقة تبعا لانتمائها لدول العالم الثالث أو للدول الرأسمالية المتقدمه أو للدول الاشتراكية • ان الحركة الطلابيه فى بلد ليس بعيد العهد بالقهر الاستعمارى ، تكمل الحركة الوطنية وتقف فى وجه تسويات الاستعمار الجديد • أما فى بلد رأسمالى متقدم فان مبدأ مجتمع الاســتهلاك نفســه والنظام الاستبدادى الذى كثيرا ما يلازمه يكونان هما هدف التمرد •

والأمر فى البلد الاشتراكى يعنى فى نفس الوقت ادانة الاتجاه صوب مجتمع يمكن أن يشبه المجتمعات الرأسمالية الاستهلاكية ، وكذلك الثورة ضد الأشكال البيروقراطية للدولة • وليس من المستبعد أبدا استغلال هذه الحركات ، فى جميع الأحوال ، لأغراض ليست ثورية بل رجعية بواسطة القوى التى تعمل على الحفاظ على الفوضى القائمة •

ولا يستطيع المرء أن يستبعد كذلك ما أطلق عليه اسم الظــواهر « المشعة » التى تلهب حماس جماهير الطلبة وتخلق تيارات تتعدى الحدود الوطنية حول مشكلات تتعدى بدورها هذه الحدود مثل النضال العالمى ضد حرب فيتنام ، أو بالظواهر « المعدية » كظواهر الثورة الثقافية فى الصين أو ما تثيره بعض نماذج السلوك الثورى كسلوك شى جيفارا من حماس أو التهافت على بعض الأيديولوجيات ، مثل فلسفة « ماركولاس » مثــلا •

ولكن لا يجب أن يخفى شىء من هذا عن أعيننا ما هو جوهرى أى الأسباب العميقة لهذه الحركة العامة التى تجرف جماهير الطلبة والتى تخلق للكوادر مشكلة رئيسية •

ان مجرد أن بعض الحركات الطلابية استطاعت أن تتخذ شــكلا حادا فى الدول الرأسمالية والدول الاشتراكية على السواء يدل على أن الأمر ليس فقط ثورة ضد علاقات الانتاج القائمة ـــ على الرغم من أهمية النضال ضد علاقات الانتاج ـــ كما يدل على وجود عامل مشترك لجميع هذه الحركات يجب البحث عنه فى تطور القوى الانتاجية •

وفى رأى جارودى — أن جوهر المشكلة — ومنبع هذه الحركات التى تتميز عن بعضها البعض ظاهريا — يتمثل فى أن تطور الانسان الكامل يصبح عند مرحلة معينة من مراحل تطور القوى الانتاجيـــة « المرحلة الحالية للثورة العلمية والتكنولوجية » الشرط الضرورى للتطور التاريخى •

ان ما يطفو على السطح بقوة لدى الطلبة والكوادر ، وكذا لدى العمال وفى فرنسا كما فى تشيكوسلوفاكيا ، أو الولايات المتحدة ، انما يمثل « الذاتية » الانسانية لعصر الثورة العلمية التكنولوجية ضد الميكانيكية العمياء للمدنية الصناعية •

والعامل المشترك للمطالبات العمانية ولتساؤلات الكوادر ولآمال الطلبة يكمن فى المطالبة بالمساهمة فى المبادرة التاريخية وفى القـــرارات التى يتوقف عليها مصيرهم وذلك فى ميادين الاقتصاد والسياسة والثقافة • أن وراء جميع حركات عامى ١٩٦٨ — ١٩٦٩ م الرفض فى الاندماج فى نظام ، بدون مناقشة معنى هذا الاندماج وقيمته وغاياته •

ان السلطات الجديدة التى حصل عليها الانسان فى الثلث الأخير من القرن العشرين ليست ببساطة امتدادا للسلطات القديمة • فنحن يمكننا أن نكتشف فى ربيع عام ١٩٦٨ فى باريس كما فى براغ العلامات الدالة على أزمة نمو هائلة وعلى حدوث تغير « كيفى » فى مصير الانسان • لقد بلغنا عتبة مرحلة جديدة •• فالسلطات الجديدة التى فاز بها الانسان فى نضاله مع نفسه ومع بيئته يمكنها أن تغير من طبيعته بنفس العمق الذى حدث منذ آلاف السنين عند اكتشاف أدوات العمل ••

وهذه الهزات التكنولوجية ما زالت فى بدايتها ويمكن للانسان أن يتوقع أنها سوف تفجر بالتدريج ثورة دائمة لجميع عناصر الحياة ، وقد يكون هذا الثلث الأخير للقـــرن العشرين هو عهـــد الفـــروق المتزايدة والتوترات الأكثر حدة أو قد يكون ، على العكس عهد التحول الذى ينفتح بالتغلب على هذه الفروق والتوترات بأكملها •

وهنا يحق التساؤل هل سنستطيع أن نسيطر على تقدم التكنولوجيا أم سنضطر الى الخضوع له فى جو من الفوضى ؟

ان لتفاؤلنا أساسا تاريخيا موضوعيا • وبوسعى أن أقول على غرار العبارة الشهيرة (١) : « قليل من التكنولوجيا يبعدنا عن الانسان وكثير من التكنولوجيا يقربنا منه » ••• فاذا كانت تكنولوجيا « عصر التصنيع الذى تميز به القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين قد عملت على سحق « ذاتية » الانسان فان تكنولوجيا الثلث الأخير من القرن العشرين يمكنها أن — تخلق شروط انفجار « الذاتية » الانسانية ، وذلك منذ اللحظة التى تظهر فيها ، بصرف النظر عن أى اعتبار أخلاقى أو انسانى : ومن وجهة نظر الانتاجية والربح البحتة ، « وباستثناء مشكلة توزيع الموارد » فان الاستثمار الانسانى عند مرحلة معينة من مراحل التكنولوجيا هو أكثر الاستثمارات ربحا » •

ثم يتحدث جارودى عن :

١ — التحــــول :

« الشرط الأول لدراسة هذه المشكلة هو ادراك كنه التحول الجوهرى الجارى تحقيقه الآن » •

١ — ان الثورة التى تفجرت « فى » العلم مهدت الطريق لظهور ثورة « بطريق » العلم • لقد جاء التحول الحالى نتيجة لتراكم الاكتشافات — منذ بداية العصر — عند مستوى البحوث الجوهرية فى ميادين الطبيعة النووية وكيمياء الذرة وعلم « السوبرناطيقا » (٢) والبيولوجيا وعلم الاجتماع — اننا نعاصر تغيرا فى العلم نفسه فمفاهيم علم

(١) العبارة التى يشير اليها جارودى : هى قول أحد الفلاسفة « قليل من الفلسفة يبعدك عن الله وكثير منها يقربك منه » •

(٢) الذى يدرس طبيعة عمل « الحركة » وطرق التحكم فى الآلات وتوجيه الكائن البشرى على حد التعريف الذى أورده معجم « لاروس » .

« السوبرناطيقا » حلت محل « الميكانيكية » كعلم قائد — كما نعاصر تغيرا فى مفهوم العلم ، فهناك « ديالكتيكية » جديدة فى طريق التبلور للكائن وللمادة • ويبدو أنه لا يمكن مجافاة للروح التجريبية والأسلوب الايجابى ، تحريف العالم الموضوعى بعيدا عن الانسان الذى يسبق الحقيقة الموضوعية بافتراضاته ونماذجه •

فالحقيقة العلمية هى دائما رد على سؤال •• والرد هو دائما — والى حد كبير — تجسيد وظيفى للسؤال المطروح •

٢ — تتبلور الثورة « بطريق » العلم عندما تنعكس نتائج هذه الثورة « فى » العلم على الجهاز الفنى للانتاج •

ان كون العلم قد أصبح أكثر فأكثر ، فى الثلث الأخير من القرن العشرين قوة انتاجية فورية ، أمر يثبته جارودى على النحو التالى :

(أ) لقد أصبحت الفترة الزمنية التى تفصل ما بين الاكتشاف العلمى والتطبيق العملى لهذا الاكتشاف واستخدامه الصناعى ، تميل الى التناقص باستمرار • لقد مرت ١٠٢ سنة قبل أن تستخدم عمليا وتنفذ صناعيا الاكتشافات التى جعلت التصوير الفوتوغرافى أمرا ممكنا (١٧٢٧ — ١٨٢٩ م) ولم يستغرق نفس الانتقال بالنسبة للتليفون سوى ست وخمسين سنة (١٨٢٠ — ١٨٧٦ م) وبالنسبة للراديو سوى خمس وثلاثين سنة (١٨٦٧ — ١٩٠٢ م) وبالنسبة للتلفزيون سوى أربع عشرة سنة (١٩٢٢ — ١٩٣٦ م) وبالنسبة للقنبلة الذرية سوى ست سنوات (١٩٣٩ — ١٩٤٥ م) ، وبالنسبة للراديو « الترانزيستور » سوى خمس سنوات (١٩٤٨ — ١٩٥٣ م) والنتيجة الأولى لدور العلم المتزايد كقوة منتجة بطريقة فورية هو احتلال العمل الذهنى مكانة تزداد أهمية فى اطار العمل الانتاجى ككل •

وان ازدياد عدد الكوادر والطلبة ذلك الازدياد الضخم ، ليعد مؤشرا لهذه الحالة • وهناك احصائية خاصة بسبعين دولة تشير الى أن عدد

الطلبة قد ازداد خلال الفترة من عام ١٩٥٥ م الى عام ١٩٦٤ م من ٧ر٥ ملايين الى ٢٠ مليون طالب أى أن هذا العدد تضاعف ثلاث مرات •

وتبلغ نسبة المهندسين الى مجموع العمال فى الولايات المتحدة الأمريكية ١٠٪ وتصل هذه النسبة فى صناعة الطائرات الى ١٣٪ وفى الصناعات البترولية ٥ر٢٠٪ وفى الصناعة الذرية ١ر٣٤٪ وتتكرر فى هذا المجال ظاهرة مشابهة لتلك التى تبلورت أثناء الثورة الصناعية حيث عكست حركة التصنيع سريعا العلاقة العددية بين العمال الزراعيين والعمال الصناعيين وأن ما بدأ يظهر فى الأفق اليوم هو انعكاس مشابه للعلاقات العددية بين العمال اليدويين والعمال الذهنيين (المثقفين) •

(ب) وتعبر هذه الثورة عن نفسها بانعكاس آخـر ويعنى به — جارودى — انعكاس العلاقات بين العالم والتكنولوجيا •

على الرغم من أنه لا يمكن فى هذا الميدان — كما فى غيره — الاكتفاء بعلاقات ميكانيكية بحتة فى اتجاه واحد بين العلم والتكنولوجيا وعلى الرغم من وجود عملية تلقيح متبادلة وعلاقات ديالكتيكية بين التكنولوجيا والعلم فانه يمكن القول بأن ظاهرة جديدة قد بدأت تتبلور •

كانت متطلبات التكنولوجيا والانتاج حتى أواسط القرن العشرين هى المحرك الرئيسى للتقدم العلمى • والمثال التقليدى على ذلك هو اكتشاف القوانين المجردة فى علم الطبيعة والخاصة بالعـلاقات بين الظـواهر الميكانيكية والحرارية فى بداية القرن التاسع عشر « مبدأ كارنو — جول وماير » والتى نجمت عن أبحاث المهندسين الخاصة بالانتاجية القصوى للآلات البخاريه •

ويبدو أن هذه العلاقة تميل الى الانعكاس بعد اجتياز مرحلة معينة ، حيث يصبح التقدم العلمى عاملا محركا لتطوير الانتاج ، وهو يجذب هذا الانتاج اليه لأنه يسبقه بدلا من أن يتبعه • وقد سـبقت نظـريات « اينشتاين » استخدام الطاقة الذرية وارساء قواعد تكنولوجية ذرية •

كما أن مولد علم « السوبرناطيقا » قد سبق استخدام الحاسبات الالكترونية •

ان العلم بدأ يشق طريقا خاصا به ، مستقلا عن القوة المحركة طريقا تمهده متطلبات الانتاج •

ويبدو أن هناك قانونا تاريخيا قد بدأ يتبلور : فبقدر تقدم الدولة اقتصاديا وتكنولوجيا بقدر ما يعتمد تقدمها الاقتصادى والاجتماعى ، مباشرة على تقدم العلم •

ففى الولايات المتحدة الأمريكية تزيد بنود الانفاق على عمليات البحث (العلمى) على مجموع الاستثمارات الأخرى (٢٠ مليارا من الدولارات) ويتضاعف عدد الباحثين فى الولايات المتحدة الأمريكية ، كما فى الاتحاد السوفيتى كل سبع أو ثمانى سنوات •

(ج) تعبر هذه الثورة عن نفسها عن طريق التغير فى مفهوم التكنولوجيا نفسه • فمفتاح التغيرات من وجهة النظر التكنولوجية — موازاة لما هو حادث ففى ميدان العلوم من حيث أن العامل الالكترونى يلعب دورا تزيد أهميته شيئا فشيئا بالنسبة للعامل الميكانيكى — كما قال ماكلوهان — يبدو فى حقيقة أن « الاتصالات Communications » بالمعنى الواسع لهذه الكلمة « أى بمعنى توسع جسد وحواس الانسان » بدأت تحل محل العمل (١) كأساس للنظام التكنولوجى •

وهكذا يتلخص الانعكاس الكبير فى احلال مبدأ « السوبرناطيقا » محل المبدأ الميكانيكى الأمر الذى ينجم عنه نتيجتان فوريتان :

١ — كانت حركة التصنيع تؤدى الى تقسيم — وتحليل — متزايد للعمل أما الثورة العلمية والتكنولوجية الجديدة فتعكس حركة الثورة الصناعية فهى لا تهدف فقط للتحليل بل للابتكار والابداع •

---

(١) استخدم جارودى كلمة العمل هنا بمعنى ضيق وعامى للغاية ! القوة العضلية للانسان التى تستخدم للتاثير على الأشياء . ويقول ماكالوهان أن المعرفة تلعب دورا متزايد الأهمية فى مفهوم العمل نفسه .

٢ — وتتولد عملية انعكاس ثانية من عملية الانعكاس الأولى ، ويعنى بها جارودى انعكاس علاقات الكائن والأشياء . ففى حين كانت طريقة الانتاج الصناعى تعمل على اخماد ذاتية العامل الذى كان يقتصر عمله على خدمة ميكانيكية معينة الأمر الذى جعل منه شيئا يخضع لشىء (الآلة) التى كان تابعا لها ، فان صبغ الانتاج والادارة بالصبغة « السوبرناطيقية » يعمل على وضع الانسان على هامش الانتاج المباشر ويحدد دوره .

— عند « منبع » الآلة : لعمليات التحليل ووضع البرامج .

— عند « مصب » الآلة : لاصدار القرارات والتوجيه .

— وعند مستوى الآلة للقيام بعمليات الاشراف وذلك بزيادة عدد وظائف عمال الصيانة والاصلاح الذين يطالبون بالتمتع بنظرة عامة شاملة لمجموع العملية التكنولوجية « مع بقائها مع ذلك جزئية ومحصورة فى حيز التخصص » :

ودور العامل عند هذا المستوى يتطلب :
القدرة على تحديد المشكلات .

٣ — تتمخض تلك الثورة « فى » العلم والثورة بالعلم التى تنجم عنها سلسلة من النتائج ، وفى مقدمتها نتائج اقتصادية . ويجب أن يتفادى المرء هنا خطأين :

— الخطأ الأول هو الاعتقاد أننا بصدد « قطيعة » مفاجئة وفورية . فهناك فى الحقيقة اختلافات كثيرة فى المستويات التكنولوجية والأنظمة الاجتماعية ويوجد فى جميع الدول المتقدمة اقتصاديا تلاحم بين النتائج القديمة للثورة الصناعية — تلك النتائج التى ما زالت تحدد الى حد بعيد معالم الحياة — وبين نتائج الثورة الجديدة العلمية والتكنولوجية التى بدأت تعصف بجميع مظاهر الحياة .

— والخطأ الثانى الذى لا يجب ارتكابه هو الاعتقاد بأن هذا التحول

سيكون انعكاسا سلبيا لتغيرات الهياكل الأساسية • فنحن سنواجه فى الحقيقة سلسـلة من « البدائل » انفتـاح أفق جديد « للممكنات » ولهذا فانه لا يوجد هنا أى تحديد ميكانيكى ، فاختيارات الانسان وأعماله ونضاله هى التى ستحسم الأمور • ونحن عندما ندرس النتائج الاقتصادية للتحول الكبير فلن يسعنا الا الحديث عن قوانين « اتجاهية » والآن ما هى — مع أخذ هذه التحفظات فى عين الاعتبار — النتائج الاقتصادية للتحول ؟ ••

١ — تكوين « نموذج » جديد للتنمية :

(ا) فعوامل التنمية الجديدة تصبح : التجديد التكنولوجى والتعليم «مع العلم بأن العاملين ما زالا يخضعان لسباق التنافس » لقد كانت التنمية الاقتصادية حتى الآن تعتمد قبل كل شيء ، على تراكم رأس المال وازدياد عدد العمال • أما من الآن فصاعدا فسوف تعتمد أكثر فأكثر على المستوى الذى بلغه البحث العلمى ، وعلى التوسع السريع للأنظمة التى تخضع كلية لعلم « السوبرناطيقا » وعلى مستوى جودة العمال المبتكرين الذين يشرفون — ويخططون — على عمليات الانتاج والادارة (١) •

وبعبارة أخرى فان العوامل « الكيفية » و « الكثيفة » للتنمية « تطبيق العلوم — تجديد التكنية — الارتقاء بمستوى التخصص والادارة » تتغلب على العوامل الكمية وغير الكثيفة « زيادة عدد الآلات وحجم العمالة » •

(ب) أما النتائج بالنسبة للعمالة ؛ فتبدو ، لأول وهلة محيرة :

١ — يمكن أن نتوقع أن يتمخض انتشار التسيير الآلى انتشـارا سريعا فى عمليات الانتاج ، من وجهة النظر الكمية ، عن الحاق الضرر

---

(١) يجب صقل هذه الملاحظات بسبب الحدود التى تفرضها على هذا الاتجاه العام مشكلات توزيع الموارد ، فالباحث فى ميدان طبيعيات القوى المحركة الحديثة مثلا يكلف سنويا ٥٠٠,٠٠٠ فرنك (٥٠ مليون فرنك قديم) : جارودى •

(جارودى)

بعدد كبير من العمال ومن اندلاع أزمة بطالة تكنولوجية خطيرة فى المدى القصير • ولكن الحقائق لا تؤيد هذه المخاوف •

ففى الولايات المتحدة حيث يتسم هذا التطور بالسرعة (١) نجد معدل البطالة ، على الرغم من الزيادة السكانية (ثمانية ملايين نسمة سنويا) يميل منذ عام ١٩٦١ م الى الانخفاض • فبعد أن كان هذا المعدل ٧ر٦٪ فى عام ١٩٦١ انخفض الى ٢ر٥٪ عام ١٩٦٤ ، ٧ر٤٪ عام ١٩٦٥ م ، ٤٪ عام ١٩٦٦ م ، ومن المتوقع أن ينخفض الى ٥ر٣٪ عام ١٩٦٨ م وتدل الشواهد على أن فرص العمل ستميل الى الزيادة حتى عام ١٩٧٥ م وتكثر فرص العمل هذه بوجه خاص بالنسبة للعمال المهرة المتخصصين أما حجم العمالة غير المتخصصة فسيظل على ما هو عليه •

وباختصار فان التسيير الآلى فى ميدان الانتاج ينجم عنه «فى المدى القصير ، نقل العمل — من قطاع الى آخر — لا الغاؤه • أما فى المدى الطويل ، وبشرط أن تتناسق العلاقات الاجتماعية مع هذا التطور الجديد للقوى الانتاجية ، فمن المتوقع أن يؤدى التسيير الآلى الى تقصير يوم العمل وزيادة أوقات الفراغ •

٢ — هل سيؤدى انتشار التسيير الآلى فى ميادين الانتاج الى زيادة عدد العمال المهرة المتخصصين أو الى القضاء على مهارات وتخصصات الجمهرة الكبيرة من العمال ؟ • يمكننا فى هذا المجال أيضا أن نتوقع ، فى المدى القصير تحقيق الافتراض الأخير ولكن الحقيقة غير ذلك •

لقد كان الاتجاه العام حتى أواسط القرن العشرين — وفى فرنسا حتى قرابة عام ١٩٥٥/١٩٥٦ — هو « القضاء على المهارات » ونتيجة لذلك ارتفعت نسبة العمال غير المهرة ولكن فى خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة بدأت هذه الحركة تنعكس ويجب أن نضيف أن مفهوم

---

(١) وهى سرعة نسبية ، فامكانيات نظام التسيير الآلى لا تستغل فى الولايات المتحدة الا بنسبة ١٠٪ تقريبا . أما فى أوربا فهذه الامكانيات لا تستغل الا بنسبة ١٪ فقط .

التأهيل المهنى نفسه قد تطور ، فالتأهيل المهنى ، وخاصة فى القطاعات القيادية — الصناعات الالكترونية « البتروكيميائية » .. الخ .. — لم يعد فقط ذلك التأهيل الذى يكتسبه صاحبه مرة واحدة عند دخوله المهنة عن طريق تدريب متخصص ، بل لقد أصبح « أكثر فأكثر بسبب انتشار التسيير الآلى فى ميادين الانتاج والادارة ، يكمن فى قابلية العامل الألمام بجميع العملية التكنولوجية حتى يستطيع تفسير مؤشراتها كما أصبح هذا التأهيل بسبب التغيرات السريعة فى القوى الانتاجية يكمن فى الاستعداد للتدريب المستمر .

وهكذا فالظاهرة الجديدة تتمثل فى القدر المتزايد لشكل معين من أشكال الثقافة العامة فى ميدان التأهيل المهنى (١) . تشير تقديرات أمريكية وتشيكية وسوفيتية الى أن ٧٠٪ من العمال فى المجتمعات الاقتصادية المتقدمة سيتمتعون ، خلال العشرين سنة القادمة عند دخولهم المهنة ، بثقافة عامة يعادل مستواها المستوى المطلوب للانخراط فى سلك التعليم العالى ولنقل مستوى نهاية الدراسة الثانوية .

(جـ) تتطلب الثورة العلمية والتكنولوجية الجديدة أشكالا جديدة فى ميدان الادارة لقد كان التركيز الى أقصى حد ممكن فى مجال المبادرة واتخاذ القرارات هو أكثر عوامل الادارة ربحا منذ نصف قرن مضى أى فى الوقت الذى كانت تسود فيه نظريات المهندس « تايلور » الخاصة بالتنظيم العلمى للعمل . وتعكس الثورة العلمية والتكنولوجية الجديدة ، بالنسبة لهذه النقطة كذلك الأوضاع ذلك أن ما يعد أكثر ربحا من الآن فصاعدا هو تعدد المراكز التى تتخذ المبادرات — الاقتصادية — والقرارات . وهو ما يحتم زيادة عدد الكوادر الفنية والادارية زيادة ضخمة ويفسر منحنى العمالة الذى أشار جارودى اليه آنفا .

والتحول فى هذا الميدان يعنى احلال التنظيم العلمى ذى الطابع

---

(١) الثقافة كما كتب « كانت » هى تأكيد الاستعداد والمقدرة لدى الكائن العاقل من أجل أية غاية بوجه عام ، اننا ما زلنا بعيدين جدا عن هذا التعريف .

« السوبرناطيقى » محل التنظيم العلمى ذى الطابع الميكانيكى فى وسائل ونظم الادارة •

فتنظيم « تايلور » للعمل يعكس التنظيم ذى الطابع الميكانيكى فى شكله الكامل وكان هذا التنظيم يتميز بمعاملة الانسان معاملة الأشياء وبالتالى باهمال ذاتيته تماما •• لقد أجاب « تايلور » على جماعة من العمال جاءت لتقترح عليه بعض التغيرات فى تنظيم عملهم بقوله : « ان التفكير يبطىء ردود الفعل اللاشعورية • انى أمنعكم من التفكير ، فهناك آخرون يتقاضون أجرا من أجل ذلك » ونموذج هذه الادارة مستوحى من المفهوم الموضوعى للتنظيم العلمى ذى الطابع الميكانيكى حيث مصدر الدفع (للعمل) واحد وحيث يتردد هذا الدفع خلال أجهزة سلبية نتيجة لقرار مباشر وتبعا لتدرج رئاسى محدد تحديدا تاما حتى انه لا يوجد فى نهاية المطاف غير شخص واحد يفكر ويقرر للجميع •

لقد رأينا كيف أن الثورة العلمية والتكنولوجية الجديدة تتطلب عند مستوى الانتاج ، القدرة على التركيب والتجميع وعلى التساؤل وعلى التجديد الأمر الذى يحتم مساهمة ايجابية لا سلبية فى اتخاذ القرار • ومن هنا أصبح من غير الممكن ، فنيا اغفال ذاتية المرؤوسين بل على العكس فان ذاتية هؤلاء المرؤوسين تصبح عاملا جوهريا المتنبيه •

وهكذا أصبح على التنظيم العلمى الجديد للادارة أن يتبنى بالضرورة مبدأ احلال تنظيم من نوع جديد محل التنظيم السابق ذى الطـابع الميكانيكى على أن يتضمن التنظيم الجديد فترة « الأثر الرجعى » تلك الفترة التى تتخذ خلالها مبادرات متعددة تصل الى مستوى كوادر الادارة الدنيا • وهكذا يصبح عمل الادارة من الآن فصاعدا : هو تنسيق وتوجيه مجموعة معقدة غير نابعة من مراكز « الابتكار » تتمتع بقدر معين من الاستقلال الذاتى يتداخل ويتشابك نشاطها باستمرار ، وذلك بدل اصدار وفرض التعليمات الجامدة •

ويبدو أن الحاسب الالكترونى يمكن أن يقف فى هذا المجال ضد تيار

هذا الاتجاه طالما أنه يكفل امكانية مركزية الادارة الى أقصى درجة وبالتالى مركزية اتخاذ القرارات ، ولكنه يسمح كذلك بنشر البيانات ، وبوضعها فى النهاية فى متناول « الجميع » وبمعنى آخر فانه يتيح « للجميع » اتخاذ المبادرات والقرارات بطريقة مستقلة .

ان الحاسب الالكترونى يحتم نظاما متناقضا لنظام « تايلور » :

(د) الأهمية المتزايدة لأوقات الفراغ تجعل من الممكن تنمية « الذاتية » ليس فقط (فى) العمل بل كذلك (خارج) العمل .

كانت فترة راحة العامل فى مرحلة التصنيع عبارة عن الوقت الضرورى بيولوجيا للمحافظة على قوة العمل وفى أحسن الظروف لتكاثر هذه القوة . وفى هذه المرحلة لا ينفصل وقت الفراغ عن العمل بل يكون أحد مقتضياته الدنيا . ولهذا لم يكن من الممكن أن يؤدى الى تفتح وازدهار الشخصية .

ووقت الفراغ ، على هذه الصورة . لا يمكن الا أن يكون سلبيا لا ايجابيا مبدعا . ان وقت الفراغ الضرورى لمتطلبات الثورة العلمية والتكنولوجية الجديدة هو من نوع آخر .

تشير تقديرات جان فوراستييه (الأربعين ألف ساعة) وهى تقديرات قريبة جدا من التنبؤات السوفيتية الى أنه من الضرورى أن يطول وقت الفراغ حتى يصل الى ثلاثين ساعة على الأقل الأمر الذى يفترض تقصير مدة العمل الى ثلاثين ساعة أسبوعيا بالنسبة لأربعين أسبوع عمل فى السنة .

وتثير الحركة الانعكاسية هنا الدهشة لأنه لأول مرة فى تاريخ الانسان يفوق وقت الفراغ فى حياة كل فرد وقت العمل .

ولن يكون هذا التغير من النوع الكمى فقط فلن يصبح هناك فقط أوقات فراغ أكثر من أوقات العمل بل سيكون أيضا تغيرا كيفيا : لقد كان وقت الفراغ حتى الآن — والذى كان له دور ثانوى مصلح للأضرار

التى يحدثها العمل أو معوض لها — بمثابة « تسلية » ، تأجيـل مؤقت لحياة العمل اليومية • وكان الغرض منه هو استعادة النشاط بتوفير القوى لأقصى حد ممكن وذلك بمشاهدة حفل والتمتع به بطريقة سلبية أو بالاشتراك فى لعبة أو عمل يدوى فى البيت بقصد التسلية .تكمن فيه نواة الحياة المبدعة أو بتعويض وهمى يقف عند حدود الحياة الحقيقية — مرتادو المدرجات الرياضية — مشاهد السينما فى أمسيات السبت المشغوف بنجومها — •

ويعكس الاستهلاك المادى أو الروحى « للتقاليـع » أو للقصص المصورة فى الصحافة أو لمجلات الرياضة أو السينما التى تكرس صفحاتها لمغامرات « النجوم » عيوب نظام الانتاج ؛ ويعمل على زيادتها •

وسوف تفرض مشكلة جديدة نفسها ليس فقط عندما يصبح وقت الفراغ أطول من وقت العمل بل عندما لا تعد غاية وقت الفراغ — بعد أن يحرر العمل النشاط المبدع للانسان — هى تعويض التعب ، بل اشتعال جذوة الابداع والابتكار كما يحدث اليوم بالنسبة للباحث أو الفنان الذى تلغى بالنسبة له المسافات بين العمل والفراغ •

ماذا سيصبح وقت الفراغ عندما لا يصبح العمل هو « الجزية » الضرورية لاشباع الرغبات ؟ •• وماذا سيصبح وقت الفراغ عندما لا تصير الأخلاق ، كما هو حادث فى عالم القحط وعدم الإكتفاء ، هى اتباع القواعد بل صنع هذه القواعد ، وعندما يحل علم الجمال محل علم الأخلاق وعندما يصبح تساؤل جان روســتان : على أى صـــورة يريد الانسان أن يعاد بناؤه ؟ ••• وأين يمكن تعلم مهنة البناء ؟ ••• عندما يصبح هذا التساؤل هو موضوع الساعة •

(هـ) ان الحركة الانعكاسية الكبرى التى تحدث عند مستوى العمل هى فى جوهرها انعكاس لعلاقات الكائن والأشياء •

لقد أدت حركة التصنيع فى عهـد الميكنة البســيطة أى العهـد

(الميكانيكى) الى تفتيت العمل الى حركات بدائية بسيطة يحكمها استعمال الآلة ، وأصبح الانسان ، على حد تعبير ماركس « ترسا من اللحم فى آلة من الفولاذ » • وظل كذلك طالما أن وجوده كحلقة من حلقات سلسلة نقل القوى كان يكلف أقل من تكلفة الآلة •

و « تقسيم العمل » هذا كما أوضح ماركس أيضا يعد بمثابة تشويه للانسان وقتل للشعوب لأنه يبعد عن العمل كل ما هو انسانى بحت ، فلقد كان الهدف هو اختراع الطرق والوسائل حتى لا يستخدم فى الانسان غير « آلة » عظامه وعضلاته وأعصابه • وهكذا أصبح العمل وهو التعبير الانسانى البحت للانسان نشاطا خاضعا لارادة ولذكاء ولذاتية خارجية • وتحول الى وسيلة تخضع فى سلبية لأغراض يجهلها ••• لأغراض خارجية معادية •

هكذا وصف ماركس فى كتابه رأس المال انعكاس علاقات الكائن والأشياء •

وعند هذا المستوى لا يصبح العمل رغبة داخلية للابداع ، بل ضرورة خارجية للحصول على القوت والرزق • انه لم يعد ، كعمل مبدع نهاية حياة الانسان بل ، كعمل مفروض ، وسيلة « لكسب العيش » ••• لكسب الحياة •• الحياة التى لا تبدأ الا بعد انتهاء العمل ، وخارج العمل (١)! •

ان الثورة العلمية والتكنولوجية الجديدة تبرز ، كما رأينا تباشير «رفض الرفض » أى انعكاس جديد للعلاقات بين الكائن والشىء بين الانسان والآلة ، مضفية على الكائن ، على الانسان أولويته وسيادته متخطية التناقض بين الادارة والتنفيذ ، بين العمل الذهنى والعمل العضلى ، محققة

---

(١) عندما كان كارل ماركس يتكلم عن «الغاء» العمل فانه لم يكن يهدف الى المعنى التالى : القضاء على نظام ينزل بالعمل الى شكله الحيوانى ويجرده من جميع صفاته الانسانية (وخاصة تحديد غاياته الخاصة) ويجعل منه « ضرورة طبيعية » خارجة عن الانسان •
انظر أسس الاقتصاد السياسى — الجزء الأول ص ٢٧٣ — ٢٧٤ •

بذلك للانسان كليته وكماله بدل ثنائية الماضى الخبيثة (١) • وهى الثنائية التى وجد جارودى علاجها الناجع فى الاسلام •

ثم ينتقل جارودى الى التحدث عن :

٢ — « الانسانى » الممكن !

فيقول :

« يجب ، لمواجهة هذه المشكلات التى لم يسبق لها مثيل والتى نجمت عن هذا التحول ، استبعاد عدد من الأوهام والخرافات •

أولها أوهام وخرافات التلقائية أو الآلية •

— ففى العالم الرأسمالى يجب استبعاد الخرافة التى تقول أن تطور القوى الانتاجية وحدها يسمح بحل المشكلات التى تفرضها الثورة العلمية والتكنولوجية الجديدة وذلك بدون تغيير جذرى لعلاقات الانتاج ، والعلاقات الطبقية أى بدون اختفاء الرأسمالية ومبدئها نفسه •

— وفى الدول الاشتراكية يجب استبعاد الوهم المضاد تماما والذى يقول ان تغير علاقات الانتاج وحدها من شأنه ايجاد حل للمشكلات دفعة واحدة ، كما أن من شأنه أن يولد ، أوتوماتيكيا ، الانسان الجديد ، كما لو كان القضاء على التناقضات الجوهرية للرأسمالية عند مستوى القاعدة الاقتصادية يكفى لالغاء التناقضات عند مستوى الهياكل العليا ويوجد حلا — بدون مصادمات — المشكلات التى تنجم عن التغيرات الكيفية فى ميدان تطور القوى الانتاجية •

يحاول أصحاب نظريات الرأسمالية الجديدة وأنصار الاصلاح فى العالم الرأسمالى الايهام بأن الرأسمالية فى طريقها الى الزوال لأن

---

(١) جارودى : التحول الكبير ، ص ٢٧ •

الفنيين يحلون بالتدريج محل الرأسماليين ، وملاك وسائل الانتاج فى ادارة الاقتصاد والسياسة .

ويعتبر ذلك أكذوبة لأن النظام فى جملته لا يخضع لقوانين المنطق التكنولوجى بل لقوانين المنطق الرأسمالى التى تهدف جميعها الى الربح . ويزداد اليوم باستمرار عدد الفنيين الذين بدءوا يدركون التناقض القائم بين المنطقين .

ان ما ينتجه البلد الرأسمالى لا تحدده ألبتة الاعتبارات العلمية أو التكنولوجية وأقل من ذلك أيضا الاعتبارات الانسانية ، بل قوانين السوق والربح . وتتحكم متطلبات الربح بدورها فى متطلبات السوق لأن الجمهور الذى يتكون منه « الطلب » يخضع للدعاية (التجارية) كما أن النظام كله يخضع لمبدأ الربح . والقطاع الآخر الذى يمثل « الطلب » هو الدولة التى يوجه انفاقها نتيجة لاختيارات سياسية (انشاء قوة عسكرية رادعة — حرب فيتنام الخ ....) وهكذا فان عمل الفنيين يخضع لغاية بعيدة عن منطق هذا العمل نفسه .

ان اتخاذ القرارات الهامة فى جميع الدول الرأسمالية يقوم به القائمون على « دنيا الأعمال » : « الحكومة والجيش ومختلف جماعات الضغط . والفنيون فى هذه الدول ليسوا الا أداة للتنفيذ ، حتى اذا كان ذلك عند أعلى المستويات » .

والوهم الثانى الذى يروجه هؤلاء الذين يعملون على الابقاء على النظام الرأسمالى هو الوهم القائل بأن الرأسمالية تتحول شيئا فشيئا ، نتيجة لتطور الفنون التكنولوجية والانتاجيه ، الى مجتمع لا طبقى وذلك عن طريق الارتفاع المستمر فى مستوى المعيشة الذى يؤدى الى اختفاء الطبقة العاملة .

والحقيقة أنه من الخطأ الفاحش القول بأن عدم المساواة فى توزيع الدخول يميل الى التلاشى . فنحن اذا اتخذنا الولايات المتحدة الأمريكية

أى الدولة التىقطعتفيها الثورة العلمية والتكنولوجية الجديدة أكبر شوط ، وحيث يعتبر الدخل الفردى أعلى من أى بلد آخر ، ••• اذا اتخـذنا الولايات المتحدة الأمريكية كمثل •• وجدنا عدم المساواة واضحا تمام الوضوح : فـ ٢٠٪ من السكان الأكثر ثراء يحصلون على ٤٦٪ من مجموع الدخول ، ٢٠٪ من السكان الأكثر فقرا يحصلون على ٤ر٦٪ فقط من مجموع الدخول •

ولكن عدم المساواة هذا عند مستوى توزيع الدخول والاستهلاك ليس الانتيجة ـــ وانعكاسا ـــ للتفاوت الرئيسى عند مستوى الانتاج حيث تظهر التفرقة الجذرية بين هؤلاء الذين يملكون وسائل الانتاج ويحصلون على فائض القيمة وبين هؤلاء الذين لا يملكون شيئا يعرضونه للبيع غير قوة العمل وينتجون للفئة الأولى فائض القيمة فى حين أن الفئة الثانية محرومة تماما من اتخاذ القرارات • « وتخضع » لادارة خارجية تملى عليها سلوكها فى ميدان الانتاج كما فى مبدان الاستهلاك •

ومن خلال هذه الدراسات والتحليلات ـــ التى سبقت اسلام جارودى ـــ يصل الى أن الغرب قد أخفق تماما بكل أفكاره وأيديولوجياته • ويدخل جارودى فى حوار مع الحضارة الاسلامية يخلص منه الى أن الانسان الغربى قد فقد كل علاقة مع الله والطبيعة والمجتمع ••

يقول جارودى فى كتابه « الاسلام دين المستقبل » ان الانسان قد انفصل عن الطبيعة التى اعتقد أنه سيدها ومالكها ـــ ان الانسان الغربى الذى يعتقد أن الطبيعة تعود اليه يعتبرها كأنها فقط احتياطى للمواد الأولية أو أنها مستودع لفضلاته ؛ يتلاعب بها بلا رادع وذلك بواسطة تقنيات منحته سلطة تدمير الأرض ومن عليها ، فليس للأرض أى معنى بالنسبة اليه • ان المسيحية بانضمامها منذ القرن الرابع الى الثنائية اليونانية وبتنازلاتها المتعاقبة منذ عصر النهضة لمبدأ العلموية الذى يدعى أنه يحل كل مشاكل الحياة ، لم تنجح فى مساعدة الانسان للمحافظة على هذا البعد الكونى ، وعلى هذا الاتحاد الودى مع كل الكائنات

فان القديس فرنسوا (١) • هو بمفرده الذى عرف كيف يحتفظ بتلك العلاقات أما الاسلام فعلى الرغم من الرؤيا الغـربية المشـوهة التى فرضها الاستعمار ، يمكنه أن يساعدنا فى استيعاب هذه الوحدة التى هى جوهره وايمانه الأساسى والأولى •

فمنذ عصر النهضة حكم على الانسان فى مجتمعاتنا الغربية بالعزلة والانفصال عن الآخرين بسبب الفردية التى ما زال احتدامها يزيد منذ عصر الغزوات الاستعمارية وحتى عصر الانحطاط النهائى فى حيـاة المجتمع المنعزل ، وبسبب انتشار المنافسات الوحشـية فى الاقتصـاد التجارى حيث يقضى أقل الناس ضميرا على أقلهم امكانية للدفاع عن نفسه ، وبسبب تقنيات الطمع التى تشكل الدعاية والتسويق أقصى تعبير عنها ، اذ تفرض احتياجات مصـطنعة كبـديل حقيقى لاشـباع الرغبة والأنانية •

هذا النظام يولد العنف بشكل محتوم ، فى مجتمعات حرم فيها كثير من الشباب أشياء قد اعتادوا ممارستها من طمع • وجريا وراء شهواتهم المحنونة ، يتزايد عدد الذين يحاولون الاستيلاء بالعنف الصريح على ما يمتلكه غيرهم من المحظوظين ومن ورثة التراث والمعارف بشكل قانونى أو غير قانونى بالمضاربة والغش • ان اعلان « حقـوق الانسـان والمواطن » الذى يصرح أن حريتى تتوقف حيث تبدأ حرية الآخرين يعتبر حرية الآخرين حدا وليست شرطا لحريتى الخاصة • الحرية هكذا هى حالة خاصة من حالات الملكية : تخضع لنظام التسجيل الأسمى مثلها •

ان فردية كهذه تهيىء بالضرورة حرب الجميع ضد الجميع حتى ينتهى الأمر بهم الى أن تتحول بسبب منطقها ذاته الى المعنى المعاكس ، الى الاستبداد ، الى الفرد الذى تتمثل به مجموعة منتصرة فيصبح رمزا يحول الآخرين لخدمة المجموعة الوهمية التى تشكل الدولة أو الحزب أو الطبقة •

---

(١) قديس ومؤسس نظام جماعة الفرنسيسكان .
انظر : جارودى : الاسلام دين المستقبل ، ترجمة الأستاذ عبد المجيد بارودى .

ان مجتمعاتنا الأوروبية « ومجتمعات العالم الثالث التى صيغت على شاكلتها أو قلدتها » لم تتوقف عن التأرجح منذ أربعة قرون بين فردية شريعة الغاب وبين استبداد الجماهير العشوائى •

ولم تجد المجتمعات الأوربية العلاج فى المسيحية لأنها تعرضت لشذوذ ثنائية الاغريق التى حدت بها الى تفسير تناقض الرب مع قيصر بشكل يعبر عن الاستسلام والفصل بين العقيدة والسياسة — ذلك التناقض الذى كان من حيث المبدأ رفضا جذريا لادعاءات قيصر الاستبدادية ، وهذه الثنائية فصلت بين الايمان والسياسة ، فقد تركت لقيصر منذ عهد قسطنطين كامل السلطة على الحياة السياسة والاجتماعية — بل ساعدته فى مهمته لأن السياسة بهذه الثنائية الهشة تجعل من الايمان قضية خاصة ليس لها أى تأثير على تنظيم المدينة • وهكذا أصبحت السياسة مستقلة عن قضايا الانسان والدين ولها أهدافها الخاصة بها ، وليس لها أى رابط يربطها بالانسان وبالله » •

وهنا يصل جارودى الى تقرير حقيقة مؤكدة تتلخص فى تعبيره « ان الاسلام هو حامل الأمل » •• يقول :

« ان الاسلام برفضه فصل الثنائية المزعومة بين السياسة والايمان • وبرفضه التفريق أيضا بين علاقة السياسة بالدين — التى هى علاقة بين بعدين من أبعاد الانسان المسلم — والعلاقات الكنسية والدولة — التى هى علاقة بين مؤسستين تاريخيتين — وبربطه الدائم بين التسامى والأمة • يمكنه مساعدتنا على انعاش المسيحية ذاتها وتجاوز أزمة تفكك النسيج الاجتماعى •

وأخيرا يمكن للاسلام بربطه كل شىء بالله ، أو بنظرته القائمة على ارتباط كل شىء بالله • أى نظرته الى كل ملكية أو سلطة أو معرفة أو محاكمة عقلية ، نظرة نسبية ، انطلاقا من ربطها بالغائية الكبرى التى تسمو على كل شىء فى هذا الوجود — يمكن للاسلام أن يكون خميرة تحرر

ونضال ضد كل أشكال التسلط والعبودية المفروضة على الانسان بحجة اطروحات مزيفة تبعده عن أصالته ومركزه •

ولقد استطاع الاسلام فى يوم ما من خلال صراعه ضد الاستلاب والغزو الاستعمارى أن يلعب دورا رئيسيا فى المواجهة والتحرر ، وخير شاهد على ذلك ما فعله مجاهدوا الجزائر « وأفغانستان » أو ايران عند انتفاضتها صارخة الله أكبر ضد الاضطهاد الداخلى وضد النموذج الغربى الذى فرض عليها من قبل •

هذا واذا لم يسيطر بعض المتعصبين فى ايران — على مبادرات الشعب فيطفئوا عندها ضوء الثورة الاسلامية ، مقلدين بذلك دور الكنيسة والحزب ، هذا الدور المعارض لكافة تعاليم الاسلام •

لكن فى هذا المجال ، من الأفضل للغربيين بدلا من وقوفهم موقف المراقب المتسلط على الأنظمة السياسية التى تنتسب للاسلام « أن يطرحوا على أنفسهم تساؤلين يقودانهم الى التواضع •

أولا : ما هو نصيب الغرب المستعمر من المسئولية تجاه تعصبه ضد الاسلام ؟

ان دفاع الشعب المسلم عن اسلامه وبشكل باسل وشجاع ، تحت نير الاستعمار كان الطريقة الوحيدة الممكنة للمحافظة على هويته : فكل أبعاد حياته الأخرى من الاقتصاد حتى السياسة ومن اللغة حتى الثقافة كانت مقولة حسب متطلبات المحتل • وكان الاسلام يمتلك طهارة البعد الواحد للحياة الذى لا يمكن أن يعاش ، تحت السيطرة الاستعمارية •

ثانيا : المحافظة على أدنى حد من الاستقامة ترتكز على عدم مقارنة النظام الاسلامى كما هو بالمسيحية كما يجب أن تكون « أو بالاشتراكيه كما يجب أن تكون ! ان من يسألنى بسخرية بلهاء : أين هو هذا الاسلام الذى تجعلونه مثاليا على الخريطة ؟ أجيبه دون خوف : تجرأوا وضعوا

اصبعكم على خارطة العالم لتبينوا الى أين هو المجتمع المسيحى ؟ أو المجتمع الاشتراكى ؟ • ليست غايتى الدخول فى حرب كلامية للمقارنة بين ما حققه هؤلاء وما حققه الآخرون رغم انه بحسب ترتيبات المسئوليات والمآسى من الحروب الصليبية حتى الاستعمار ، ومن بعبع الاستغلال الى المبادلات اللامتكافئة المسببة للمجاعات • لا يجوز للحضارة الغربية والمسيحية أن تدعى أنها لعبت دور القاضى أو مدرس الأخلاق الحميدة •

ان غايتى غير ذلك : فأمامنا المشاكل التى هى اليوم مشاكلنا وحيث الرهان هو بقاؤنا وهو معنى حياتنا ، ان مسيحياتنا واشتراكياتنا مهما كان عجزها التاريخى واخفاقها فى الماضى ، فانها تبقى خميرة لاجتماعاتنا ومشاريعنا • لكنها لم تجنب الغرب السعى نحو ضياعه ، وأن يجر العالم خلفه نظرا لتفوقه المادى • ان هذا الشكل من النمو وهذا الشكل من الثقافة التى فرضها الغرب بالسلاح والتجارة وبتقسيم العمل وبالمبادلات اللامتكافئة وبالارساليات والمدارس ، كل هذا أوقف حتى الآن ومنع أشكالا من التطور والابداع • لقد قادتنا ، وجميع العالم معنا الى حافة الافلاس والفوضى • لقد حان الوقت ـــ ربما متأخرا ونكون بذلك قد حكمنا على أنفسنا بحياة دون معنى ودون هدف وبالموت ـــ لكى نسأل ونبحث عما يوجد لدى العوالم الثلاث من معتقدات ، لنحاول أن ندرك ونعيش أشكالا أخرى من الوجود • فالانسان يعيش فى عالم لا يستطيع تحويله وحسب وانما تجاوزه • فعندما لا يشعر مجتمع بالحاجة الى هذا التجاوز فانه يتلاشى • ما الذى يستطيع الاسلام أن يقدمه لنا لنتهيأ بالمسؤوليات التى فرضتها القوة العلمية والتكنولوجية على كل الناس فى هذه الأيام ؟ المشكلة عالمية ولا يمكن أن يكون حلها الا على مستوى العالم وكان جارودى فى مرحلة « التحول الكبير » قد نبه الى هذه المشكلة وبين « أن كل جيل منذ آلاف السنين وحتى الآن كان يجد نفسه أمام ظروف حياته العامة وكأنها احدى « المعطيات » التى لا تتغير أبدا أثناء فترة حياته •

والفتيان والفتيات الذين يبلغون اليوم العشرين من عمرهم ، هم فى نفس سن الثورة العلمية والتكنولوجية الجديدة • وهم يعاصرون تحولا يغير

من مجموع ظروف الحياة وشروطها أكثر مما فعلت التطورات التى ترجع الى مئات السنين . ومن الآن فصاعدا سيصبح الأمر على الوجه التالى : سيعرف كل جيل أثناء حياته ، عدة تقلبـــات متعاقبة تجتاح حضارتنا وحياتنا .

ان شباب عام ١٩٦٩ م (١) يمثل « المقدمات » لهذا التحول ولهذا فمن يمكنه أن يدهش أمام قلق هذا الشباب وثورته أو يعيب عليه هذا القلق وتلك الثورة ؟ و « خلافات الأجيال » التى تبلغ درجة من العنف لم يسبق لها مثيل هى النتيجة الحتمية للتحرك المستمر لأسس مجتمعاتنا نفسها .

وان المرء ليعاصر فى كل مجتمع متصلب داخل اطار « الأوتوماتيكيات » التى تكونت فى الماضى وحتى فى الماضى القريب ، وفى كل مجتمع يرفض للشباب حقه فى اعادة النظر فى جوهره وقيمه وغاياته ، وفى كل مجتمع لا يسمح لكل عضو فيه بالمساهمة فى وضع القرارات التى تحدد مستقبله ... ان المرء يعاصر فى كل من هذه المجتمعات ازديادا كبيرا فى جرائم الشباب وسلبيته ذلك الشباب الذى يحس بسخافة النظام الذى يعيش فى ظله وبالأغلال التى تقيده فيه . سواء كان هذا النظام اشتراكيا أم رأسماليا .

لذلك توصل جارودى الى أن الاسلام هو الحل الوحيد ، ويقع على عاتق الاسلام الذى يحرر الانسان من القيود التى تتميز بها جميـــع الأنظمة الطبقية فيما وراء العهد الذى تتحدد فيه حاجياتنا وأهدافنا فى ظل اقتصاديات التقشف — اشباع الحاجيات الجديدة التى تخلقهـــا الثورة العلمية والتكنولوجية الجديدة ، وأولها تلك الحاجة ذات الصبغة الانسانية البحتة ... حاجة الانسان الى أن يكون « مبدعا » .

هذه هى المهمة الرئيسية للاسلام عند جارودى : اتاحة الفرصة الحقيقية لكل انسان لكى يصبح انسانا أى مبدعا ، وذلك عند جميع مستويات وجوده الاجتماعى أى المستوى الاقتصادى ، والسياسى ، والثقافى .

---

(١) عن كتاب جارودى : التحول الكبير ، ١٩٦٩ .

اننا لا نستطيع أن نذهب أبعد من ذلك فى تعريف الحاجيات لأن تنبؤاتها لها حدود تخضع لمبدأ معين : فنحن رجال غارقون حتى آذاننا فى قيود الماضى وأغلاله ولا يمكننا أن نعرف ماذا ستكون عليه اختيارات وأسس وقرارات الرجال الذين سيتحررون من هذه القيود والأغلال •

والمشكلة فى هذا المجال هى اعداد أجيالمن البشر ينمشى تفكيرها مع انماط التفكير والعمل والحساسية التى يحتمها التحول الجارى تحقيقه الآن •

كيف يمكن تكوين أجيال من البشر ليسوا عرباء فى هذا العالم الجديد عالم العلم والتكنولوجيا ، ويكون فى مقــدورهم التحكم فيه بدلا من رسوخهم فى أغلال قوتهم نفسها ؟ ••

ان أكبر خطأ يمكن أرتكابه هو وضع الانسان فى مدرسة الآلة والاعلان مسبقا ، عن « موت الانسان » فى حين أن التحول « السوبرناطيقى » يجعل من الممكن ازدهار الذاتية الانسانية ازدهارا لم يسبق له مثيل •

ان تفوق الحاسب الالكترونى من حيث « الدقة » يعد تفوقا سريعا • والمشكلة الرئيسية للتأهيل الثقافى فى أيامنا هذه لا تكمن فى ادعاء منافسة هذا الحاسب بل فى كيفية استعماله بطريقة تسمح بطرح المشاكل عليه وتحديد غايات محددة له ؛ وأن أهم صفــة يجب تنميتهــا ليست « المنطق » بل « الخيال » والا أنزلنا الثقافة الى المرتبة الوظيفية البحتة . أى تلك المرتبة التى تعتبر فيها الغايات كمعطيات ويستخدم فيها الحاسب الالكترونى لتضخيم الوسائل الى الحد الأقصى •

ويقضى الاستعمار الانسانى لهــذا الجهاز العظــيم ـــ الحاسب الاليكترونى ـــ بأن يرى فيه المرء وسيطا ، بين مجمــوعات البيانات ؛ والخيال المبدع للانسان • وعلى عكس آلة القرن التاسع عشر التى جعلت الانسان يقتصر على دور الخادم « والوسيلة » فان الآلة فى القــرن العشرين يمكنها أن تحرر الانسان من جميع المهام التى لا تتضمن تحديد المشكلات واختيار الغايات •

فالمشكلة لم تعد ، كما كانت خلال آلاف السنين هي تكوين نوع من الانسان يمكنه مسايرة متطلبات نظام اجتماعي مستقر ، بل اعداد الانسان ، لتكوين نفسه طوال فترة حياته : انسان يعيد صنع نفسه فى عالم يتغير تغيرا دائما وسريعا • ان الأمر ، كما يقول رودوفان ريشتا هو جعل التعليم ذا دور ايجابى فيما يتلقاه الانسان (١) • هذا الانسان الجديد هو الذى يكونه الدين الاسلامى تكوينا يحقق الهدف المنشود •

ويتطلب ذلك تغييرا فى وسائل التعليم وفى غاياته وأهدافه • فاذا كان التعليم المستمر سيفوق رويدا رويدا المدرسة التى يقتصر دورها حتى الآن على تلقين مجموعة معارف معينة وعناصر تدريب صالحة ، من حيث المبدأ ، لفترة الحياة كلها • واذا كانت عمليات التدريب الدورية ستصبح أكثر شيوعا فان مبدأ التعليم القديم سيؤدى سريعا بسبب زيادة عدد المدرسين الى هذه السخافة : نصف سكان الأمة سيدرسون لنصفها الآخر ، وسيزيد تدريب المسئولين عن التعليم أنفسهم من هذا الوضع الغريب •

ولهذا فانه يجب التفكير فى أن الفنون الالكترونية سوف تهب لنجدة المدرسة ، وأن تدريب العناصر على استخدام الحاسب الالكترونى وطرق تشغيله سيصبح من الدراسات الأساسية ، مثل القراءة والحساب ، وأنه ابتداء من هذه النقطة فان أهم ما فى التعليم سيتم عن طريق التلفزيون وآلات التسجيل وأنه سيمكن نقل أهم المحاضرات — بل عرضها فى صورة مرئية — الى ملايين الأطفال والرجال والنساء ، فى أى سن من سنى حياتهم •

وبتلك الطريقة وحدها يمكن لكل فرد أن يستوعب أسمى المنجزات العلمية والفنية ، وأرقى مبتكرات الحياة والعقل وأن يصبح متمرنا على الابداع •

وبهذه الطريقة وحدها أيضا يمكن لكل فرد أن يعتاد على مشكلات

(١) فى كتاب بعنوان « المدنية عند مفترق الطرق » •

(جارودى)

بناء المستقبل : وأن يحاط علما بالمواضيع والأهداف والاختبارات الممكنة وبدائلها فى عملية تحديد المخططات الطويلة المدى ، أن يساهم ايجابيا فى عملية البناء وأن يشعر — بأنه أداة فعالة فى المدنية العالمية ، التى صورها الاسلام وجعل « الانسان » فيها هو « المخلوق المسئول » عن صنع الحياة وتحقيق القيم العليا • ولذلك يستعرض جارودى فى كتابه « الاسلام دين المستقبل » ما قدمته الأمة الاسلامية من انجازات تاريخية واجتماعية فى مجالات الاقتصاد والقانون والسياسة من خلال المبادىء الاسلامية الجوهرية — يقول :

« الملك لله وحده الذى يشرع ، وهو وحده الذى يحكم :

ان مفهوم الملكية لدى أمة المدينة التى أنشأها صلى الله عليه وسلم هو على نقيض المفهوم الرومانى • فالملكية فى القانون الرومانى هى — حق التمتع كما هى أيضا حق اساءة الاستخدام — اذ يتمتع المالك بسلطة على ما يملك لا يحق لأحد التدخل فيها • ويشكل هذا المبدأ الرئيسى أساس قوانين نابليون وأساس النظام الاقتصادى الحالى كله • انه يمنح المالك حقا الهيا مؤكدا فبامكانه أن يخرب ما يملكه دون أن يناله العقاب حتى لو أدى بتصرفه هذا الى حرمان المجتمع من الخيرات الضرورية لحياته ، ويمكنه أن يكدس الخبرات دون حدود • ففى القانون الفرنسى تعتبر المؤسسة الحرة امتدادا للقانون الوراثى ، ويمكن لأصحابها أن يوقفوا نشاطها أو ينقلوها أو يسرحوا موظفيها ، ان مختلف التشريعات التى دعت الى نزع الملكية من أجل المصلحة العامة وحتى الاجراءات التى اتخذت من جراء ضغط العمال لم تحسن الامتيازات الا بشكل طفيف • فأى تحديد لهذا الامتياز يتعلق فى كل لحظة بعلاقة القوة بين الذين يستفيدون منها والذين يتحملون نتائجها •

منذ البدء يتعارض المفهوم الاسلامى بصلابة مع هذا النظام • ان الملكية المتعلقة بالمرجع المتسامى ، بالمرجع الالهى ، حسب المفهوم الاسلامى « ليست حقا لفرد أو مجموعة أو للدولة ، انها وظيفة اجتماعية •

أيا كان المالك ، فردا أم جماعة أو حتى الدولة ، فيجب أن يقدم حسابا عن ملكيته للأمة . انه ليس الا وكيلا مسؤولا عنها ، ونجد هنا مبدأ كان آباء الكنيسة المسيحية قد دافعوا عنه سابقا ؛ لكن الغرب نسيه منذ زمن طويل .. ليست السرقة أن نستولى على ما نحن بحاجة اليه . بل أن نكدس لدينا ما لسنا فى حاجة اليه . هذه هى متطلبات مفهوم الايمان من خلال نظرة جماعية .

وأننا نجد فى تعاليم القرآن الكريم نهيا عن البخل وتكديس الأموال .. يقول الله تعالى :

(الذى جمع ماله وعدده) « سورة الهمزة : ٢ »

(وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى) « سورة الليل : ٧ »

(.... وجمع فأوعى ....) « سورة المعارج : ١٨ »

(.... وتحبون المال حبا جما ....) « سورة الفجر : ٢٠ »

واذا كان الاسلام يسعى الى توزيع أفضل للثروات ، فأنه يعترف بحق الملكية الفردية المكتسبة بالعمل ، أو بالوراثة ، أو بالهبة ، لكن العمل يلعب دورا أساسيا .. ففى أحد أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أحيا أرضا ميتة فهى له » .

وقد أشار « شارل جيد » (١) فى دراسة (الاقتصاد السياسى) الى أن : « التشريع الاسلامى لا يقبل الملكية الفردية للأرض الا على أراض خاضعة لعمل فعال » . ولم يكتف القرآن بادانة الربا ففى الأزمنة الأولى لانتشار الاسلام لم يكن الاقتصاد يمنح حق الاستيلاء على الأراضى

---

(١) شارل جيد : اقتصادى فرنسى (١٨٤٧ — ١٩٣٢ م) لقد قام بنشر مؤلفات حول الاقتصاد السياسى وأيد مبدأ التعاونية (نظام اقتصادى) يمنح التعاونيات دورا هاما . جارودى : الاسلام دين المستقبل ترجمة عبد المجيد بارودى .

وانما فقط فرض ضريبة (الخراج) • وآثر تدهور الهدف المبدئى ، نشأ نظام المالكين غير القاطنين والمستغلين لأعمال المزارعين •

ان المفهوم الاسلامى عن التجارة هو الأولى أن نأخذ به كتشريع أساسى للمجتمع :

فى الغرب تكون التجارة — كما كانت متصورة فى عصر الليبرالية بشكل أمثل — عملية سير عامة يعبر المجتمع من خلالها عن حاجاته • بينما فى عصر انحطاط النظام الرأسمالى ، وعصر الامتيازات التجارية انقلبت السلسلة ، حيث قام المنتجون الأقوياء يبحثون عن أسواق لتصريف بضائعهم • ان الاقتصاد الاسلامى ، من حيث المبدأ على الأقل ، ليس منسجما مع ذلك المفهوم الرأسمالى للسوق ، ولا مع شكله الليبرالى • ولا مع شكله الاحتكارى • واذا كان ووجد السوق مقبولا فليس هو غاية فى ذاته « ان عليه أن يلبى الحاجات الحقيقية ، وعليه أن يكون تابعا فى غاياته ووسائله الى حكم موجه نحو هدف يتجاوز السوق والمجتمع الذى يعمل فيه • وعليه أن يحترم معايير الاسلام التى تنطوى على توزيع عادل للعائدات وترفض الاحتكارات التى تحول دون اظهار السعر الحقيقى للتكاليف •

ليس الاقتصاد الاسلامى محايدا اذن تجاه القوى المتنافسة فالأمر لا يتعلق فقط بمراقبة انتظام الصفقات ؛ وهذا من صلاحية المحتسب كما قال ابن خلدون • وقد أحدث الأوروبيون هذه الوظيفة بعد الحملات الصليبية تحت اسم « مراقب البيع » • فى المجتمع الاسلامى الأهداف هى الهامة ، وما السوق الا وسيلة لبلوغ الغايات • وقد ذكر القرآن أولئك الذين : (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة) « سورة النور : ٣٧ »

ان الزكاة ، هذا القسم المقتطع من المال حسبما يأمر به الدين ، ليست فقط من العائدات • وانما على رأس المال أيضا وتشكل أحد أهم أركان الاسلام الخمسة • انها وسيلة دائمة لاعادة توزيع الثروات على المجتمع ولفسح المجال لحركية اجتماعية • ان هذا الشكل الأولى للضمان الاجتماعى

الذى لم تأخذ به الدول الأوربية كفرنسا الا فى منتصف القرن العشرين : بعد صراع طبقى قديم وبعد عدة قرون قد أخذ به الاسلام على أنه احدى ضرورات الاعالة منذ أربعة عشر قرنا » •

يقول جارودى أيضا :

« وهناك ابداع اسلامى آخر : انشاء نظام الضرائب غير المباشرة التى تفرض على انتاج الكماليات ، وهكذا نشأت امتيازات للدولة ونظام تفاضلى للجمارك تتناول كل المنتجات التى يتعلق بهـا أمن ورفاهية الأمة • ان مبدأ فريدريك الثانى « دى هوهنشتاوفن» — الذى كان من كبار المعجبين بالثقافة العربيـة ويتـكلم هـذه اللغـة بشـكل ممتاز — امبراطور المملكة الرومانية المقدسة وملك صقلية اعتبر من أوائل رجال الدولة الحديثة • لأنه نقل هذه المبادىء الى أوربا وألمانيا • وبشـكل مختصر نقول ان الاقتصاد الناجم عن المبادىء الاسلامية هو نقيض النظام الغربى الهادف للنمو ، والذى يعتبر فيه الانتاج والاسـتهلاك غايتين فى ذاتهما • تزايد وتسارع فى الانتاج ، والاستهلاك • بغض النظر عن كونه مفيدا أو ضارا ، مفسدا أو قاتلا ، ودون الأخـذ بعين الاعتبار للاهداف الانسانية • فالاقتصاد الاسلامى لا يهدف فى مبدئه القرآنى الى النمو بل يهدف الى التوازن • لذا لا يمكن مقارنة الاقتصاد الاسلامى بالنظام الرأسمالى « على الطريقة الأميركية مثلا » ولا بالنظام الجماعى « على الطريقة السوفيتية مثلا » ان من ميزاته الأساسية عدم الخضوع الى حركية عمياء تجعل الاقتصاد غاية فى ذاته • بل يتعلق بأهداف سامية انسانية والهية تتجاوزه ، تتجاوزه ، لأن الانسان لا يكون انسانيا بشكل حقيقى الا بارتباطه مع الله » •

وينتقل جارودى الى دراسة القانون فى الاسلام انطلاقا من مبدأ « الله وحده هو المشرع » فيقول :

« بما أن الله هو المالك الوحيد ، فانه هو المشرع الوحيد • هذا هو مبدأ الاسلام فى رؤيته للتوحيد • اذن لا تقوم الأمة على مبدأ « اعلان

حقوق الانسان » ولكن على وحى سماوى يحـدد وظائف وواجبـات الانسان • لن نطيل الحديث عن كثرة المذاهب المختلفة من حنفية ومالكية وشافعية وحنبلية وتشعباتها فى هذه البقعة أو تلك من بقاع الاسلام • فهذه المذاهب تختلف من حيث درجة تمسكها وتشددها • فالبعض يقول انه يأخذ بحرفية القرآن بالضبط وكأنهم يستطيعون أن يأخذوا منه قانونا مفصلا قابلا للتطبيق فى كل زمان ومكان ، وآخرون استندوا بشكل كبير الى المنبع الثانى « الأحاديث » أى أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وذلك لحل المشاكل الملموسة بطريقة جديدة • وهناك أيضا من اكدوا أهمية الشورى ، أى استشارة فقهاء التشريع ، وآخرون اقترحوا مبدأ القياس وليس فقط بالاستنتاج من أجل حل للأوضاع المستجدة •

وعن تسامى القانون الاسلامى يقول جارودى :

« ان التعليم القرآنى المغاير لنظرتنا الفردية لا ينظر للانسان على أنه حقيقة منعزلة • وانما يشكل جزءا من كل هو الأمة ، وهذه الأمة موجهة هى أيضا نحو غايات أسمى • فقولنا ان الانسان يشكل جزءا ليس له فى المنظور الاسلامى المعنى ذاته كما فى الغرب الذى لا يتصور أى بديل عن الفردية الا سيطرة الدولة التامة •

ان الكل الذى يشمل المسلم جزءا منه ليس هو الشمولية العضوية كما عرفها هيجل ولا كما عرفها المفهوم الفاشى الذى جاء فيه ان الانسان كفرد ليس له معنى ولا قيمة ولا حقيقة الا بولائه للدولة • وليس الرابط بين الانسان وهذا الكل الكبير المتمثل فى الأمة رابطا بيولوجيا بدائيا كالذى بين الخلية والعضو الذى تنتمى اليه •

انه ليس رباطا وظيفيا أو اجتماعيا أو سياسيا يفرضه على كل فرد تقسيم العمل الذى يجعل منه كائنا مجزءا مخنوقا فى دور تقنى أو اقتصادى أو سياسى يستلبه ويفتته •

ان هذا النوع من العلاقات لا يمكن أن يوجد الا ضمن مجتمع لا غاية له الا فى ذاته ، أى أنه ليس حاملا لأى مشروع آخر غير نموه وقوته •

وهكذا فان الأمة الاسلامية تتجاوز الأهداف الخاصة بها الى الأهداف التى حددها الله • ان هذا التسامى المزدوج فى العلاقة بين : الأمة بالنسبة للانسان والله بالنسبة للأمة لا ينتج عنه طبقة معينة ولا اضطهاد الانسان للانسان • فليست الملكية الفردية ، ولا تنافسات الأسواق ، ولا المجابهات العنيفة أساسا لحرية الانسان لكنها خضوع مشترك لغاية الهية تتعلق بها كل السلطات البشرية وكل مستويات السلطة السياسية والثروة الاقتصادية والثقافة على اعتبار أنها تخصص اصطفائى أو نفوذ تقنى » •

ويقارن جارودى بين مفهوم المساواة فى الغرب ومفهومها فى الاسلام فيقول :

انها ليست من خصائص الفرد الانعزالى وانما هى تعبير ونتيجة لارتباط كل فرد بالمطلق ، وللشعور الالهى فيه ، الذى يسمح له بأن يأخذ أبعاده • بعدا غير محدود تجاه المؤسسات الانسانية وكل النزعات البشرية للسيطرة ، هذا هو الأساس القرآنى للقانون •

لا شك فى أنه لم يعرف الا القليل من الانجازات الملموسة حتى فى الوقت الذى كانت فيه الحضارة الاسلامية فى أوجها ، وكذلك أوروبا المسيحية وبخاصة فى زمن سيطرة الكنيسة اذ أنها لم تر الا قليلا جدا من الانجازات التاريخية الملموسة المطابقة للمجتمع الذى نادت به تعاليم يسوع الناصرى •

لكن فى اللحظة التى اكتسحتنا واستولت علينا فيها أمواج انحرافات عصرنا من الرغبة العمياء فى النمو ومن محاولة السيطرة لدى الدول والقوميات المتعددة ومن مظاهر العنف ومن توازن الارهاب على جميع مستويات الدول كأفراد وجماعات ومن المبادلات غير المتكافئة التى زادت من خطر سيطرة البعض ومن بؤس عدد كبير فليس الوقت وقت فتح نزاع حول حسنات البعض التاريخية أو تخلى البعض الآخر عن أهدافه ومن الضرورى بالنسبة للجميع أن ينشئوا مشاريع بناءة لكل فرد ، فالأفكار القوية جديرة بتحريك طاقات العالم كله حول مشروع مشترك •

لقد قادتنا المبادىء الفردية فى عصر النهضة الغربى • ثم الثورات البورجوازية الى الفوضى • كما قادتنا المحاولات الاستبدادية لقلب هذا التيار بتزييف معنى الأمة فى النظام الفاشى أو مفهوم الطبقة فى النظام الشيوعى الى المأساة •

وفى هذا العصر ما الذى يمكن للاسلام أن يقدمه بنظامه القائم على مبادئه العظيمة ؟

ان التأمل البناء فى الأهداف الاسلامية يمكن أن يخصّب الكثير من محاولات التحرر التى ظهرت لدى بعض المسيحيين منذ عشرين عاما خلت » •

وعن الاسلام والقانون الدولى يقول جارودى :

من الأمور الثابتة والمحققة أن المسلمين قد وضعوا أنظمة للتجارة البحرية حتى فى أيام الحرب • وقد دونت هذه القوانين عام ١٣٤٠ م فى برشلونة فى قنصلية البحر ، فيما عرف بالمرجع البحرى « الذى صاغ مبادئه القديس لويس لدى عودته من الحملة الصليبية الأولى ، مقلدا بذلك المسلمين •

ان أول كتاب يضم مجموعة قوانين مبوبة فى الغرب ، كان على يد الفونس العاشر (١) بأجزائه السبعة ، وهو يحوى فى جزئه الثانى تشريعا حول الحرب مأخوذا عن النصوص الاسلامية حول هذا الموضوع وقد جمع فى عام ١٢٨٠ م فى أسبانيا المسلمة (الأندلس) وبحثت فيه حماية الأطفال والشيوخ والنساء والعاجزين . واحترام الالتزامات وقوانين الشرف التى يجب احترامها فى زمن الحرب •

ومما يستحق الاعجاب ابان الحروب الصليبية أن أطباء العرب فى

---

(١) ولد فى طليطلة وقد لقب بالحكيم وكان ملك كاستيل ولبرن وامبرطور الغرب وكان مثقفا كبيرا وقد نشطت الحركة العلمية فى عصره وسميت الجداول الفلكية باسمه (الجدوال الالفونسية) .

فلسطين جاءوا الى المعسكر المسيحى بعد المعركة للاعتناء بالجرحى ، وقد اعترف لهم بجداراتهم العالية •

ان روح الفروسية عند صلاح الدين الذى طرد الصليبيين من القدس قد أصبحت أسطورة • وأما تقاليد الفرسان الصليبيين الغربيين التى تحمل الوحشية والهمجية فقد اكتسبت شيئا من الرحمة بعد أن احتكوا مع أعدائهم من الفرسان المسلمين • ولهذا كان الفرسان التيتونيون يقومون بزيارات الى بلاط فريدريك الثانى الذى كان من أشد المعجبين بالحضارة العربية فى مملكة صقلية •

وينهى جارودى دراسته للقانون الدولى فى الاسلام بنداء يوجهه للغرب قائلا :

« اليوم اذا لم يعترف الغرب بتأثير هذه الحضارة الاسلامية التى أخصبت العالم خلال ألف عام ، على القانون الدولى ، فلابد أن يكون لديه تعصب أعمى ، وهو التعصب الذى طالما اتهم به الاسلام ، وهو منه براء » •

ويخلص جارودى من بحث مفهوم الأمة فى الاسلام الى :

ان الأمة ليست ثمرة للعقد الاجتماعى انها أمة الايمان القائمة على اليقين عند كل فرد يشكلها • ان هناك هدفا يتجاوز المصالح الفردية وحتى مصالح المجموعة مهما كانت واسعة • هذه الأمة تعنى الانسانية فى مجمل تاريخها وتطلعاتها • ان الأمة الاسلامية هى حاملة هذه الكلية لأن كل فرد من أعضائها متحد مع الآخرين كافة بعيدة عن اختلاف العرق أو الأرض أو الماضى التاريخى بنفس الايمان فى التوحيد السامى •

من وجهة النظر الاسلامية الخالصة « القومية » هى مرض غربى • انه ارث مشؤوم من تجزئة الاستعمار للأمة الاسلامية • وهذا ما ينطبق على « الديمقراطية » على الطريقة الغربية مع مواجهات وصراعات أفرادها وجماعاتها التى جزأها التنافس ، وتلاعب بها الاعلام ، ليست

له علاقة مع مبدأ الشورى ، واستشارة الناس الذين لا يوجد بينهم رباط أفقى ناشىء عن التنافس وانما رباط عمودى عند كل فرد مع المطلق الواحد •

ان السلطة مثل الملكية موجهة نحو أهداف تتجاوزها • ليس هناك أى تعليم فعلى فى وقت تجعلنا فيه تجربة عصرنا نعى بأنه لا يمكن أن تكون هناك اشتراكية داخل طريقتنا فى السعى وراء النمو الأعمى دون هدف انسانى ولا يمكن أن تكون هناك عدالة اجتماعية من خلال فرديتنا الغربية التى تشكل الرأسمالية أساسا لها وتعبيرا عنها فى آن واحد • ولا يمكن أن تكون هناك عدالة اجتماعية دون تسام ، دون أمكانية دائمة لقطع الصلات مع حتمياتنا واستلاباتنا • لقد أصبح الوضع الراهن لا يطاق العيش فيه • والثورة أصبحت مستحيلة لأن الانسان الغربى لا يشعر مطلقا بالحاجة الى التسامى • وأن كل ثورة ستسقط اذا ادعى الانسان انه غير كل شىء ولم يغير نفسه •

(ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) « الرعد : ١١ »

وهذا القانون الالهى فى التغيير ظل جارودى يبحث عنه طوال رحلته الفكرية من المسيحية الى الماركسية والتحول الكبير ولم يتعرف عليه الا فى الاسلام •• وهذا التغيير لا يكون الا بدراسة الانسان — ومن أقوال جارودى فى الستينات يتضح أن دراسة الانسان تزيد صعوبة •• بل تكاد تكون متعذرة فى سائر أفراده • على كل ما يجمع أفراد الجنس كله من الخصائص « الانسانية » دون المعرفة الكاملة بالسمات المميزة لكل فرد على حدة — فى فرديته المتميزة — على فرض أنه أمكن الوصول — فى ملايين السنين — الى معرفة كل التركيب العضوى والنفسى العام للجنس البشرى ••

وفى هذه الفردية يقول دكتور كاريل :

« ان الفردية جوهرية فى الانسان • انها ليست مجرد جانب معين من الجسم اذ أنها تنفذ الى كل كياننا •• وهى تجعل « الذات » حدثا

فريدا فى تاريخ العالم •• انها تطبع الجسم والشعور كما تطبع كل مركب فى الكل بطابعها الخاص • وان ظلت منظورة » •••

« يميز الأفراد كل منهم عن الآخر بسهولة بواسطة تقاطيع وجوههم واشاراتهم وطريقتهم فى المشى ، وصفاتهم العقلية والأدبية الخاصة • ومع أن الزمن يحدث تغييرات كثيرة فى مظهر الأفراد الا أنه يمكن دائما معرفة كل فرد — كما أثبت برتلون منذ أمد بعيد — بواسطة أبعاد أجزاء معينة من هيكله •• وكذلك فان خطوط أطراف الأصابع مميزات قاطعة للفرد • ومن ثم فان بصمات الأصابع هى التوقيع الحقيقى للانسان » •••

وعلى كل حال فان تكوين الجلد جانب واحد من فردية الأنسجة وقد تظهر فردية الأنسجة نفسها بالطريقة التالية :

« طُعّم سطح جرح بقطع من الجلد أخذ بعضها من المريض نفسه ، والبعض الآخر من صديق أو قريب • فلوحظ بعد أيام قليلة أن الجلد الذى أخذ من المريض نفسه قد تماسك مع الجرح ، وبدأ ينمو ، فى حين أن الجلد الذى أخذ من الأشخاص الآخرين أخذ فى التراخى والانكماش • وسرعان ما عاش الأول ومات الثانى » •••

« ان القاعدة أن أنسجة أى شخص ترفض قبول أنسجة شخص آخر ••• وحينما :خيط الأوعية ويمر الدم ثانية فى كلية مُطَعّمة فان هذا العضو يفرز البول مباشرة ويكون تصرفه طبيعيا فى بادىء الأمر • الا أنه لا تكاد تمضى أسابيع قليلة حتى يظهر الزلال أولا ، ثم الدم فى البول ؛ وسرعان ما تصاب الكلية بمرض أشبه بالالتهاب يؤدى الى ضمور الكلية سريعا •• ومع ذلك لو أن العضو المُطَعّم أخذ من الحيوان نفسه لعاد الى تأدية وظيفته بصفة دائمة • اذ من الواضح أن الأخلاط تكتشف فى الأنسجة الغريبة ، اختلافات تركيبية معينة لا يمكن اكتشافها بأى اختبار آخر • ان الخلايا محددة بالنسبة للأشخاص الذين تتبعهم • ولقد حالت هذه الخاصية حتى الآن دون التوسع فى استعمال تطعيم أو ترقيع الأعضاء لأغراض علاجية » •••

« فمن المحتمل أنه لم يوجد فردان بين ملايين الملايين من البشر الذين استوطنوا هذه الأرض ، كان تركيبهما الكيماوى متماثلا . وترتبط شخصية الأنسجة التى تدخل فى تركيب الخلايا والأخلاط بطريقة ما زالت غير معروفة حتى الآن . ومن ثم فان فرديتنا تتأصل جذورها فى أعماق ذاتنا .

« وتطبع الفردية جميع أجزاء الجسم المركبة . فهى موجودة فى العمليات الفسيولوجية . كما هى موجودة فى التركيب الكيماوى للأخلاط والخلايا . ولهذا فان كل شخص يتفاعل بطريقته الخاصة مع أحداث العالم الخارجى .. مع الضوضاء والخطر والطعام والبرد وهجمات الميكروبات والفيروسات » ...

« تمتزج الفرديات العقلية والتركيبية والأخلاطية بطريقة غير معروفة . وتحمل كل منها للأخرى العلاقات نفسها التى تحملها وجوه النشاط الفسيولوجى ، والعمليات المخية والوظائف العضوية .. انها تهبنا وحدانيتنا وتجعل كل انسان أن يكون نفسه ، وليس شخصا آخر ...

« كل فرد يدرك أنه فريد . وهذه الوحدانية حقيقية » ...

« ان فحص الفردية الفسيولوجية فحصا كاملا ، وقياس أجزائها المركبة غير ميسور حتى الآن ، كما أننا لا نستطيع تحديد طبيعتها بالدقة ، وكيف يختلف كل فرد عن الآخر . بل اننا عاجزون عن اكتشاف الصفات الجوهرية لشخص بعينه ، فضلا عن أننا أكثر عجزا عن اكتشاف امكانياته » ...

« وحقيقة الأمر أن السيكولوجيا لم تصبح بعد علما . لأن الفردية وامكانياتها ليست قابلة للقياس حتى الآن » ...

هذه الحقائق الأساسية الثلاثة : حقيقة أن الانسان كائن فذ فى هذا الكون . وحقيقة أن الانسان كائن معقد شديد التعقيد . وحقيقة أن الانسان يشتمل على عوالم متفردة عددها عدد أفراده .

« هذه الحقائق تقتضى منهجا للحياة الانسانية يرعى تلك الاعتبارات كلها • يرعى تفرد « الانسان » فى طبيعته وتركيبه • وتفرده فى وظيفة وغاية وجوده ، وتفرده فى مآله ومصيره • كما يرعى تعقده الشديد وتنوع أوجه نشاطه وتعقد الارتباطات بينها • ثم يرعى « فرديته » هذه مع حياته « الجماعية » (١) •

وبعد هذا كله يضمن له أن يزاول وجوه نشاطه كلها ، وفق طاقاته كلها • بحيث لا يسحق ولا يكبت ، كما لا يسرف ولا يفرط • وبحيث لا يدع طاقة تطغى على طاقة ، ولا وظيفة تغطى على وظيفة •• ثم — فى النهاية — يسمح لكل فرد بمزاولة فرديته الأصلية مع كونه عضوا فى جماعة ••

ولكن — نظرا لجهالتنا بالانسان — فان مناهج الحياة التى اتخذها البشر لأنفسهم لم تستطع — وهذا طبيعى — مراعاة هذه الاعتبارات المتشعبة المتشابكة المتفاوتة المتناسقة •

والمنهج الوحيد الذى راعى هذه الاعتبارات كلها كان هو المنهج الذى وضعه للانسان خالقه ، العليم بتكوينه وفطرته ، الخبير بطاقاته ووظائفه ، القادر على أن يضع له المنهج الذى يحقق غاية وجوده ويحقق التوازن فى أوجه نشاطه ، ويحقق فرديته وجماعيته كذلك (٢) ••

ان اسلام المفكر الكبير جارودى خير دليل على هذا النفاذ بالعقول والضمائر الى عالم الروح من خلال الذرة على شعاع من نور ، مؤكدا أن •• حضارة المادية لا تلائم الانسان ، الذى جعله الله فى الأرض خليفة . وأيا ما كانت الملابسات التى أدت الى مأساة الحضارة المادية « فان الحقيقة الواقعة » أن هذه الحضارة الحديثة — ولو أنها قامت ابتداء على أسس الانجاهات التجريبية العلمية التى اقتبستها أوربا من الأندلس

---

(١) ، (٢) عالج سيد قطب هذا الموضوع بتوسع فى فصل « حقيقة الانسان » فى كتاب : « خصائص التصور الاسلامى ومقوماته » وفصل « نظام انسانى » فى كتاب « نحو مجتمع اسلامى » •

ومن الشرق الاسلامى ، النابعة ابتداء من التوجيهات القرآنية لتدبر النواميس واستغلال الطاقات والمدخرات فى الأرض ، ومن روح الاسلام الواقعية الانسانية ، الا أنها حين انتقلت الى أوربا لم تنتقل بجذورها الفلسفية ، انما انتقلت علوما وطرقا فنية ، ونماهج تجريبية • وصادفت ذلك « الفصام النكد » الذى تحدث عنه سيد قطب (١) ، بين الدين والنهضة الحضارية • ومن ثم لم يلحظ فى بنائها هذا « الانسان » المفروض أنه صانعها ، وأنها من أجله صنعت • وكذلك أصبحت لا تلائم هذا « الانسان » بل تسحق خصائصه الأساسية التى تجعل منه هذا الكائن الفريد فى الكون ، والتى بدونها لا يملك هذا الكائن أن يؤدى دوره • كما أن اغفال بعضها فى أى نظام اجتماعى أو اقتصادى ، وفى أية حضارة ، من شأنه أن يحدث الاختلال فى الكينونة البشرية ، ويقضى لا على الجوانب التى أغفلت فحسب ، بل كذلك على الجوانب الأخرى ، نظرا لأن الجهاز الانسانى كل مركب متناسق •

وعندما اهتدى جارودى الى نور الاسلام كشف لعالمه الغربى عن سر ازدهار الحضارة الاسلامية وعلومها التى قامت فى جوهرها على الربط بين العلم والايمان ، وكون الانسان غاية للعلوم وكون العلوم بدورها وسيلة الانسان فى التعرف الى خالقه وآداء رسالته على الأرض •• يقول :

« لا يمكن الحكم على تطور العلوم والتقنيات فى حضارة فى حضارة من الحضارات دون أن نأخذ بعين الاعتبار الاحتياجات الواجب تلبيتها والمنهج الثقافى فى ذلك المجتمع • ولا يمكننا الاكتفاء بالتساؤل عن كيفية حدوث هذه الانجازات العلمية والتقنية بل علينا أن نتساءل عن السبب الذى حدثت من أجله والغايات التى كرست فى سبيلها • وعلى هذا فانه لم يتم وضع أسس العلم الاسلامى بشكل منفصل عن مفهوم الانسان وحياته اللذين وجدت من أجلهما هذه العلوم والتقنيات •

---

(١) يراجع بتوسع فصل « الفصام النكد » فى كتاب « المستقبل لهذا الدين » للأستاذ سيد قطب •

ان الاهتمام بالغاية الانسانية لهذه العلوم والتقنيات لم يكن قط عائقا فى سبيل ازدهارها . واذا لم يكن العلم الاسلامى قد سلك الطريق ذاته الذى سلكه العلم الغربى منذ القرن السادس عشر فليس هذا لأنه أقل قيمة بل لأن المسلمين رفضوا النظر فى أى فرع من هذه العلوم بشكل منفصل عما يعتبره الاسلام غاية الوجود ومغزاه » .

بهذه الروح يلقى جارودى نظرة اجمالية لتقييم العلم الاسلامى ودراسة تطلعاته متحاشيا قبل كل شىء أن يرى فيه — كما فعل مؤرخو الغرب — اما مجرد نقل للعلم الاغريقى أو الفارسى أو الهندوسى أو الصينى وأما مجرد حلقة فى سلسلة الاكتشافات التى يعتبرونها بمثابة عصر ما قبل التاريخ » بالنسبة للعلم الحديث ، وتتلخص فائدتها التاريخية فى أنها مهدت السبيل للعلم الغربى الذى يدعونه بصلف « العلم » بدلا من أن يسموه بكل بساطة العلم الغربى !!

ثم يتحدث جارودى عما يسميه : مرحلة التمثل : فيقول :

« ولكى نفهم العلم الاسلامى فى مضمونه ومغزاه . فان من المهم أن لا نفصله عما تفرض عليه غايته الا وهو الايمان الاسلامى . فلا يمكن فهم العلم الاسلامى دون فهم الاسلام ذاته ، تلك القوة الحية التى هى روح ذلك العلم .

ان مبدأ التوحيد وهو حجر الأساس فى تجربة الاسلام لمعرفة الله يلغى كل ما يفصل بين العلم والايمان . وبما أن كل شىء فى الطبيعة هو دلالة على الوجود الالهى تصبح معرفة الطبيعة — مثلها فى ذلك مثل العمل — شكلا من أشكال الصلاة وسبيلا للتقرب الى الله . فالقرآن والحديث لا يفتآن يمجدان العلم ويحثان على البحث العلمى حتى لو كان الباحثون لا يرتبطون بالايمان الاسلامى . وهذا ما يفسر دور الاسلام المخصب والتجديد العلمى الذى حدث فى كل مكان بفضل انتشاره . أو لم يقل النبى صلى الله عليه وسلم :

« ما من رجل يسلك طريقا يلتمس فيها علما الا سهل الله له طريقا الى الجنة (١) ... » .

« يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » (٢) .

بدأ عصر العلم العربى بروح انفتاحية فائقة ، وبمجهود منظم لاستيعاب تراث كافة ثقافات الماضى . بدأ هذا العصر بشكل خاص بعد عام ٧٥٠ م مع العباسيين فى بغداد . فعندما استولى هارون الرشيد (٧٨٦م — ٨٠٩م) على أنقرة أو عندما أحرز الخليفة المأمون (٨١٤م — ٨٣٣م) النصر على الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثالث » لم يطلب أى منهما كتعويض عن خسائر الحرب الا أن يسلموا المخطوطات القديمة والمؤلفات الاغريقية الموجودة فى بيزنطة وهذا ذو مغزى عظيم !!! .

وقد نظم فى بغداد عمل ضخم للترجمة . فمنذ القرن الثامن اجتذب هارون الرشيد الى بلاطه أصحاب العلوم واللغويين من كافة الجنسيات وأسس الخليفة المأمون وهو أحد خلفاء هارون الرشيد مدرسة للمترجمين هذه الأكاديمية كانت فى أول الأمر تحت ادارة شخص فارسى من جند يسابور يدعى يحيى بن ماسويه وكان طبيبا ورئيس مترجمين خلال حكم هارون الرشيد . وظل فى مناصبه فى ظل حكم المأمون . وخلفه فى هذه الأعمال المحرك الشهير لفرق الترجمة حنين . وما كان حنين هذا الذى ارتد الى المسيحية ، يترجم فقط المؤلفات الطبية لأبقراط وجالينوس وديسكوريد . بل أيضا مؤلفات الرياضيين والفلكيين وعلماء الطبيعة . وبطاب من المأمون ترجم الفزارى وعدل كتاب الفلك « سيد هانتا » للعالم الهندى براهما جوبتا . وبما أن العرب أخذوا عن الصينيين فن صناعة الورق منذ القرن التاسع فقد أسسوا أول مصنع للورق فى بغداد عام

(١) رواه مسلم وابو داود والنسائى والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم قال صحيح على شرطهما .

(٢) أخرجه ابن عبد الله من حديث أبى الدرداء بسند غير صحيح ، وابن الجوزى فى العلل ورواه الشيرازى عن أنس .

٨٠٠ م • وكان على الغرب أن ينتظر أربعة قرون كى يعرف هذا الاختراع ويستخدمه بفضل العرب !! •

وقد أخذت المكتبات تزداد فى أرجاء الوطن العربى كله • ففى عام ٨١٥ م حيث كانت أوروبا تجهل القراءة ، أسس الخليفة المأمون « بيت الحكمة » وكان يضم مليون مجلد • وفى عام ٨٩١ م أحصى أحد المسافرين أكثر من مئة مكتبة عامة • وفى القرن العاشر كانت مدينة النجف فى العراق تلك المدينة الصغيرة تمتلك أربعين ألف مجلد • وكان بحوزة ناصر الدين الطوسى رئيس مرصد مرجا مجموعة من أربعمئة ألف كتاب • وفى الطرف الآخر من الأرض الاسلامية ، فى أسبانيا المسلمة ، كان الخليفة الحكم فى قرطبة يمتلك فى القرن العاشر مكتبة تضم أربعمائة ألف مجلد بينما لم يستطيع ملك فرنسا « شارل الخامس » الملقب بالحكيم أى العالم ، أن يجمع بعد أربعة قرون تسعمائة مجلد • ولكن لم يستطع أحد أن ينافس خليفة القاهرة « العزيز » حيث أن مكتبته ضمت مليونا وستمائة ألف مجلد منها ستة آلاف فى الرياضيات وثمانية عشر ألفا فى الفلسفة !!! •

هذا الشغف بالكتب وهذه البادرة الأولى لتمثل الثقافات السابقة فى فارس ، والصين والهند واليونان ما كانت تنطوى على نوع من الاصطفاء • فقد تلقى المسلمون هذا التراث وجددوه على هدى من أفكارهم » •

ثم ينتقل جارودى الى دراسة النظام التثقيفى عند المسلمين :

« قدم المسلمون أكثر المساهمات غنى فى الثقافة العالمية وذلك بواسطة ايمانهم • لقد قاد التعصب أوروبا الى الركود • خلال عدة قرون بينما عرف المسلمون المنتصرون أن يتمثلوا التراث الثقافى بدلا من أن يدمروه مهيئين بذلك ازدهار وانتشار ثقافتهم : ثقافة مستوحاة من كافة وجوهها من رؤيا القرآن التوحيدية وهذا ما يعبر عنه النظام التثقيفى الخاص بالاسلام •

ان نقطة الانطلاق فى أى نوع من التعليم هو القرآن الذى يدرس فى

(جارودى)

المسجد ، فان حكمة الايمان تجمع كافة العلوم فى كل عضوى لأنها جميعا تصبو الى عالم هو فى كليته تجل من الله أى وحى بآيات الله ، فما الكون الا مشهد دينى تتجلى فيه عظمة القدرة الالهية •

ان احدى ميزات العلم العربى الجوهرية والمستقاة من مبدأ التوحيد هى مبدأ ترابط العلوم فيما بينها فليس هناك فاصل بين علوم الطبيعة وعلوم المرئيات من جهة والدين أو الفن من جهة أخرى ، كما أنه ليس هناك حاجز منيع بين مختلف العلوم من الرياضيات وحتى الجغرافيا : وهذا ما يفسر عدد العبقريات الموسوعية فى الثقافة الاسلامية • ففى التقليد الغربى لا يوجد الا ليوناردو دافنشى واحد • أما فى الاسلام فان المفكرين يعدون بالعشرات من بينهم الكندى والرازى والبيرونى وابن سينا الذين أبدعوا فى آن واحد فى مجال الطب والرياضيات والاسلاميات والجغرافيا وكثيرا ما تفوقوا حتى فى مجال الشعر مثل الرياضى عمر الخيام • أو الفيلسوف العربى ابن عربى • أو فى الموسيقى مثل الرازى العظيم •

هذه الرؤيا التوحيدية تفسر أيضا الأهمية التى أعطتها الحضـــارة الاسلامية لتصنيف العلوم • فحين نوضح وحدة الواقع والمعرفة نكون منساقين الى تأمل فى وحدة العالم والى وحدانية الله التى تدل عليها وحدة الطبيعة • وهكذا يكون الانتقال غير منقطع من المسجد الى المدرسة • حيث يبقى تعليم وحدانية الله ووحدة الطبيعة أساسا لكل معرفة • وهذه حال القيروان فى فاس والزيتونة فى تونس • والأزهر فى القاهرة • وجامعات سمرقند وقرطبة • وليس هناك فاصل بين أمكنة التعليم وأمكنة البحث الأخرى مثل المراصد ، التى بنى أولها الخليفة الأموى عبـــد الملك فى دمشق عام ٧٠٧م أو المشافى ، التى كانت فى الوقت نفسه كليات للطب •

أما خارج العالم الاسلامى فقد أنشئت كليات الطب الكبرى : كلية سالون فى صقلية بعد نهاية الحكم العربى وكلية بولونيا وكلية مونبلييه

بفرنسا على غرار كليات الطب العربية وتحت تأثير تعاليمهـــا • وكذلك الجامعات الأوروبية من جامعة باريس الى جامعة أكسفورد التى أنشئت على الطراز الاسلامى بعد ثلاثة قرون •

واذا تجاوزنا الأحداث الواقعية ، واذا تجاوزنا أولوية الاكتشافات العربية التى لا تقبل الجدل ، تلك الاكتشافات التى كانت تنسب دائما وبشكل مضحك الى هذا أو ذاك من العلماء الاغريق أو الغربيين • فان روح العلم العربى الأساسية هى التى تجعل منه شيئا آخر ليس مجرد حلقة العلوم القديمة والحديثة ، ولذا فليست العـــلوم العـــربية علوما محنطة أكل الدهر عليها وشرب قياسا الى العلم الحديث ، وانما هى تصلح للمستقبل كما صلحت للماضى بما يكمن فيها من حكمة وروح » •

وحينما نستوعب العلوم الاسلامية فى مضمونها وجوهرها وغايتها : لا فى منجزاتها التاريخية فحسب نرى أنها تمنحنا الطريق والأسلوب للتخلص من النزعة العلمية التى تفصل بين العلم والعقيدة • وتعمل على تهيئة الفكر والعقل لخدمة أهداف مرسومة • أو مبطلة الزعم القائل أن العلم المبتور المجرد من أبعاده يساهم فى تفتح وبناء الشخصية الانسانية وفضلا عن ذلك فان النزعة العلمية الغربية تعمل على جعل العلم قيمة مطلقة بذاتها تزن الأمور بحسب فوائدها ومنافعها دون النظر الى الأهداف السامية الا هدف تحقيق النمو والقدرة » •

بهذا المنهج العلمى المنصف يتحدث جارودى عن الرياضيات ـــ فى المنظور الاسلامى فيرى أنها نقطة اتصال بين المحسوس والمفهوم بين عالم الصيرورة وعالم الخلود • ففى العلوم والفنون من العمارة الى الموسيقى حيث تسود الهندسة والعلاقات الرياضية • الرياضيات هى طريق الوحدة :

« ان ما نسميه ـــ نحن الغربيون ـــ الأرقام العربية ، والتى يسميها العرب الأرقام الهندية معترفين بالفضل ، أدخلها الخوارزمى الى أوروبا • وكان الكتاب الهندى « سيد هانتا » الذى أحضر الى بلاط المأمون عام

٧٧٣ م يحتوى على نظام الترقيم العشرى الذى يسمح بواسطة تسعة رموز بالاضافة الى الصفر بالتعبير عن أى رقم • لقد أحدثت انقلابا في الرياضيات • هذه الطريقة الجديدة فى الحساب حملت اسم ذلك الذى عمم بشكل منهجي منظم الاكتشاف الهندى ، فكان لوغاريتم الخوارزمى الذى قلب رياضيات الغرب بعد ذلك بقرنين بفضل جامعة قرطبة الاسلامية على يد الراهب جيربير الذى أصبح فيما بعد البابا سليفستر الثانى • وكانت صقلية هى الطريق الثانى للدخول — فقد كتب ليوناردين بونانتشى والذى لقب فيبونانتشى فى أحد كتبه :

« الرموز الرقمية التسعة عند الهنود التالية 9-8-7-6-5-4-3-2-1 وبهذه الأرقام التسعة والرمز 0 الذى يسمى باللغة العربية صفرا يمكننا كتابة أى عدد كان • بالنسبة للهنود الصفر المرموز له بدائرة يعنى العدم ، الفراغ " Sunya " وترجمه العرب حرفيا : الصفر الذى يعنى الفراغ (الفارغ) » •

بما أن العدد — ١ — هو الرمز الأكثر مباشرة للمبدأ الالهى فان سلسلة الأعداد وتراكيبها هى السلم الذى يرقى بها الانسان من المتعدد الى الواحد أى الى الله • وهكذا تكون الرياضيات مرتبطة مباشرة مع الرسالة الأساسية : رسالة التوحيد • انها اذن علم مقدس وهى واحدة من عمليات القياس التى توحى بوجود ما هو الهى فى العلوم الأخرى كما فى هندسة الفنون • فاذا ما تذكرنا أن العدد ٤٤٤٤ يكتب بالأرقام الرومانية (MMMCCCXLIV) ، وهذا ما يجعل أية عملية حسابية صعبة جدا ، نستطيع أن نتصور دور هذا الترقيم المعتمد على مكان الأرقام واكتشاف الصفر فى تطور العلوم والتقنيات وكذلك فى الصناعة والتجارة والمحاسبة •

بدءا من ذلك الوقت جعل العرب الرياضيات تقفز قفزة حاسمة بشكل منفصل عن الاغريق بعد أن تمثلوا كافة اكتشافاتهم وبخاصة لأنهم ما عادوا يرفضون كل ما ليس بمحدود على أنه غير عقلانى • وعلى

العكس فان عمنهم كان منصبا على غير المتناهى • فثابت بن قرة (١) الذى توفى عام ٩٠١م يخالف أسلوب التفكير الاغريقى ويبحث عن المجموعات اللانهائية والتى هى جزء من مجموعة أخرى لا نهائية ، مثل مجموعة الأعداد الزوجية بالنسبة لمجموعة الأعداد •

وكان الخوارزمى رائد علم الجبر • والتسمية نفسها « الجبر » هى عنوان كتابه الشهير ، ومع مبدع الجبر يجرى الانتقال من المفهوم الاغريقى للعدد ككمية صرفة الى مفهوم العدد كعلاقة صرفة • أما القاشانى فقد حسب فيما بعد العلاقة بين الدائرة وقطرها العدد tt ، وطور عمر الخيام نظرية الأعداد الصماء مبتعدا بذلك عن تعصب الاغريق لفكرة المحدود كما كتب بحثا منهجيا عن المعادلات من الدرجة الثالثة وظل بحثه هذا سائدا حتى القرن السابع عشر • لقد افتتح ثابت بن قرة الحساب التكاملى فى القرن التاسع وربط الهندسة بالجبر • وانصب اهتمام الطوسى والبيرونى وأبو الوفا على العلاقات انجيبية واكتشفوا القاطع قبل كوبرنيك (٢) بعدة قرون •

ويذهب جارودى الى أن المسلمين قد أخذوا فى ميدان الفلك بتراث بطليموس وتجاوزوه بشكل واسع وكان عملهم فى هذا الميدان أيضا متوافقا توافقا تاما مع الغايات الأساسية التى يتوخاها الاسلام • كتب البتانى (٨٧٧ — ٩١٨) وهو أحد كبار الفلكيين فى القرن التاسع :
« بعلم النجوم يصل الانسان الى برهان على وحدانية الله والى معرفة حكمة الله فى ما خلق » •

---

(١) ثابت بن قرة : ابو الحسن الحمدانى (٨٢٦ — ٩٠١) عالم رياضيات وفلك وطبيب عربى واحد المترجمين من اليونانية الى العربية ترجم كتب أرخميدس — اقليدس وبطليموس وغيرهم •
كانت قياساته للقطع المكافىء والاجسام الفراغية المتولدة منه مثيرة للانتباه ومن مؤلفاته الطبية كتاب « الذخيرة » .

(٢) نيقولا كوبرنيك هو عالم فلكى بولونى ، لقد برهن على أن حركة الكواكب المزدوجة حول نفسها وحول الشمس (١٤٧٣ — ١٥٤٣ م) •
جارودى : الاسلام دين المستقبل ، ترجمة الاستاذ عبد المجيد بارودى •

ويعقب جارودى على ذلك بقوله :

« ان العلم العربى هو علم تجريبى على عكس الاغريق • فقد أقام الخليفة المأمون مرصدا فى بغداد لرصد حركات الكواكب بشكل منظم • وقد أجريت قياسات دقيقة تحت اشراف يحيى بن منصور وتم التأكد منها فى مركز جند يسابور كما تم التحقق منها بعد ذلك بثلاث سنين فى مرصد جبل قاسيون قرب دمشق • ونظم فلكيو المأمون الجداول « المأمونية » التى طورت جداول بطليموس بشكل جذرى • وكتب ثابت بن قرة كتابا : « فى الأسباب الداعية الى الاستعاضة عن جدول بطليموس بجداول محققة بالبراهين » • « وضع جداول محققة بدلا من جداول بطليموس » •

وعن الطبيعة والجغرافيا فى القرآن الكريم يقول جارودى بعد دراسة عميقة :

« تناول العلماء المسلمون الجغرافيا بالروح نفسها • وكتب البيرونى فى كتابه — الآثار الباقية عن القرون الخالية —« لقد اخترق الاسلام العالم من الشرق الى الغرب وتقدم فى أوروبا ووصل الى حدود الصين وأثيوبيا وبلاد الزنج (جنوب أفريقيا) وأرخبيل ماليزيا وجاوة وبلاد الترك والسلاف • لقد تعلمت شعوب عديدة التفاهم المتبادل وهذا أمر لا يهيؤه الا ترتيب من الله » • وفى هذا المجال أيضا تحقق تقدم كبير على بطليموس •

وهناك كثير من الأمكنة وصفتها جغرافية بطليموس فى شرق بعض الأمكنة وهى الآن فى غرب الأمكنة الأخرى •• يعود سبب هذه الأخطاء الى غموض فى المعطيات مثل تقديرات خطوط الطول وخطوط العرض » •

لقد أتى الاتفاق التام من القياسات : كخطوط الطول والعرض ، ومن الملاحظة • فتطور رسم الخرائط وتشكيل التضاريس والجغرافية البشرية المرتبطة بالتاريخ • وتضافرت المؤثرات العديدة كمتطلبات التجارة والايجار والجمع والادارة وتأمل العمل الالهى ورموزه لتجعل من الجغرافيا —

مع الرياضيات والفلك والطب — أحد العلوم التى قدمت فيها الحضارة العربية الاسلامية للعالم أعظم الهبات • ان القرآن هو كتاب الله المسطور ، أما الطبيعة فهى كتابه المنظور الذى يدل على ابداعه وذاته ووجوده •

وأرض الجغرافيين مثلها فى ذلك مثل سماء الفلكيين هى دليل على وجود الله سبحانه وتعالى •

ليست الطبيعة شيئا فارغا من المعنى كما يجعلها علم الطبيعة عند ديكارت الذى يعتبر كل حقيقة مجرد كمية صرفة والذى يعتبر أن الحيوان ما هو الا آلة وهذا المفهوم طبقه لامترى فيما بعد (١٧٠٩م — ١٧٥١م) على الانسان ذاته • أما فى العلوم الاسلامية فلم ينفصل من أى منها — من الفلك الى الجغرافيا ومن الرياضيات الى الطب — الواقع المدروس عن التأمل فى أصوله وغاياته • والعلم الاسلامى الذى لا يبعدنا عن الملاحظة الدقيقة جدا ، والحساب هو الذى علم العلم الغربى الطريقة التجريبية المناقضة لطريقة الاغريق التى تهتم بالنظريات أكثر مما تهتم بالواقع ، وطرق الرياضيات الحديثة ، لأنه طبقا لأسسه الأولى لا يفصل العلم عن الحكمة •

ويخلص جارودى من دراسته للجغرافيا فى الاسلام الى أن امتداد رقعة الحضارة الاسلامية التى فاقت فى اتساعها كل امبراطورية سابقة ، والتحرك عبر المحيطات والصحارى من المحيط الهادى الى المحيط الأطلسى ومن الصحراء الى آسيا الوسطى اقتضت معرفة صحيحة بالأرض •

ولما كان الحج الى مكة من كافة أصقاع العالم المعروفة أنذاك يضاعف عدد الذين يشاركون فى هذه الأسفار وبالتالى عدد الذين يحتاجون هذه المعرفة • ولما كانت التجارة ذات المدى البعيد تتطلب بالاضافة لرسم الخرائط بدقة للمسافرين والقوافل معرفة عميقة بالمصادر والاحتياجات فى كل مكان فقد ازدهرت الجغرافيا عند المسلمين •

وعن الجغرافيا الاقتصادية والبشرية يقول جارودى :

اعتبارا من القرن التاسع شق الملاحون العرب المحيط الهندى ، وفى القرن العاشر — أى قبل ماركوبولو (١٢٦٤م — ١٣٢٤م) بثلاثة قرون — أعطى التاجر العربى سليمان أول وصف ، وفى القرن الرابع عشر طاف ابن بطوطة (١٣٠٤م — ١٣٥٦م) العلامة والرحالة الكبير فى كل البلاد العربية من تومبكتو الى بخارى ثم مر بأفغانستان ووصل الى دلهى فى الهند ثم سيلان وأخيرا وصل الى كانتون فى الصين وكانت مذكراته تعبيرا عن عجائب مشاهداته .

وتحت عنوان « ازرعوا أرض الله » يقول جارودى فى كتابه « الاسلام دين المستقبل » :

« ولكن بالاضافة للتأمل والدراسة والبحث هناك أيضا العمل الذى يمارس على هذه الطبيعة . (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) . (واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة) فالانسان اذن مسئول عن التوازن الطبيعى : مسئول عن الطبيعة التى يجب عليه أن يجعلها أكثر جدارة بخالقها .

وفى هذا المجال أيضا لا يوجد انفصال بين الجغرافيا والزراعة أو الجيولوجيا وعلم النبات أو بين المعرفة والتطبيق . فان بين دراسة تغيرات التضاريس — تكون طيات الجبال وتشكل السهول وحتى المحيطات وتوضع الرسوبيات وتشكل المياه الجوفية ، وبين استخدام الانسان لهذه الدراسة لمتابعة زراعة الأرض بحسب مشيئة الله « توجد علاقة وثيقة هى علاقة الأرض بالسماء علاقة الانسان بخالقه جل جلاله .

ثم ينتقل جارودى فى دراسته للعلم الاسلامى الى نظرية الطب وتطبيقاتها فى الحضارة الاسلامية فيقول :

« من العبث أن نتطرق لاحدى أجمل زهرات العلم الاسلامى : الطب ، دون أن نؤكد الى أى حد تنبع خصائصه الجوهرية وطريقته فى التعرض للمسائل من رؤياه الاسلامية للعالم . لا نرتكز الطريقة التجريبية — على

الملاحظة والتطبيق السريرى فى التعليم فقط وانما بشكل خاص على الاهتمام الدائم بالوحدة ، طبقا لمبدأ التوحيد الاسلامى ، الذى يجد هنا تطبيقا مباشرا عليه ، وحدة الجسم الناتجة عن ترابط الأجزاء مع الكل ، وحدة الكائن الحى مع بيئته ومع مجموع التأثيرات الكونية ، وحدة الروح مع الجسد التى تبشر بالطب النفسى — الجسمانى ، وهكذا تحتل مفاهيم التوازن والتوافق الجوهرية فى الاسلام المكانة الأولى فى نظرية الطب وتطبيقه •

هذه النظرية الطبية ، المرتبط بما وراء الطبيعة وبعلم الكون وبالفلسفة فى الاسلام ، والتى تعتبر الانسان عالما أصغر يختصر فى ذاته مجمل درجات الكائن ، ترتبط بشكل وثيق بالتطبيق العملى • فلا يتم تعليم الطب إلا فى المستشفى • وتؤكد هذه النظرية الطبية على الوقاية فالاجراءات الطقسية فى الوضوء ونظافة الجسم والامتناع عن الكحول والصوم تقود مثلا الى نشر كتاب عن الحمية الغذائية فى الأندلس الاسلامية فى القرن الثانى عشر « كتاب الحمية » لأبى مروان بن زهر •

منذ منتصف القرن الثامن أصبح الطب الاسلامى وريثا للماضى كله • ففى نهاية القرن الثالث اجتمع فى جند يسابور أطباء الهند وايران ومصر • وعند اغلاق مدرسة ايديسيا فى بلاد ما بين النهرين جعلت مركزا للأطباء ، ووجد فيها آخر علماء وفلاسفة مدرسة أثينا ملاذهم عنـــدما طردهم الامبراطور جستنيان فى عام ٥٢٩ م • وأدخل اليها الطب الهندى فى القرن السادس • وهكذا جمع الاسلام فى جنديسابور والاسكندرية أهم مركزين للطب •

وكانت الكنيسة المسيحية قد سدت الطريق فى وجه تطور الطب ففى عام ١٢١٥م ، فى مجمع لاتران ، استصدر البابا أنيوسان الثانى قـــرار الحريم : « كل طبيب يعالج مريضا قبل أن يعترف هذا المريض ، يقع تحت طائلة الحرمان • لأن المرض ناتج عن الخطيئة » •

بسبب هذا الموقف لم تكن كلية الطب فى باريس تمتلك طوال ستمئة

سنة الا كتابا واحدا يلخص كل العلم الطبى فى العالم منذ العصـــور الوسطى القديمة وحتى عام ١٩٢٥م ، وكان هذا الكتاب من تأليف عالم مسلم هو أبو بكر الرازى ، الذى ما زال تمثاله مع تمثال ابن سينا قائما فى المدرج الكبير فى شارع « الآباء القديسين » • وان موسوعة الرازى الطبية الكبرى (٨٦٥م — ٩٢٥م) هى الكتاب العلمى الوحيد الذى بقى مسيطرا عشرة قرون • وطبع بحث الرازى عن الجدرى والحصبة المكتوب فى القرن العاشر أكثر من أربعين مرة بين ١٤٩٨م و ١٩٦٦م • وحتى مجىء كلود برنارد • ان كتب الرازى التى ترجمها (فاراجو) الى اللاتينية عام ١٢٧٩ م بأمر من شارل الأول قادت خطى الطب عن كافة شعوب الغرب على مدى ألف عام • وفاق تأثير ابن سينا ، المولود فى بخارى عام ٩٨٠ م والمتوفى فى همذان عام ١٠٣٧ م ، على تأثير الرازى ، وبقى كتابة القانون فى الطب الذى ترجمه جيرارد وكريمون (توفى عام ١١٨٧م) ، الموسوعة الكبرى فى الطب فى عصر النهضة لوضوح تصنيفه للأمراض والدراسة المنهجية لأعراضها • وبقيت طرقه تشخيص ذات الجنب والتهاب الرئة وتضخم الكبد والتهاب الصفاق متداولة خلال ثمانية قرون • ولقد كان ابن سينا كالرازى عبقريا جامعا : كان طبيبا وعالما فى الطبيعيات وفيلسوفا وشاعرا وعالما فى الدين •

وأننا مدينون لابن الهيثم المعروف فى الغرب باسم الحسن المولود فى بصرى عام ٩٦٥م ، والمتوفى فى القاهرة عام ١٠٣٩م ، الرياضى الكبير والفلكى والمهندس بأبحاثه على البصريات التى دشنت العــلم التجريبى • ولقد قام فضلا عن ذلك كطبيب عينى بأول وصف تشريحى للعين •

ولم يتردد روجر بيكون الذى تلقى علومه فى جامعــات أســبانيا الاسلامية فى نسخ بصريات ابن الهيثم فى الجزء الخامس من كتابه (الكاتب الكبير) المكرس لدراسة علم البصريات ، وهذا ما جعل منه رائد الطريقة التجريبية والعلم الحديث فى الغرب • ان روجر بيكون يعترف بنفسه باقتباساته على الأقل فى ميدان الفلســفة فقــد كتب :

« الفلسفة نابعة من الأرض العربية ولا يستطيع أى لاتينى أن يفهم الحكمة والفلسفة اذا لم يكن يعرف اللغات التى ترجمت منها » •

وفى عام ١٠٠٠م فى بغداد نجح طبيب عينى آخر هو الموصللى فى شفاء مرض الساد « الماء الزرقاء — وهو تكثف فى عدسة العين يمنع الابصار » بطريقة الامتصاص بواسطة ابرة مجوفة وهذه العملية لم تنجح فى الغرب الا فى عام ١٨٤٦ م قام بها الدكتور بلانشيه •

أما ابن النفيس (١٢١٠م — ١٢٨٨م) الذى فسر أعمال ابن سينا بكتابه الذى سماه (شرح تشريح القانون) فقد اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل هارفى بأربعمائة سنة ، وقبل ميشيل سيرفيه بثلاثمائة سنة ، وأحد تلامذته أبن القف المسيحى (١٢٣٣م — ١٢٨٦م) •

وقد اكتشف ابن النفيس الأوعية الشعرية التى لم يكشفها ما لبيجى بواسطة المجهر الا فى عام ١٦٦٠م أى بعده بثلاثة قرون • وكان العرب يمارسون التلقيح ضد الجدرى بواسطة شق يسمح بادخال قليل من صديد بثرة خفيفة التقيح قبل جينير بعشرة قرون •

ولقد درس الجراح الأندلسى أبو القاسم (توفى ١٠١٣م) سل الفقرات (مرض بوت) قبل برسيفال بوت (١٧١٣م — ١٧٨٨م) بسبعة قرون وأجرى ربط الشرايين فى حالة البتر قبل امبرواز باريه (١٥١٧م — ١٥٩٠م) بستمئة سنة وبالاضافة لذلك زود أبو القاسم أطباء العيون والأسنان والجراحين بأدوات لاجراء العمليات •

ولقد كان تأثير العوامل النفسية على الجسم موضع اهتمام ابن سينا الذى كتب :

« علينا أن نعتبر أن أفضل العلاجات وأكثرها فعالية يقوم على زيادة القوى العقلية والنفسية عند المريض وتشجيعه على المقاومة وخلق جو مريح حوله واسماعه موسيقى عذبة وأن نفسح له المجال للقاء أشخاص يفضلهم ويحبهم » •

ويقول جارودى بعد دراسته المستفيضة للعلوم والثقافة فى الحضارة الاسلامية :

« لم نعدد هذه المظاهر التى أدتها المساهمة العربية الاسلامية فى تطور العلوم والثقافة بشكل عام الا لكى نبين ضرورة التغيير الجذرى فى النظرة التاريخية التى شوهتها بعمق المركزية العرقية الغربية التى أقامت حاجزا بين الثقافات الأغريقية ، الرومانية والثقافة التى كانت تسود فى عصر النهضة » .

وعن أوروبا والتراث العربى الاسلامى — يقول جارودى :

« وهكذا اذا تخلينا عن اعتبار أوروبا مركزا للتــاريخ كله ، واذا اعتبرنا أن التطور البشرى ككل ، فيجب أن نعترف أنه ليس هناك من القرن السابع وحتى القرن الرابع عشر أية فجوة سوداء بل ازدهار احدى ألمع الحضارات فى التاريخ : الحضــارة الاســلامية . لم يرث عصر النهضة تعاليم الحضارة الاغريقية مباشرة بعد عصر مظلم يسمى أحيانا « عصر النهضة » : والمسيحية ليست امتدادا للفكر الهلينى وليس القديس توما خلفا لأرسطو .

هذه الأســطورة الأولى المتعمدة على مركزية أوروبا والتى يجب تبديدها كما يطرد حلم كاذب . لقد أخصبت الحضارة العــربية الماضى وهيأت المستقبل خلال ألف عام ، وتحملت طوال هذه المدة مسؤولية هذه الثقافة التى نقلتها الى أوربا عبر أسبانيا وصقلية .

لقد مارست الثقافة العربية الاسلامية تأثيرها على الغرب بواسطة ترجمة المؤلفات الاسلامية فى طليطلة الى اللاتينية على يد الأسقف ريمون (١١٢٦م — ١١٥١م) بايحاء من الفونس الرابع ملك قشتالة زوج ابنة خليفة قرطبة . ومن فريديريك الثانى دى هوهنشتان ملك صقلية الذى طلب من ميشيل سكونوس ترجمة كتاب الحيوان لابن ســينا وكتــاب « شروح أرسطو لابن رشد » للعمل على ايصالها الى جامعات الغرب ...

فطبعت هذه المؤلفات القادمة من أسبانيا ومن صقلية نظرة الغرب الى العالم بطابعها الخاص •

وهكذا ولد الغرب الحديث في اسبانيا تحت حكم ألفونس السادس وفى صقلية تحت حكم فريدريك الثانى وكلاهما معجب شغوف بالثقافة الاسلامية ، فكانت الحضارة العربية الاسلامية هى أصله ومنبعه » •

ويقول جارودى عن •• العلم والحكمة :

لا يرى المفكر الفلسفى فى الاسلام ••• العالم متطورا فى اتجاه أفقى مستقيم وانما فى اتجاه تصاعدى : فالماضى ليس خلفنا وانما هو تحت أقدامنا •

وهكذا فان العلم والتكنولوجيا الموجهين نحو غايات أسمى لا يستطيعان أن يصبحا غاية فى حد ذاتهما كما فى التقليد الغربى منذ عصر النهضة •

لقد سمى هذا المرض فى الحضارة الغربية « الحداثة » هذا المرض هو عكس للعلاقة بين الوسائل والغايات • لقد أصبحت الوسائل فى المنظور الغربى غاية • ولم يعد العلم والتكنولوجيا متلائمين مع البيئة ولا كانا فى خدمة الانسان • بل على العكس أصبح الانسان ومحيطه خاضعين لتطور العلوم والقنيات المستقبلة والفتاكة • ونتيجة لعكس هذه العلاقة بين الوسائل والغايات ما زال نصف سكان العالم يناضلون فقط من أجل العيش بعد الثورة الصناعية بقرنين ، تلك الثورة التى تنبأ لنا متنبئوها الكاذبون بازدهار غير محدود للانسان • كما مات خمسون مليونا من الكائنات البشرية فى العالم الثالث من الجوع فى عام ١٩٨٠م • وهل هناك ادانة أكثر وضوحا ابرنامج التنمية فى الغرب الذى لم يستطع بعلومه وتقنياته أن يحل أى مشكلة حيوية على وجه الكرة • فقد كتب البيولوجى الكبير جوزيف فيدهايم فى عام ١٩٦٩م : « لدينا أسباب كافية تدفعنا للاعتقاد بأن مشاكل العالم لن تحل طالما أننا ننظر اليها من وجهة نظر أوروبية محضة » •

ان الكمية والسعى وراء القوة والنمو والفردية قد أشهرت افلاسها • فلا يمكن لأى حضارة أن تبنى على هذه الأسس • فقد انتهى العلم والتكنولوجيا اللذان ولدا فى هذه التربة الى نتائج متعارضة بشكل كامل مع مشاريع ووعود النهضة الغربية •

فما العلم والتكنولوجيا الا وسائل رائعة فى خدمة الغايات الانسانية فاذا فصلنا العلم — الذى هو تنظيم للوسائل — عن الحكمة — التى هى تبصر فى الغايات أصبح العلم هداما للانسان •

لهذا السبب لم نؤكد على المظاهر التى لعب الاسلام فيها باكتشافاته دور السابق للعلم الغربى الحالى ، ولكن على مزاياه الخاصة فى اخضاع الوسائل البشرية للغايات الالهية • وفى هذا المنظور فان على القرن العشرين وبعد حين القرن الحادى والعشرين • أن يتعلما الكثير من الاسلام • ولابد لنا هنا أن نكرر أن المسلمين بايمانهم قدموا أكبر مساهمة فى العلم العالمى ، وفى المقام الأول بتأكيدهم المطلق على التسامى • من ناحية العلوم ، هذا يعنى أن العلم والتكنولوجيا منظمان بحسب غايات أسمى من غايات النمو والقدرة ، غايات أسمى من غايات الانسان الفرد أو المجتمع • وهذا يعنى أن هناك استخداما للعقل يختلف عن استخدامه الذى ينزل به من سبب الى سبب ومن سبب الى نتيجة • فان هناك عقلا يصعد به من غاية الى غاية ، من غايات دنيا الى غايات أسمى : ودون أن يصل الى النهاية ، يصبو الى الوحدة الكاملة التى تضفى معنى على كافة الغايات •

يتساءل سيد حسين نصر فى كتابه « العلوم الاسلامية » عن العلاقات بين العلم المسمى « العلم الحديث » وبين العلم الاسلامى وعن عكس العلاقات بين العلم والحكمة :

« لو قدر لعلماء المسلمين فى القرون الوسطى أن يبعثوا الى الحياة فان دهشتهم لن تكون من التقدم فى الأفكار التى ولدت أصلا فى أحضانهم !! بل أن دهشتهم ستكون من أن نظام القيم قد قلب رأسا على

عقب !! وسيرون أن مركزا الرؤية أو بؤرتها التى انطلقوا منها قد صار هامشيا ، وأن محيط تلك الرؤية قد صار هو المركز وان تلك العلوم الحديثة التى كانت فى الدرجة الثانية من اهتمامات المسلمين قد تصدرت ساحة اهتمامهم الآن فى الغرب •

أما علم الحكمة الثابت ذلك العلم الأول فسوف يرون أنه تضاءل حتى كاد ينعدم !!!

وينطلق جارودى فى دنيا الفنون الاسلامية مطوفا بين المبانى المختلفة ثم يخلص من ذلك الطواف الى حقيقة هامة هى أن كل الفنون الاسلامية تقود الى المسجد ، ثم يقول :

« كنت أشعر دائما وبشكل حى أن كل المساجد قد بناها شخص واحد تلبية للاله الواحد الأحد الذى لا اله غيره » •

ثم يضيف جارودى :

« ان المسجد بأحجاره المنقوشة والمزخرفة والتى تبدو وكأنها خاشعة لله تصلى له ، هو مركز اشعاع كافة نشاطات الأمة الاسلامية هو نقطة الالتقاء التى تتجه اليها كافة الفنون • ان البنية الأساسية لكل مسجد تذكر ببيت النبى : باحة يمكن فيها للمرء أن يتطهر بالوضوء ، ثم فناء أو ممر تحفه الأعمدة للاحتماء من الشمس وأهم ما فى المسجد المحراب الذى يدل المؤمنين على القبلة • وهكذا فان محور كل مسجد قطعة من شعاع يتجه نحو الكعبة المشرفة فى مكة (ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا) « آل عمران ٩٦ » وهكذا ينشأ فى كل مسجد شعور بالاتحاد مع مركز العالم • وكذلك كل مسجد بجداره الرئيسى — القبلة — الذى يجتمع فى مواجهته المؤمنون للصلاة هو قطعة من أحدى الدوائر التى تنتظم حول مركز واحد تحيط بالكعبة الى آخر حدود العالم • أن محراب المسجد يدل على مركز الكون ويجسد فى الوقت نفسه وحدة

الأمة الاسلامية فى العالم : هناك توافق بين بنية المسجد ووظيفته • فانه لا يشبه الكنيسة المسيحية ولا المعبد الاغريقى لأنه ليس اطارا يحتفظ فيه برفات قديس ولا مكانا لاحتفالات طقسية • على عكس المعبد الاغريقى والهيكل المسيحى المتمدين بشكل طولى ، يمتد المسجد بشكل عرضى ليسمح لأكبر عدد ممكن من المؤمنين بالوقوف فى مواجهة القبلة مباشرة •

ليس هناك أى نص فى القرآن يحرم الصور ولكن القانون الأساسى فى الاسلام يحتم أن لا يكون انتباه المؤمن مشتتا خلال تأمله فى الوحدة الالهية ، وهذه رغبة فى الانعتاق من ظواهر العالم واغراءاتها الوثنية بقصد اعادة النفس الى الواحد المتعال على كل حقيقة جزئية • فلا يمكن التعبير عن التوحيد الا عبر نظام رياضى ، عقلانى ، متناسق وموسيقى فى آن واحد يتجاوز كل تصوير مادى •

فالأشكال الوحيدة التى يمكن أن نجدها فى المسجد هى اذن أشكال هندسية يعادل تكرارها الفنان فالمنحنيات التى لا تعرف الحدود والتوريقات والمسدسات المرسومة ضمن دوائر ، والمثلثات المتقابلة الرؤوس ترمز الى عظمة الله اللامتناهية » •

(ولله ما فى السموات وما فى الأرض والى الله ترجع الأمور) •

« سورة آل عمران ــ آية : ١٠٩ »

وينتقل جارودى الى البحث فى نظرة الغرب للاسلام ــ تلك النظرة التى وقفت عقبة بينهما وبين جوار الحضارات ــ فيقول :

ان وجهات نظر مختلفة جدا تسمح لنا بتحديد هذه النظرة •

يقول « رودينسون » ان الحروب الصليبية ساهمت فى اعطــاء صورة سيئة عن الاسلام الى جمهور واسع وان مؤلف الراهب غيبير دى نوجان المتوفى عام ١١٢٤م الذى يحمل العنوان التالى : (الفرنسيون « الصليبيون » يرضون وجه الله) ، انه برنامج التزمت اللاحق كله •

انه يعرف بسذاجة مبدأ الصورة المشوهة التى أعطاها ، بعد أن يعترف بأنه ينقل الأحداث كما تناقلتها الألسن يحدد نظريته : يمكننا أن نذم دون تردد ذلك الذى تفوق طبيعته المشؤومة كل ما يمكن أن يقال عنه من سوء • ولعل أفضل ما يقال بأن هذا سب واضح •

ويضيف جارودى :

« بعد اخفاق الصليبيين الكامل أصبحت البعثات التبشيرية المسماة بالاستشراقية بديلا عنها وبناء على اقتراح رامون لول « ١٢٣٤م — ١٣١٦ م » ، الراهب الكاثوليكى الذى جاب أفريقيا الشمالية والشرق الأوسط حيث أدرك أهمية الثقافة العربية قرر مجمع فيينا الدينى الذى انعقد فى عام ١٣١٢م انشاء مجموعة كليات للغة العربية فى كل من باريس وأكسفورد وبولونيا وأفينيون وسالامنك » •

وعن الاستشراق يقول جارودى :

« لقد ولد الاستشراق ولكنه لم يكن عملا يهدف الى البحث العلمى دون غاية أخرى بل كان يهدف الى تذليل العقبات فى وجه مشروع تبشيرى ، وقد لعب الاستشراق فى أحيان كثيرة هذا الدور المشبوه لصالح الكنيسة أو السياسة أو الاستعمار أو لجعل الشرق يتناسب مع رغبات وحاجات السيطرة الغربية • وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر الأمثلة الشهيرة : ان الجد الأكبر « للاستشراق العلمى » ليس بالنسبة لفرنسا فقط بل بالنسبة لكل أوروبا (ومن خلاله بشكل خاص تلقن جوته أصول الشعر الفارسى) هو سليفسر دى ساسى (١٧٥٧م — ١٨٣٨م) ، أول أستاذ للعربية فى مدرسة اللغات الشرقية (فقد أصبح مديرها عام ١٨٢٤) ، وأستاذ فى الكلية الفرنسية (الكوليج دو فرانس) ، أن هذا المعلم المتمكن فى الاستشراق قام بعمل مماثل فى وزارة العلاقات الخارجية • فقد أصبح مستشارا للسياسة الشرقية فى فرنسا » وقام بتأليف نشرات باللغة العربية لجيش نابليون الكبير ثم نداء الجيش الفرنسى لاجتياح الجزائر سنة ١٨٣٠م •

(جارودى)

ان ماكس ميلر الذى أتقن تدريس اللغة العربية ، والسنسكريتية : والديانات الشرقية ، وأبدع فيها قد أشرف فى جامعة أكسفورد على تدريب وتخريج دفعات من الحكام المستعمرين لتسيير أمور الحكم فى الهند •

أما « روث بيندكت » (١٨٨٧م — ١٩٤٨م) الأستاذ فى جامعة كولومبيا فقد كتب فى عام ١٩٤٦م مؤلفه الشهير : « السيف والأقحوان » بناء على طلب مخابرات الجنرال ماك أرثور وبمساعدتهم لتسهيل ادخال اليابان ضمن مشاريع السياسة الأمريكية •

ان هذا الاستشراق الذى كان غالبا لخدمة المشاريع التبشيرية أو الأمبريالية أو الاستعمارية أو السياسية قد ساهم فى خلق تبرير علمى لأحكامهم المسبقة وادعاءاتهم التسلطية • وأخيرا لسيطرتهم على العالم الثالث •

وقد ظهر هذا الموقف من (الشرق) أو بادىء ذى بدء فى تلك النظرة الى الآخرين فالغرب لم يحاول أن يستوعب الشرق ويتعلم منه ، ويسبر ما يحركه من الداخل ، من عقيدة وحضارة ، بل نظر اليه نظرة سطحية منطلقا من معاييرنا (نحن الغربيين) فى استيعاب الأمور وكأن الحضارة الغربية هى القدرة العليا التى يجب اتباعها • وفى أفضل الأمور كان الغرب يدرى ما لدى الشرق لكن لم يكن يُكِنّ له المحبة •

ويسخر جارودى من نظرة الغرب الى الشرق فيقول :

وليس من الأهمية بمكان أن يمثل الشرق على الطريقة الأوروبية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فى مسرحية (القدس المحررة) لتاس أوفى ، تيمورانك ، لمارلوف أوفى ، عطيل . لشكسبير ، أو أن يبحث نوليتر راسين عن جمل تركية حقيقية فى مسرحية (البرجوازى النبيل) وأن يتجادل راسين مع كورنى فى مقدمة « باجازيت » حيث قال لقد التزمت بتعبير جيد فى مآساتى عما تعرفه من أخلاق ومبادىء الأتراك الأساسية •

ان ما يهم هنا هى الحضارة الغربية التى تعتبر نفسها هى الوحيدة الجديرة بالتعبير عن ما هو شامل • أما فى القرن الثامن عشر فقد كان الأمر على عكس ذلك فهؤلاء الذين يعارضون النظام يحاولون أن يجعلوه نسبيا وذلك بمقارنته مع الشرق الذى تخيلوه بشكل يعكس عالمهم •

وهكذا فالشرق لم يكن له أى وجود خاص به لكنه النفى الذى يمكننا أن نحكم وأن ندين من خلاله سلطة لويس الخامس عشر فى الرسائل الفارسية لمونتسكيو ، فالشرق أصبح ببساطة الوجه الآخر للحقيقة الفرنسية وصورتها المقلوبة ، ووجهة نظرها الانتقادية فلقد استخدم الشرق دائما : لصالح الحقيقة الغربية والفرنسية • فان رأينا فيه مع بيير بابل فى قاموسه النقدى من خلال سيرة حياة شريفة لمحمد نموذجا من التسامح يعارض القمع الدينى فى فرنسا • أو أننا نرى فيه مع فولتير ، فى كتابه « محمد » نموذجا للخداع الدينى فى خدمة الاستبداد السياسى فالاسلام (وبشكل أعم الشرق) لم يدرس أبدا لذاته بل يسخر خدمة للصراعات الأيدلوجية الغربية •

لقد تبدلت صورة الاستشراق مع بداية القرن التاسع عشر • أن غزو نابليون لمصر قد أشار الى نوع جديد من العلاقات بين الشرق والغرب • فى بادىء الأمر علاقة سيطرة وضغينة • فبونابرت الذى اصطحب معه « فولنى » صاحب كتاب السفر الى مصر والى سوريا الصادر فى عام ١٧٩٧م ، لم يتردد أن يؤكد للشعب فى الاسكندرية ضمن إعلان صادر فى الثانى من تموز ١٧٩٨م : « نحن المسلمون الحقيقيون » ومع احتقاره لكل دين مهما كان ، حاول نابليون التظاهر بأنه يحارب من أجل الاسلام • ونتيجة لهذه الغزوة ، أى الصدام الأول السياسى والعسكرى المحسوس بين الشرق والغرب فى القرن التاسع عشر ولدت فى مصر حركه اصلاحية مسلمة تختلط بين الحداثة وتقليد الغرب ، فى نفس الوقت الذى ولد فى أوروبا (وخاصة فى فرنسا) ميل فاسد نحو الاغترابية الرومانيسية المختلطة بعقدة تفوق الغرب • ففى مقدمة كتابه « الشرقيات » الصادر عام ١٨٢٩م امتدح فيكتور هوجو كون : « أن

الدراسات الشرقية قد وصلت الى حد لم تبلغه من قبل • ففى عصر لويس الرابع عشر كنا هلنستيين اغريقيين والآن نحن شرقيون ، حيث لم يساهم مثل هذا العدد من الأدمغة على نبش التراث الآسيوى العظيم من قبل » •

لكن هذا لم يمنع فيكتور هيجو أن يكوّن صورة مشوهة عن الشرق مستوحاة من مجموعة تخيلاته التامهة •

أما شاتوبريان فى كتابه « رحلة من باريس الى القدس » الصادر عام ١٨١١م فانه لا يرى فى الشرق غير انعكاس لذاته بنظرة ابداعية •

وقال عنه ستاندال « معلقا على كتاب شاتوبريان » لم أجد قط شيئا ينضح بالأنانية والتبجح أكثر منه » • لكن ما قاله ستاندال لم يمنع شاتوبريان الذى يحمل آلاف الأحكام المسبقة أن يكتب عن الحروب الصليبية ما يلى :

« ليس المهم فقط ، تحرير هذا القبر المقدس وانما معرفة من الذى سيسيطر على هذه الأرض (القدس) أهى تلك الديانة الصليبية المعادية لكل أشكال الحضارات والمشجعة من حيث المبدأ على الجهل والاستبداد والاستعباد ، أم تلك الديانة الاسلامية التى عرفت كيف تحيى عند المعاصرين احترام العصور القديمة الحكيمة والتى ألغت الرق •••

حتى الكاتب الكبير « جيرار دى نيرفال » لم يجد فى الشرق الذى طاف به بين عام (١٨٤٢ م — ١٨٤٣م) شيئا غير الفراغ بالاضافة الى تكرار لبعض المعلومات التى اقتبسها حرفيـا من المستشرق الانكليزى (لان) • أما فلوبير فقد أخذ على عاتقه فى رواية (سالمبو ١٨٤٩م — ١٨٥٠م) مهمة بعث شرق وهمى تمخضت عنه تصوراته الخيالية •

وهكذا فاننا دائما أمام فكرة عن الشرق اخترعها الغرب لنفسه معتقدا فى بعض الأحيان انه يعيد بعثه على طريقة لورنس العرب السخيف

الذى كتب بغرور : « كان هدفى أن أصنع أمة جديدة ••• وان أوهم عشرين مليونا من الساميين بأنى أعطيهم مرتكزات يبنون عليها قصورا وهمية من أفخارهم الوطنية ، أن كل مقاطعات الامبراطورية لا تساوى عندى موت انجليزى واحد • واذا كنت قد أعددت للشرق بعض الشعور بالذات وبالهدف والمثل الأعلى فقد كيفت هذه الشعوب مع نموذج حكم جديد تنسى فيه السلالات الأوروبية المسيطرة انجازاتها الفظة » •

ويؤكد جارودى ان الشرق والغرب لن ينفصلا بعد الآن فيقول :

« فى ألمانيا التى لم تستعمر الدول الاسلامية كما استعمرتها انجلترا وفرنسا قامت محاولات لفهم الاسلام • لقد أقر « هيدرر » أن العرب هم أساتذة أوروبا ، وقد أكد « فريدريك شليفل » منذ عام ١٨٠٠م على ضرورة تحالف النمط القوطى مع الشرق ضد المدرسة الكلاسيكية أما « جوته » بشكل خاص فقد كتب منذ عام ١٧٧٤م قصيدة فى تمجيد محمد • وفى عام ١٨٣٩م دعا فى ديوانه الشرق الغربى الى هجرة نحو الشرق ليستمد منه شبابا جديدا • وجوته يرى فى الاسلام ايمانا ومجتمعا قائما ليس على الاستسلام بل على العمل •

فجوته الذى كان معجبا من خلال تأثره بكتاب مختارات أدبية عربية لسيلفستر دى ساسى — بالشعراء الفارسيين المسلمين ، بالرومى ، وبالسعدى ، وحافظ وجامى ، كتب جوتة : « لم يعد ممكنا فصل الشرق عن الغرب وقد استنتج فى كتابه هذا : اذا كان الاسلام يعنى الخضوع لله ، فاننا نعيش ونموت على الاسلام • وكان يؤيد جوته ما ورد فى كتاب « العلوم الالهية » • أما هيجل رغم اعترافه بأن التوحيد فى الاسلامفى الاسلام يستبعد كل تمييز عرقى أو طبقى أو ملكى ويفرض الصيام والزكاة ، يورد فى مقاله وفى الصفحات القليلة التى خصصها للاسلام (فى الجزء المخصص للعالم الجرمانى !!) كافة أفكار المركزية الأوروبية المتداولة ، حتى وصل به الأمر الى تسمية الاسلام بالمحمدية وهذا يفضح جهله بمزايا الاسلام •

وعن سماحة الاسلام — يقول جارودى :

فى ألمانيا عام ١٩١٧ كتب « أوسفالد شبنجلر » فى كتاب « تدهور الغرب » ، تاريخا دون نظرة عرقية أوروبية يمكن أن يكون تاريخا وحيدا لا نظير له فى العالم • وهناك آخرون لاحظوا مثلا أن قوة الساسانيين العسكرية قد هزمت فى معركة واحدة فقط هى معركة « نهاوند » فى عام ٦٣٧م أو أن مملكة القوطيين الجنوبيين قد انهزمت فى معركة واحدة بالقرب من نهر « ربوباريات » فى عام ٧١١م •

ان هذا الكاتب بلغ من السخف فى النصح لقومه بما كان يجب القيام به وما يمكن فعله فى الوقت الذى بقى غياب المقاومة بالنسبة له أمرا ليس له تفسير •

ان « شبنجلر » الذى لم ينغلق على ذاته خارج التاريخ الشامل فى معزل أيديولوجى غربى ومسيحى قد جمع فى حزمة واحدة كل التجمعات اليهودية والمسيحية والأريوسية والنسطورية والقائلين بطبيعة المسيح الواحدة والمجوسيين ، ويوضح أن سر انتشار الاسلام المذهل لا يكمن فى عنفه الحربى • فقد استوعب الاسلام بشكل مباشر تام تقريبا : اليهودية والمجوسية ، وأيضا كنائس الجنوب والشرق • وها هو ذا بطريرك « سبلوسى » يعقوب الثالث يتذمر بأنه منذ ظهور الاسلام الأول دخل فيه عشرات الألوف من المسيحيين وفى أفريقيا الشمالية أى فى وطن القديس أوجستنيوس سجد شعب هذا البلد كله أمام الله •

ويستنتج « شبنجلر » ما يلى : « عرفت المسيحية فترتين لحركة الفكر الكبيرة « منذ بداية الميلاد وحتى عام ٥٠٠م فى الشرق ومنذ عام ١٠٠٠م حتى عام ١٥٠٠ فى الغرب » • ان هاتين الفترتين هما ربيع الثقافات التى احتضنت أيضا التيارات الدينية المخالفة للمسيحية التى تنتمى اليها •

ولكى نستوعب التاريخ بنظرة واحدة ، من المفروض أن نتخلى عن غربيتنا التى أصبحت شيئا فشيئا محلية وأن نلقى نظرة شاملة على مسيرة

وانما كان ذلك بأبشع صورة : القوة وحتى القوة العسكرية • ومنذ ذلك الحين ظهر تياران فكريان : الحداثة أو المحافظة وبدأ ذلك فى مصر أولا ثم تبعه العالم الاسلامى العربى كله وشيئا فشيئا كافة مناطق الحضارة •

ويستعرض جارودى الحداثة ونتائجها — فيقول :

بالنسبة للبعض — أى أنصار التجديد — كان المستقبل يتمثل بتقليد الغرب ، وأول ما استورد منه — أمراضه • وبما أن النظرة القومية قد جزأت الأمة فى أوروبا « حسب أهواء الحروب الطويلة بين الأمراء الاقطاعين التدامى ثم حسب أهواء منافسات السوق بين التجار صناع البرجوازية الجدد ، فقد تشكلت الحدود بين الوحدات القومية فى أوروبا فى القرن التاسع عشر بالاعتماد على وحدات جمركية أو بحد السيف وخلال الحروب بين العائلات المالكة فى أوروبا الاقطاعية • وقد نقلت الى العالم المستعمر حروب ومنافسات الأمم الأوروبية المستعمرة « كما نقلت علاقة القوة فى كلا الحالين السابقين » •

فهذه الحدود القومية فى كل من أميركا اللاتينية وأفريقيا السوداء وعلى الأرض الاسلامية ما هى الا نتيجة للاقتسام الاستعمارى وبشكل خاص بين أسبانيا والبرتغال وفيما بعد بين هولندا وانجلترا وفرنسا •

وفى المجال السياسى كانت الحداثة تعنى النظام البرلمانى أى تصدير بنية وثقافة الى بلدان تختلف عنها جذريا وتصدير أنظمة ولدت من شروط تاريخية خاصة بانجلترا وفرنسا وكذلك ادخال قوانين السوق « الذى يعتبر جرا من حيث المبدأ » الى الساحة السياسية فى مراحل الرأسمالية الأولى •

وفى المجال الاقتصادى كانت الحداثة تعنى الانضمام الى السوق الغربية • وطبقا لعلاقة القوى الموجودة فى هذه السوق امتنعت عن تسهيل نقل طرق انتاجها — التصنيع — ولكنها شجعت بشدة تقليد طريقتها فى الاستهلاك وذلك لأنها تريد أن توجد مستهلكين لها لا منافسين •

ونتيجة لذلك أجبرت البلدان التى استعمرت أولا ثم أخضعت لتبادلات غير متكافئة على تقديم المواد الأولية واليد العاملة لتسمح لأقلية أطلق عليها اسم النخبة ــ أى بعض وسطاء المحتل أو المستعمر ــ بالمساهمة فى طريقة الاستهلاك هذه .

وفى المجال الثقافى ، كانت الحداثة تعنى تبنى فلسفة النمو على الطريقة الغربية بشكل ضمنى . لأن التقنية ليست أبدا محايدة فانها تحمل فى مضمونها مسوغاتها الذاتية التى تسمح لها أن تتخذ مكانة « هدف بحد ذاته » و « القيمة » المثلى : أى التطور الذى يعنى ازدياد السيطرة على الطبيعة وعلى البشر . ومن هنا ينتج رفض كل أشكال التعالى اذ أن « الهدف بحد ذاته » فى السلطة التكنوقراطية يأخذ مكان هذا التعالى ووظيفته . ان تمجيد الفردية ــ اذ تجعل منافسات السوق وكما أوضح ذلك « هوبس » منذ خطوات الرأسمالية الأولى ، تجعل من الانسان ذئبا لأخيه الانسان ــ وقصر الفكر على البحث عن الوسائل دون الغايات لأن الأهداف قد حددتها مسبقا طبيعة النمو والقوة المسيطرة .

منذ ذلك الحين لم يعد ينطبق على كافة مفاهيم الحداثة تعريفها على أنها ازدهار الثقافة والايمان الاسلاميين الذى يستجيب للاحتياجات الجديدة عند الشعوب ذاتها وانما كغرس لطريقة حياة أوجدتها شعوب أخرى لتلبى حاجاتها الخاصة .

ان اقحام الاحتياجات الغربية فى حياة المسلم قادته لكى يصبح غريبا عن نفسه وذريته وتاريخه وثقافته ومستقبله . ان ما اقترح على العالم العربى الاسلامى ليتخذ طابع الحداثة هو أن يمر بالمراحل ذاتها التى اجتازتها أوروبا منذ أربعة قرون . وأن يعتبر ماضى الآخرين على أنه مستقبل له .

ويجيب البعض بشكل معارض تماما على السؤال ذاته : كيف يمكن للعالم العربى الاسلامى أن يؤكد حقه فى الوجود ؟ بدلا من أن يقولوا كما قال السابقون : « بتقليد الذين يقتلوننا وبأن نصبح مثلهم » ، يعتبرون

أنه اذا كان هناك انحطاط فى العالم العربى الاسلامى فهذا لأن المسلم قد ابتعد عن دينه وعن تعاليم الأقدمين وأنه قد انسلخ عن تراثه لينساق مع اغراءات الشيطان الغربى من هنا قرروا أن يجعلوا الاسلام فى حصن لا نوافذ له ولا أبواب ولا حتى فتحات مطلة على السماء ، وأن يدافعوا بشكل كلى عن التراث دون أن يطهروا الفكر الاسلامى من الشوائب والترسبات التى اغرقته فى أحيان كثيرة بتأثير ما جلبته اليه المجتمعات المختلفة التى دخل فيها •

وقد ظهرت تيارات تعصبية عرفتها جميع الأديان وهى التى قامت على عدم التمييز بين الأشكال الثقافية والأشكال التنظيمية التى آمنت بها خلال تاريخها الطويل وصار كل فريق من المتعصبين يختار من الماضى الفترة التى تبرر تصرفاته الحالية على أكمل وجه •

ويؤكد جارودى حقيقة هى أن الاسلام لا يعرف التعصب قائلا :

« ان القرآن الكريم وحى الله تعالى الذى أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم يكرر فى أماكن عديدة أن الله قد أرسل لكل أمة نبيا بحيث تتمكن كل أمة من فهم الرسالة السماوية على طريقتها • وعلى الرغم من أن محمدا هو خاتم النبيين ، يتضح من تفسيرات الخلفاء الراشدين ، أولئك الذين كانوا من صحابة النبى الأول • وكذلك من جاء بعدهم من مختلف المذاهب الشرعية أن الكلام المنزل على النبى رغم كونه آخر رساله الهية مشرعة فانه لا يستبعد مطلقا الاجتهاد الضرورى لحل القضايا الجديدة التى تطرح خلال انتشار الاسلام فى مجتمعات مختلفة عن أمة المدينة •

وعندما يعلن أحد رجال الدين فى ايران : « ان الاسلام يكفى فى ذاته » ، فاننا نفهم تماما أنه يرفض كلية أدوات وشذوذ العالم الغربى ، ولكن هذا الاكتفاء هو على نقيض التعليم الاسلامى اذا كان يعنى أنه ليس عليه أن يتعلم أى شىء من غيره فى حين أن عظمة الاسلام منذ

منشئه وفي قمته ناشئة عن كونه عرف كيف يستوعب في حضارته الأشكال الحضارية السابقة وكذلك أفضل ما في الثقافات العظيمة من تراث ليشكل منها تركيبا لم يعرف له مثيه ويسمو بها !!

يقول الشاعر الانجليزى ت.س. اليوت : « ان من أكبر أخطاء الغرب الثنائية » .. وعلى هذا هل هناك ازدواجية أسوأ من أن ندعى أننا نحافظ فى المجتمع ذاته على دين بشكله المتزمت الشديد فى العلاقات الخاصة ؟ وندخل فى الحياة الاجتماعية كل أدوات الغرب بدءا من طرائق استهلاكه الجنونية وحتى أشغال تقسيم العمل وتوزيع الطبقات والفردية المتوحشة التى تفكك المجتمع المدنى والمجتمع السياسى ؟ .. فالتسامى والأمة لا يمكن الفصل بينهما فى الاسلام .

فهل نحن بهذا الشكل على طريق استخلاص تركيب ؟ أو على العكس على طريق مجاورة كل ما هو سيىء فى حداثة البعض وتقليــد البعض الآخر ؟ وكان المؤرخ الانجليزى « توينبى » يقول : « ان قضية الشرق هى قبل كل شىء قضية الغرب » . فعندما نذكر موجة التعصب الحالية فى بعض البلدان العربية الاسلامية يجدر أن لا يغيب عن ناظرنا مسؤولية الغرب ، خلال فترة الاستعمار والانتداب كلها . وكذلك فى يومنا هذا أيضا عن طريق مشاريع حواضر البلدان الأصلية القديمة والأمم المتعددة . فقد أصبحت وما تزال مراكز اتخاذ القرار والسلطة بمعظمها فى الخارج . ان رد الفعل الدفاعى الأول هو الانفصال عن الخارج ، والانطواء على النفس . السبب الثانى الأكثر وضوحا خلال السنوات العشر الأخيرة هو افلاس التقدم المزيف على الطريقة الغربية العقيم ، ليس فقط عن اعطاء معنى وغاية للحياة وانما عن انقاص الفروق فى العالم وضمن كل بلد على حدة . ومن هنا يمكننا استيعاب رد الفعل فى رفض هذا الأمل باكتشاف طريق اسلامى خاص لا يمت بصلة لا الى فوضى الرأسمالية الفارغة من كل روح . ولا الشيوعية السوفيتية . لقد فشلت حلول الغرب ، الفارغة مما جعل هذا الفشل دليلا قاطعا على كل أشكال التعصب ونموها . فاذا لم يرفع الصدأ المتراكم عبر عصور السيطرة والاضطهاد عن ايمان

البعض واذا لم تع تكنوقراطية البعض الآخر الفساد الجوهرى فى نظام لا يطرح أبدا قضية مغزاه الانسانى وهدفه فان الحوار قد حكم عليه بالسير فى طريق مسدود •

ويقرر جارودى أن الأمة الاسـلامية — أمة قائمة على التسـامى والايمان — فيقول :

لقد حان الوقت لنعيش ضمن رؤية موحدة التاريخ كان ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام يشكلون فترات يقظة فيه ، وأن نلتقى بالاسلام كما فعل الأب « لولوبخ » عندما فكر بتعاون مشترك مؤكدا : « ربما لم يكن الفصل بين مسيحيين ومسلمين وانما بين مؤمنين تقليديين — فى كلا الأمتين) متمسكين بصياغة ثابتة لحقائق الوحى من جهـة ومؤمنـين باحثين همهم قراءة الكتب المقدسة والتوفيق بينها وبين الحياة » •

بهذا الشكل فقط ، وبغض النظر عن كافة المنـازعات التاريخيـة والاختلافات العقائدية ، يمكن أن نتطرق معا الى المشـاكل الحقيقية : الايمـان والسـياسـية • لأن هـذه هى المشـاكل الحقيقيـة فى عصرنا هذا وأننا نكتفى بتعـدادها فى خلاصـتنا هذه لأننـا بينـا فى هذا التأمل فى الاسلام الحى ما هى المساهمات التى يمكن أن يقدمها لحلها • فهل بمكن تأسيس مجتمع على علاقات القـوة بين الأفـراد أو المجموعات التى تشـكله بحيث يؤدى الى أعمـال عنف مأجورة والى توازن ارهابى وأعمال ردع ليست سوى تسمية أخرى للابتزاز أو بمجرد ابرام عقد ؟ أو أن المجتمع لا يكون انسانيا بحق ، أى أن ما هو الهى يكمن فيه ، الا بفعل ايمان مشترك بأهداف تتجاوز المصالح الخاصة وحتى العامة ، فتحقيق نظام لا يكون انسانيا الا لأنه لا يتجاهل الانسان •

ثم يتساءل جارودى عما يجب أن يتعلمه الغرب من الاسلام : فيقول :

فى ميدان الثقافة ماذا نستطيع أن نفيد من الاسلام ؟ كما فى أى ميدان آخر • قبل كل شىء علينا أن نشارك فى الاسلام نفسه ، فى ايمانه الذى

يلهم ويحيى ويوحد هذه الثقافة • وقبل كل شىء علينـــا أن نعرفها • وهذا يحتم علينا أن نتخلى عن عصرنا الوسيط الذى كان يعتبر الاسلام نقيضا للمسيحية وأن نتخلى أيضا عن وسادتنا العلموية والوضعية المستقاة من عصر النهضة الذى حرم الواقع والفكر المتسامى من بعدها ـــ اذى رأى فى الاسلام وفى كل نوع من أنواع الايمان وجها من وجوه الظلام ! هذه التحفظات من قبل المسيحية أو غير المسيحية تجاه الاسلام لا يمكن أن تكون مبررا لعدم الافادة من المنهج الاسلامى • لأن هذه التحفظات لا وجود لها فى الأصل ، أى فى القرآن الذى ورد فيه ذكر المسيح ومريم باحترام عظيم :

(وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور) « المائدة : ٤٦ » •

(انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه) « النساء : ١٧١ »

ان المسيحية التى ينتقدها أحيانا النبى صلى الله عليه وسلم .. هى المسيحية التى كانت سائدة فى عصره .. ويبين الأب ميشيل حايك بقوله : « ان نظرة تاريخية على وضع المسيحيين السوريين العرب بدءا من مجمع « أفسوس » بشكل خاص يفسر موقف نبى الاسلام ويبرئه من الأقوال التى ينسبها اليه أحفاد المسيحيين فى عصره » • هذا التذكير لا يتضمن أية فكرة اندماجية أو تعصب دينى • لا شىء أكثر ضررا لحوار متبادل مخصب فى الوقت الحاضر الا حلم بعض دبلوماسى الغرب والشرق الخاطىء . بدمج كافة الديانات فى ايمان واحد •

ليس علينا أن نحجب ونخفى الفروق التى هى عميقة فى الواقع ، فالاسلام يرفض فكرة الصليب • وبالنسبة للمسيحى تشكل هذه الفكرة ثورة فى نظرته الى الله • فالاسلام الذى يرى من حيث المبدأ أنه لا يجوز أن يعلو أى حب على حب الله ، يختلف عن المسيحية التى تعتمد فكرة التثليث عقيدة أساسية فيها •

ويرفض الاسلام فكرة التجسيد لدى المسيحية ففى تأكيده المطلق على التسامى لا يمكن أن يقبل بفكرة « ابن الله » ولا بفكرة « أم الله » رغم أن القرآن يعترف بعذرية مريم رضى الله عنها •

ويرفض الاسلام الثالوث • وحتى اذا صح أن الصياغات المتأثرة بالاغريق لهذه العقيدة تفسر هذا الرفض فانه يظل فوق مستوى الصياغة والشكل • فهناك فرق فى المضمون • فقد تضمنت الأسماء الحسنى أسماء تؤكد الرحمة والعفو والاحسان والمغفرة ولهذا فان الله تعالى هو الرحمن الرحيم العزيز الودود الغنى الواهب الكريم ••••

ثم يهتف جارودى من أعماقه — الله أكبر — ويقول :

هذه الفروق العميقة الجذرية مع كل ما تتضمنه فى طريقه وجود الله فى حياتنا لا يمكن مع ذلك أن نخفى ما يمكن أن يكون مفيدا حقا فى روح لاسلام الحية : فالتوحيد الذى استبعد باسمه كل شرك ، يعتبر المسلم الشرك أول الآثام وآخرها • لا اله الا الله •• هذا التأكيد الجوهرى فى الشـــهادة الاســـلامية يقصى كل ما يمت الى الأصـــنام التى تكثر فى فى مجتمعاتنا : كصنم النمو ، والتطور ، وصنم التقنية العلموية ، وصنم الفردية وصنم القومية ، وصنم قوة السلاح والجيش ، وكل منها يحمل محرماته ورموزه المقدسة وطقوسه • ويؤكد الاسلام رفضه لهذه الأصنام بقوله : لا اله الا الله • والله أكبر •• واننا لنعرف قوة قلب الأنظمــة والتحرير فى هذا التأكيد على الايمان التى جعلت الجيوش العــديدة تتراجع بينما ايماننا ومنذ زمن طويل لم يعد قادرا على صد أى شىء وبشكل خاص أصنام الأسلحة والقوميات الفاتكة التى تميل كنائسنا الى تأييدها •

ان الحوار مع الاسلام يمكنه أن يحيى من جديد جوهر ايماننا الذى يستطيع أن ينقل الجبال من أماكنها •

وفى علاقة الانسان بالطبيعة يمكننا أن نتعلم من الاسلام • أن نعكس موقفنا الذى ، منذ عصر النهضة ، يجعلنا :تعامل مع الطبيعة بروح عدائية غازية • هدفها الوصول الى فرض علاقات بيننا وبينها كمالك ومملوك ، سيد وعبد : مالك جشع لا يشبع من رغبته فى استثمار ملكيته دون حدود وسيد ظالم وغير مبال فى آن واحد •• تقوده نظرته المحدودة الى عدم التردد فى قتل عبده من جراء المهام التى يلقيها على عاتقه • ان التعاليم القرآنية مختلفة تماما : اذ أنه يمكننا من أن نكتشف فى الانسان بعده الكونى • فالانسان حسب الاسلام يحمل فى ذاته كل درجات وجود الكون ، وهذا العالم الصغير فقط هو الذى قبل المسؤولية القصوى مسؤولية الوعى والايمان :

(ان عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) •

« سورة الأحزاب : آية ٧٢ »

ولهذا حتى حين بدا « ظلوما جهولا » فقد تولى منصب « خليفة الله على الأرض » مسؤولا ومكلفا بالحفاظ على توازن العالم • وربط كل كائن بمنبعه الأصلى وبغايته ضمن طبيعة كل حقيقة جزئية فيها رمز لوجود الواحد أى الله •

من الناحية العملية هذا التفكير المشترك يسمح لنا مثلا أن نطرح مشاكل الطاقة بتعابير تنم عن الحضارة والمعنى الذين نصبو اليهما • فبدلا من استهلاك احتياطات الطاقة الجوفية بشكل عشوائى • دون أن نحسب حسابا للأجيال اللاحقة ولا للأهداف الانسانية الشاملة ، يعلمنا هذا التفكير أن نعود الى نبع الطاقة الذى لا ينضب ، المتمثل فى المياه والبحار والشمس والأرض والرياح •

ان معنى الوحدة هذا : وحدة الحكمة والعلوم ، وحدة التفكير فى الغايات وتنظيم الوسائل يمكن أن يعلمنا من جديد استخداما كاملا للعقل من أجل

مرحلة جديدة فى الحياة ومن أجل الانسان الذى يفكر فيها • أن نستخدم العقل استخداما كاملا فى مرحلة حياة جديدة وانسان جديد يبنى هذه الحياة • ولا ينتقل من سبب الى سبب ومن شرط الى شرط وانما من غاية الى غاية ، من غاية دنيا الى غايات أسمى حتى يصل الى ذلك الصعود الذى يجعله يعى أنه غير متناه وأن لا شىء يعفى الانسان من مسؤوليته المرهقة وحريته الدافعة الى السمو فى اختيار هدفه الأسمى • لأن الله فى الاسلام لا يكشف نفسه وانما كلامه فقط • وللانسان كامل الحرية فى رفض هذا الكلام أو فى جعله مبدأ مبدعا لعمله •

وفى مجال الفنون ، ألا يتجه الشعر الاسلامى الحالى الى ملاقاة أولئك الذين يعيشون على أمل ابداع فن يحمل الى الصورة الانسانية شيئا جديدا فى فرنسا وفى الغرب ؟

ولكى نتغلب على كافة العقبات التى تتعارض مع الحب والابداع والايمان ، هذه العقبات التى نشأت من طريقتنا الغربية فى السعى وراء النمو ومن الثقافة الوصفية والتقنية التى تدعمها ، يستطيع هذا اللقاء مع الروح التنبؤية أن يحيى ايمانا جديدا فى الابداع والحب لأن أعظم شاعر مسلم فى عصرنا هذا « محمد اقبال » قد قال : « ان هدف القرآن الأساسى هو أن يحيى فى الانسان وعيا أسمى لعلاقاته العديدة مع الله والعالم » •

وهكذا أكد جارودى لعالمه الغربى أن مستقبل الحضـــارة مرهون بالاسلام دين الأمس واليوم والمستقبل •

الباب السابع

من الشك الى سكينة الايمان

يقول الامام محمد عبده فى رسالة التوحيد :

« جاء القرآن الكريم فانتهج بالدين منهجا لم يقم عليه ما سبقه من الكتب المقدسة ، منهجا يمكن لأهل الزمن الذى أنزل فيه ، ولمن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه » فترك الاستدلال على نبوة النبى صلى الله عليه وسلم : بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة ؛ وحصر الدليل فى حال النبى ، مع نزول الكتاب عليه فى شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ، ولو فى أقصر سورة منه ، وتناول من مقام الألوهيـــة ما أذن الله لنا وما أوجب علينا أن نعلم .

لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ، ادعى وبرهن ، وحكى مذاهب المخالفين ، وكر عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الأحكام والاتقان على أنظار العقول ، وطالبها بالامعان فيها ، لتصل بذلك الى اليقين بصحة ما قاله ودعا اليه ، حتى أنه فى سياق أحوال السابقين كان يقرر أن للخليقة سنة لا تتغير وقاعدة لا تتبدل فقال :

(سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

« الفتح : ٢٣ »

وصرح : (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .
« الرعد : ١١ » واعتضد بالدليل حتى فى باب الأدب ، فقال :

(جارودى)

(ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) .
« فصلت : ٢٤ »

وقد تآخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس ، على لسان نبى مرسل بتصريح لا يقبل التأويل ، وتقرر بين المسلمين كافة — الا من لا ثقة بعقله ولا بدينه — ان من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به الا عن طريق العقل ، كالعلم بوجود الله وبقدرته على ارسال الرسل ، وعلمه بما يوحى به اليهم ، وارادته لاختصاصهم برسالته وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة ، وكالتصديق بالرسالة نفسها ، كما أجمعوا على أن الدين أن جاء بشىء قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل » (١) .

وليس من شك فى أن الاسلام هو الدين الوحيد الذى نادى بسلطان العقل ، وجاهر بسيادة العلم ، فسمع الناس لأول مرة فى تاريخ الأديان كلمات : تفكير ، و « نظر » و « برهان » و « تبعة شخصية » و « بطلان التقليد » .. وكان الناس قد اعتادوا بعد طول مقام على الاعتقاد بلا برهان ، والتقليد لغير معصوم ، للدخول فى دور الرشد والاستقلال الذاتى عن الأوصياء والقادة والمتحكمين فى دور نفسياتهم وعقلياتهم ، فأرسل الله محمدا بالاسلام لافتتاح هذا العهد الكريم ، والنداء بالدين العام الخالد ، فكان أول شىء وجه اليه عنايته تحطيم القواعد التى يقوم عليها التدين فى مرحلة الجهل وهى التقليد الأعمى ، واهمال النظر الشخصى واغفال التفكير الحر ، ومنابذة العلم ، الا ما كان منه موافقا للدين فى نظرهم . ومؤيدا لسلطان المتحكمين فى ارادات الناس وعقولهم ، فأهاب الاسلام بالناس الى تقدير العقل ، وسيادة العلم ودعا الى النظر والتفكير ، وتطلب البرهان ، واشتد فى هذه الدعوة الى حد أنه لو أحصى ما جاء فى القرآن الكريم من قوله تعالى : (أفلا تعقلون) (لعلهم يتفكرون) (أفلا تذكرون) .. الخ ، لتعدت العشرات . ولو أضيفت اليها

---

(١) محمد عبده : رسالة التوحيد ، ص ١٩ .

الآيات التى تطالب الناس بتنبيه قواهم العقلية ، ورفض ما لا يعززه برهان ، وترك كل ما لا يؤيده علم ، ونبذ التقليد للآباء (الخ) لبلغت فان القرآن كله قائم على هذه الأصول ويدعو لها « حتى ليتجلى لمن يتلوه أنه ازاء دعوة للعقل والتفكير لا شبيه لها فى تاريخ القرون الماضية ، بقصد أحداث بناء جديد يوافق العقل والعلم (١) •

وفى العصر الحديث انتصر المنهج السلفى على يد الامام محمد بن عبد الوهاب ، للاجتهاد ، حيث ذهب الى أن باب الاجتهاد مفتوح لمن كملت له العدة ، ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فوض بعض صحبه فى أن يجتهد فى حضوره أو غيابه ، وحث على الاجتهاد حيث قال : « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، واذا اجتهد وأخطأ فله أجر » : أى وعد المجتهد بالثواب سواء أأخطأ أم أصاب ! والامام محمد بن عبد الوهاب يرى باب الاجتهاد مفتوحا على الدوام ، فالامام أحمد يستدل على ذلك بقوله : صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتى على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك» • ولئن فهم التقليد قبل بلوغ الحجة — لن يفهم التقليد ممن بلغته ، لأنه عندئذ يكون ممن قال تعالى فيهم فى سورة التوبة : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) •

والامام محمد بن عبد الوهاب يصنع صنيع ابن تيمية ويأخذ بمذهب ابن حنبل « فاذا لم يقتنع بحث مى غيره من مذاهب أهل السنة وأخذ بما يسعفه الدليل • وان كانت سعة المذهب الحنبلى تسعفه حتى فيما قال : انه رجع فيه الى عموم الأدلة (٢) • ولذلك يذهب الدارسون الى أن المنهج السلفى أعاد الفكر الاسلامى الى صفاته من تخليط الحشويين ، وهدم الأفكار الباطنية والدعاوى الغيبية والخرافات الدينية والانحرافات التى تصيب الفكر بالشلل والمجتمع بالتخبط والارادة الفردية بالغيبوبة

---

(١) محمد فريد وجدى : الاسلام دين الهداية والاصلاح ، ص ٣٠ •
(٢) عبد الحليم الجندى : الامام محمد بن عبد الوهاب او انتصار المنهج السلفى ، ص ١٣٦ •

الكاملة أو الناقصة • كما واجه المنهج السلفي تحديات العصر بمنهج علمي يحارب عدوين للأمة (١) :

الأول : عدو لها من نفسها هو انعدام الثقة في نفسها والاستكانة أمام الطغاة ، والتواكل في انتظار السماء أن تمطر الذهب والفضـــة ، أو أن يسقط عليها لأولياء والشفعاء أو الشياطين النعمة أو النقمة أو اللقمة •

والآخر : عدو لها من خارجها ـــ تردها جيوشه ، كلما رفعت رأسها الى مجتمع الخرافات والغيبيات ، وتفرض عليها الشحناء والشـــقاق كهيئة ما فرض هذا العدو نفسه بالسلاح تعاطى الأفيون على شـــعوب الصين •

ولذلك غدت أقرب سير السلف في تجديد الفكر الاسلامي هي سيرة ابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهاب ، واجماعهم على ايجاب الاجتهاد وذم التقليد ، والتفكير بحرية مبتدئين بالقرآن والسنة ، ومنتهين اليهما ، وما هو الا منهج السلف الصالح ، اذ يأخذ العلم من مصادره وينتفع بنعمة العقل الذي ميزنا الله به ، وأمرنا باستعماله ، والاعتبـــار بواقع الكون وعجائبه التي أمكننا الله منها وأظهرنا عليها ، وأمرنا بالنظر فيها بحرية واستخلاص الدلالة منها بأمانة تقطع بوجوده سبحانه وتعالى • وعلى هذه القواعد ـــ النزاهة والواقعية والأخذ بما هو محسوس وارتبـــاط المعلول بالعلة ـــ يجري الاستخلاص في سائر العلوم ـــ وهذا هو المنهج العلمي الذي أمر به القرآن وعلمته السنة •

يقول الشافعي في « رسالة الأصول » : « وليس لأحد أبدا أن يقول في شيء حل ولا حرم الا من جهة العلم • وجهة العلم الخبر في الكتاب أو السنة أو الاجماع أو القياس » •

وفريضة التفكير في القرآن الـكريم تشمل العقل الانســـاني بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها • فهو يخاطب

---

(١) نفس المرجع ، ص ٢٠٠ •

العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد ، ولا يذكر العقل عرضا مقتضبا بل يذكره مقصودا مفصلا على نحو لا نظير له فى كتاب من كتب الأديان .

فمن خطابه الى العقل عامة — ومنه ما ينطوى على العقل الوازع — قوله تعالى فى سورة البقرة : الآية ١٦٤ :

(ان فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) .

ومنه فى سورة المؤمنون : الآية ٨٠ :

(وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون) .

ومنه فى سورة الروم : الآيات من ٢٥ الى ٢٨ :

(ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الأرض ، اذا أنتم تخرجون . وله من فى السموات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) .

ومنه فى سورة العنكبوت : الآية ٤٣ :

(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) .

ومنه ما يخاطب العقل وبالذات العقل الوازع كقوله تعالى فى سورة الملك : الآية ١٠ :

(وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) •

وفى سورة الأنعام : الآية ١٥١ :

(ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) •

ومنه بعد بيان حق المطلقات فى سورة البقرة : الآية ٢٤٢ :

(كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » •

ومنه فى سورة يوسف : الآية ١٠٩ :

(وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القــرى أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم والدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون) •

ومنه فى سورة الحشر الآية ١٤ ، بيانا لأسباب الشقاق والتدابر بين الأمم :

(تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى بأنهم قوم لا يعقلون) •

وهذا عدا الآيات الكثيرة التى تبتدىء بالزجر وتنتهى الى التذكير بالعقل ، لأنه خير مرجع للهداية فى ضمير الانسان ، كقوله تعالى فى سورة البقرة : الآية ٤٤ •

(أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفســكم وأنتم تتــلون الكتاب أفلا تعقلون) •

ان المزية الواضحة من مزايا القرآن الكثيرة ــ كما يقول العقاد ــ هى التنويه بالعقل والتعويل عليه فى أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف •• ففى كتب الأديان الكبرى اشارات صريحة أو مضمونة الى العقل أو الى

التمييز ، ولكنها تأتى عرضا غير مقصودة وقد يلمح فيها القارىء بعض الأحابيين شيئا من الزراية بالعقل أو التحذير منه ، ، لأنه مزلة العقائد وباب من أبواب الدعوى والانكار •• ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل الا فى مقام التعظيم والتنبيه الى وجوب العمل به والرجوع اليه ولا تأتى الاشارة اليه عارضة ولا مقتضبة فى سياق الآية ، بل هى تأتى فى كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة ، وتتكرر فى كل معرض من معارض الأمر والنهى التى يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المنكر على اهمال عقله وقبول الحجر عليه • ولا يأتى تكرار الاشارة الى العقل بمعنى واحد من معانيه التى يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة ، بل هى تشمل وظائف الانسان العقلية على اختـلاف أعمالها وخصائصها وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص فى مواطن الخطاب ومناسباته فلا ينحصر خطاب العقل فى العقل الوازع ولا فى العقل المدرك ولا فى العقل الذى يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح ، بل يعم الخطاب فى الآيات القرآنية كل ما يتسـع له الذهن الانسانى من خاصة أو وظيفة » (١) •

ويمثل جارودى عبقرية الفكر الاسلامى خير تمثيل ، متمثلا خطاب القرآن الكريم الى ذوى الألباب ــ أصحاب العقل المدرك الفاهم ، معدن الادراك والفهم فى دهن الانسان كما يدل عليه اسمه باللغة العربية ••

(والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولوا لألباب) •

« سورة آل عمران ٧ »

(قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون) •

« سورة المائدة : ١٠٠ »

---

(١) العقاد : التفكير فريضة اسلامية ، ص ٦ •

(الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) •

« سورة الزمر : ١٨ »

(قد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) •

« سورة يوسف : ١١١ »

(يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الألباب) •

« سورة البقرة ٢٦٩ »

(وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب) •

« سورة البقرة ١٩٧ »

(ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون) •

« سورة البقرة ١٧٩ »

ومن هذه الآيات نتبين كما يقول العقاد « أن اللب الذى يخاطبه القرآن الكريم وظيفته عقلية تحيط بالعقل الوازع والعقل المدرك والعقل الذى يتلقى الحكمة ويتعظ بالذكر والذكرى ، وخطابه خطاب لأناس من العقلاء لهم نصيب من الفهم والوعى أوفر من نصيب العقل الذى يكف صاحبه عن السوء ولا يرتقى الى منزلة الرسوخ فى العلم والتمييز بين الطيب والخبيث والتمييز بين الحسن والأحسن فى القول ••

أما العقل الذى يفكر ويستخلص من تفكيره زبدة الرأى والروية . فالقرآن الكريم يعبر عنه بكلمات متعددة تشترك فى المعنى أحيانا وينفرد بعضها بمعناه على حسب السياق فى أحيان أخرى • فهو الفكر والنظر والبصر والتدبر والاعتبار والذكر والعلم وسائر هذه الملكات الذهنية التى

تتفق أحيانا فى المدلول ولكنها لا تستفاد من كلمة واحدة تغنى عن سائر الكلمات الأخرى » (١) .

(ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) .

« سورة البقرة ٢١٩ »

(الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) .

« سورة آل عمران ١٩١ »

(قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون) .

« سورة الأنعام ٥٠ »

(ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) .

« سور النحل ١١ »

(أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق) .

« سورة الروم ٨ »

(أنظر كيف نصرف الآيام لعلهم يفقهون) .

« سورة الأنعام ٦٥ »

(أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء) .

« سورة الأعراف ١٨٥ »

---

(١) العقاد : المرجع السابق ، ص ١١ .

(قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) .

« سورة يونس ١٠١ »

(أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) .

« سورة ق ٦ »

(أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت) .

« سورة الغاشية ١٧ »

(من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) .

« سورة القصص ٧٢ »

(أو لم يروا أنا نسوق الماء الى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) .

« سورة السجدة ٩٧ »

(والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) .

« سورة آل عمران ١٣ »

(أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين) .

« سورة المؤمنون ٦٨ »

(كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته) .

« سورة ص ٢٩ »

(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) .

« سورة محمد ٢٤ »

(فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار) •

« سورة الحشر ٢ »

(ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون) •

« سورة البقرة ٢٢١ »

(وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) •

« سورة الأنعام ١٢٦ »

(أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى انما يتذكر أولوا الألباب) •

« سورة الرعد ١٩ »

(وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون) •

« سورة النحل ١٣ »

(أو يذكر فتنفعه الذكرى) •

« سورة عبس ٤ »

(فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) •

« سورة النحل ٤٣ »

(ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) •

« سورة القصص ٤٣ »

(ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) •

« سورة البقرة ١٥١ »

(قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال أن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم) •

« سورة البقرة ٢٤٧ »

(وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) •

« سورة الأنعام ٩٧ »

(قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) •

« سورة الزمر ٩ »

(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير) •

« سورة المجادلة ١١ »

(هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون) ••

« سورة يونس ٥ »

(قال له موسى هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا) •

« سورة الكهف ٦٦ »

(خلق الانسان علمه البيان) •

« سورة الرحمن ٢ »

(الذى علم بالقلم • علم الانسان ما لم يعلم) •

« سورة العلق ٥ »

(وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولوا الألباب) •

« سورة آل عمران ٧ »

بهذه الآيات وما جرى مجراها تقررت ولا جرم كما يقول العقاد : « فريضة التفكير فى الاسلام » وتبين منها أن العقل الذى يخاطبه الاسلام هو العقل الذى يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور ويوازن بين الأضداد ويتبصر ويتدبر ويحسن الاذكار والرواية ، وانه هو العقل الذى يقابله الجمود والعنت والضلال وليس بالعقل الذى قصاراه من الادراك انه يقابل الجنون • فان الجنون يسقط التكليف فى جميع الأديان والشرائع وفى كل عرف وسنة ، ولكن الجمود والعنت والضـــلال غير مسقطة للتكليف فى الاسلام ، وليس لأحد أن يعتذر بها كما يعتذر للمجنون بجنونه ، فانها لا تدفع الملامة ولا تمنع المؤاخذة بالتقصير ••

ويندب الاسلام من يدين به الى مرتبة فى التفكير أعلى من هذه المرتبة التى تدفع عنه الملامة أو تمنع عنه المؤاخذة • فيستحب له أن يبلغه بحكمته ورشده ، ويبدو فضل الحكمة والرشد على مجرد التعقل والفهم من آيات متعددة فى الكتاب الكريم يدل عليها قوله تعالى :

(ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) • « البقرة ٢٦٩ »

ويدل عليها أن الأنبياء يطلبون الرشد ويبتغون علما به من عباد الله الصالحين ، كما جاء فى قصة موسى وأستاذه عليهما السلام ••

والذى ينبغى أن نثوب اليه مرة بعد مرة أن التنويه بالعقل على اختلاف خصائصه لم يأت فى القرآن عرضا ولا تردد فيه كثيرا من قبيل التكرار المعاد • بل كان هذا التنويه بالعقل نتيجة منتظرة يستلزمها لباب الدين وجوهره ويترقبها من هذا الدين كل من عرف كنهه وعرف كنه الانسان فى تقديره ••

فالدين الاسلامى دين لا يعرف الكهانة ولا يتوسط فيه الســدنة

والأحبار بين المخلوق والخالق ، ولا يفرض على الانسان قربانا يسعى به الى المحراب بشفاعة من ولى متسلط أو صاحب قداسة مطاعة ، فلا ترجمان فيه بين الله وعباده يملك التحريم والتحليل ويقضى بالحرمان أو بالنجاة . فليس فى هذا الدين اذن من أمر يتجه الى الانسان من طريق الكهان ، ولن يتجه الخطاب اذن الا الى عقل الانسان حرا طليقا من سلطان الهياكل والمحاريب أو سلطان كهانها المحكمين فيها بأمر الاله المعبود فيما يدين به أصحاب العبادات الأخرى .. » (١) .

(فأينما تولوا فثم وجه الله) :

وبهذه الفريضة الاسلامية ــ فريضة التفكير ــ اهتدى جارودى الى الاسلام ، الذى يقول عنه انه « هذا الدين الذى عرف بالتفرد والتوحيد » ذلك أن نظرية المعرفة الاسلامية ــ كما يقول جارودى : « لا تفصل بين التأمل والعمل ولا تفصل بين ذات الفرد من الداخل أو الخارج » .

ويقترب جارودى فى منهجه الاسلامى فى التفكير من منهج محمد اقبال ، حيث يؤكد جارودى على خاصية التوازن « بين الجهاد الأكبر ــ جهاد النفس الداخلى الذى يناهض كل الغرائز والشرور والرغبات التى تنحرف بالانسان عن طريقه المستقيم والجهاد الأصغر ، من حيث العمل الدائب من أجل وحدة الأمة الاسلامية وصلابتها » ..

ويذهب جارودى الى أن الأزمة الحقيقة التى تواجه التاريخ تكمن فى أن الغرب صنع السدود ، دون فهـم ودراسـة أسس وتعـاليم الدين الاسلامى »ذلك أن الغرب ــ كما يقول جارودى قد توقف عند المسيحيه ورفض أن يسير مع منطق التاريخ حتى من الناحية العملية والعلمية ، فهاجم الغربيون الاسلام ، وحاول علماء الغرب أن يتستروا بستار الكلمات البراقة والخداعة مثل : حرية البحث .. قداسة العلم ، مكانة المناهج العلمية.. وذلك على الرغم من أن القرآن الكريم قد أكد فى أكثر من موضع أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل لكل أمة رسولا .. قال تعالى :

---

(١) العقاد : المرجع السابق ، ص ١٦ .

(وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فأحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) •

« سورة المائدة : ٤٨ »

ويوضح جارودى منهج الهداية الى الله فى العالم الأوربى بخاصة حين يقول :

« يجب أن ندرس كل الأديان أولا ؛ ثم من خلال التجارب والشهود نتعرف على وجهات النظر والأسس المناسبة لكل عصر » ثم يخلص من هذا المنهج الى أن « الدين الاسلامى ، هو دين الايمان ، دين التوحيد ، دين الأمة الذى احتوى على أنجح الحلول لعصرنا هذا » •

وحينما يذهب جارودى الى ذلك ، فانما يذهب اليه بعد استقراء علمى للحضارات ، انتهى منه الى أن « أهم ما تتصف به حضارتنا اليوم ، هو اقتباسها للأسلوب الغربى العقيم ، ذى الثقافة المنبتة ، التى تدفع بالفرد الى الانفصال والانفصام عن المجتمع •• لقد ضاعت من الغرب عقيـدة التوحيد • والفرد الغربى الآن يعيش من غير روابط تصله بالله ، ومن غير وشائج تربطه بالمجتمع أو الطبيعة التى يعيش فيها ، لقد اعتقد الانسان الغربى بثقافته الناقصة أنه يمتلك الطبيعة ويسيطر على زمامها • وأن هذه الطبيعة هى المخزن الخاص به الذى يستهلك منه ما يريد لصالح فرديته ، وسلبيته التى يعيش فى سياجها ، ومن ثم أصبحت الطبيعة اليوم مجرد صندوق قمامة للفرد •• بل ان المسيحية الأولى بمبادئها وأخلاقها بدأت مع مستهل القـرن الرابع الميـلادى تقتبس نظـام الازدواج والثنائية اليونانية وتتجه نحو النظم الرأسمالية الاستعمارية ، ولم تساعد الفرد فى ذلك الحين وحتى يومنا هذا على فهم الطبيعة والتناغم معها • لم تساعد الفرد على فهم مشكلاته وايجاد الحلول اللازمة لها ، ولمواجهة

الطبيعة التى يعيش فيها .. لقد ضاع الحب كما ضاعت « المحبة » المسيحية التى نادى بها المسيح عليه السلام عند ظهوره ، وحلت محلها أنظمة بالية تحكمها الفردية الأنانية ، وغرق الناس فى بحر من أوهام البحوث العلمية التى تحطم الطبيعة التى خلقها الله تعالى للانسان لكى يحافظ عليها وليس ليهدمها ويجعلها صندوقا للقمامة .. » .

بهذا المنهج النقدى فى الاهتداء الى الله ، يواصل جارودى « نقد » الحضارة المعاصرة وما تضمنته من « بدائل » مبتورة تحاول بها تعويض ما تفتقده من روح الايمان الحقيقى .

يقول جارودى فى كتابه القيم حول تحليل الاسلام ، أنه ليس هناك أمة تحمل كلمة الله بصدق الا الأمة الاسلامية ، وليس هناك كتاب يمثل كلمة الله الا القرآن الكريم ، لأن الكتب التى سبقته ضاعت وحرفت ولم يبق سوى القرآن الذى يمثل كلمة الله .. فالقرآن دين ودنيا .. لقد وجد الحلول لمشاكل الانسان ، حلولا اقتصادية قانونية وتشريعية .. أيضا وضع الأسس الأولى للسياسة العالمية .

فى المجال الاقتصادى : قرر الدين الاسلامى العمل .. البحث .. التجارة والزراعة .. وأتاح لكل فرد حرية الكسب والعمل .. ولكن بجانب ذلك يجب على الفرد ألا ينسى أنه لا يملك شيئا امتلاكا مطلقا ، فالملك لله وحده .. ومن هنا عَرَفَ ركن هام من أركان الاسلام الخمسة وهو « الزكاة » الذى يفرض على الفرد أن يسدد نسبة من دخله سواء للدولة أو لمن يستحق هذا القدر المحدد من المال .. نسبة حددها الاسلام ليست فقط على الربح وانما على رأس المال أيضا . ويؤكد الفيلسوف الفرنسى المسلم أن الزكاة هى الأصل ونواة فكرة نظام « التأمين الاجتماعى » الذى لم يدخل أوروبا بصفة عامة الا مع منتصف هذا القرن .. أيضا لم يعرف الدين الاسلامى فكرة الاحتكار أو النظام الاحتكارى وسوء استخدام حق الامتلاك الذى عُرِف بصورة متطرفة فى الحضارتين الرومانية والفارسية .. فالاسلام بالرغم من أنه اعترف بأحقية الملكية الفردية الا أنه

اعتبرها فى نفس الوقت « عملا اجتماعيا » منظما وليس أنانية وحبا للذات وتخريبا فى اقتصاد الأمة .

الاسلام عرّف أيضا من خلال فتوحاته الشهيرة ومعاركه بأنه ليس له أى أغراض استعمارية توسعية واستغلالية .. فقد كان الغـرض من الفتوحات الاسلامية ارساء وتعميق العقيدة الاسلامية ونشر رسالة الله وليس استغلال هذه الأراضى والسيطرة أو الاستيلاء عليها .

وكما أن الملك لله وحده — فى الدين الاسلامى — فالله هو المشرع الأول وصاحب القانون العام الخالد .. والاسلام كدين ودنيا وضع الأسس الأولى للتشريعات المناسبة لكل أمة .. فالفرد فى الاسلام له حقوق وعليه واجبات وللفرد فى الاسلام الحق فى الحرية والمساواة .. هذه المبادىء التى تحاول الآن أوربا أن تطبقها فى قوانينها الدنيوية . والدليل على ذلك أن المرأة فى الاسلام ، حصلت على المساواة الاجتماعية .. الميراث .. الملكية الشخصية . أيضا لها — مثل الرجل تماما — الحق فى طلب الطلاق — هذه الحقوق التى لم تعرفها حتى الآن الحضارة الأوربية والغربية بصفة عامة ، سواء عن طريق القوانين الوضعية أو من خلال الديانات السابقة .. فالمرأة المسلمة امرأة مستقلة ماديا عن الرجل ولا فرق بينهما الا بالتقوى ..

وكما أتاح الدين الاسلامى تعدد الزوجات أباح الطلاق ، سواء من جانب المرأة أو من جانب الرجل . لأنه لا حياة بين زوجين لا يربطهما التوافق والتفاهم والود والاحترام .. وان كان « أبغض الحلال عند الله الطلاق » هذا الحق الذى منحه الدين الاسلامى للمرأة المسلمة ما زالت الأوربية تعانى من عدم تطبيقه فى أى قانون مدنى أو شرعى .. لذلك تتجه اتجاهات أخرى لا يرضى بها أى دين سماوى ، ويدلل جارودى على هذا الانحلال والانحراف السائد فى الغرب بأنه ينعكس فى الأدب — الغربى منذ العصور الوسطى الذى يدور حول فكرة الارتباط والعواطف غير الشرعية التى تربط بين أبطال هذه القصص الأدبية العالمية والتى تنتشر بصورة رهيبة فى المجتمعات الغربية .

(جارودى)

وفى كتابه الشهير « وعود الاسلام » يقرر جارودى فى المقدمة أن « الغرب ليس سوى حدث طارىء .. ثقافته شاذة .. ثقافة ناقصة .. مبتورة .. لا جوهر ولا أسس — فمنذ قرون طويلة يدعى الغرب أن تاريخه وثقافته مستمدة أو موروثة عن الحضارتين اليونانيـــة والرومانية وعن حضارتى اليهودية والمسيحية » .

ويلخص جارودى فى موقفه النقدى من الارث الأوربى ، مراحل الصراع الفكرى التى مضت على التفكير الأوربى منذ القرن الرابع عشر الى الآن ، وهى المراحل التى شهدت اتجاهات عقلية مختلفة تدور حول « تبرير » مصادر المعرفة التى عرفتها البشرية فى تاريخها حتى الوقت الحاضر ، وهى الدين والعقل ، والحس « أو الواقع ، وفى كل مرحلة من هذه المراحل ينشأ سؤال عن « قيمة أى واحد من هذه الثلاثة — كمصدر للمعرفة المؤكدة أو اليقينية ، ثم يكون الجواب على هذا السؤال ايجابا أو سلبا . ومن السؤال وما يدور .. حوله من جدل وأخذ ورد تكونت المذاهب الفلسفية التى تعبر عن قيمة المصدر الذى وضـــع للاختبـــار والتقرير . ويذهب جارودى فى نقد الارث الأوربى « الى أن « أسطورة المعجزة اليونانية ، قد ظهرت وعـــرفت على الرغم من انشـــقاقها عن الحضارات الكبرى .. لقد انفصلت تماما وجذريا عن الحضارات الشرقية التى عرفت فى آسيا الصغرى .. بلاد فارس .. الحضارة الهندية .. كما رفضت هذه الأسطورة اليونانية الانتماء الى الحضـــارة المصرية القديمة التى عرفت بتقدمها العلمى الكبير ورؤياها العميقة التى سحرت ألباب فيثاغورس وأفلاطون وغيرهم من أساطين الفكر اليونانى » ثم يضيف جارودى قائلا :

« لقد ولدت الثقافة مرة أخرى فى الاسكندرية .. فى نفس الوقت الذى اختفت فى روما العاصمة الرومانية .. ذلك أن معظم تيارات الفكر جاءت من المشرق والتقت فى الاسكندرية وولدت علوم الفلك والرياضيات . فالثقافة اليونانية ، ثقافة ناقصة ، منبتة عن حضارات الشرق ، ولذلك تأخرت الثقافية اليونانية وأصبحت شاذة وفردية نتيجة لجهلها بالثقافات

الشرقية •• هذا الرفض الجاهل توارثته الأجيال من بعد ذلك ولم تبحث عن الجوهر والمضمون السليم » (١) •

ويضيف جارودى الى ذلك الثقافة اليهودية ، فيقول بتعبيره هو أيضا :

« نفس الاتجاه والجهل بالحضارات العريقة انتهجته الثقافة اليهودية •• التى أصبحت بدورها ثقافة ناقصة منبتة كذلك •• لقد تجاهلت هى الأخرى الحضارة المصرية القديمة الخصبة ولم تحمل فى أعطافها ترياق الثقافة أو العلم الموروث من عصر المصريين القدماء •• حتى فكرة « التوحيد » التى نادى بها « اخناتون » فى عصره لم يلتفت اليها فى الثقافة اليهودية » •

ويذهب جارودى الى أن « المسيحية التى لم تولد هى الأخرى فى أوربا — القارة الوحيدة التى لم ينبع منها أى دين من الأديان السماوية الكبرى — تناست أن بذور الحضارات وأصولها الثابتة نبعت من الشرق •• لقد نزلت الأديان السماوية الثلاثة الكبرى فى آسيا وأفريقيا •• المنابع الشرقية •• وعلى الرغم من ذلك تجاهلت المسيحية الأوربية هذه المنابع وأصبحت ثقافتها وحضارتها ناقصة منبتة الجذور » •

ويؤكد جارودى أن « المسيحية الأوربية أرادت أن يكون المذهب الكاثوليكى هو المذهب العالمى ، لذلك ابتعدت قدر الامكان عن كل حضارة شرقية تتضمن فى أعطافها الأصول الثقافية ، فارتبطت المسيحية الأوربية فقط بالثقافة اليونانية الرومانية ، على الرغم من ثراء الثقافة الافريقية على سبيل المثال — ثراء خصبا كان من الممكن أن يعمل على تعميق الثقافة المسيحية الأوربية وتقويتها ، ولكن المسيحية لأوربية رفضت هذه الثقافة الشرقية على الرغم من أن الكثيرين من الرهبان المسيحيين — منذ القرن الحادى عشر الميلادى — تعرفوا فى سوريا على الفلسفة الاسلامية والفكر الاسلامى •

---

(١) جارودى : وعود الاسلام •

وبهذه الرؤيا النقدية ، يكشف لنا جارودى عن حقيقة الفكر الأوربى المنبت ، حيث أراد هذا الفكر من المسيحية : « الكثلكة » التى تعبر بدورها عن « البابوية » •• والبابورية نظام كنسى ركز السلطة العليا باسم الله فى يد البابا ، وقصر حق تفسير « الكتاب المقدس » على البابا وأعضاء مجلسه من الطبقة الروحية الكبرى حتى يظل الفكر بعيدا عن أى تيارات شرقية ، وحتى يسوى الاعتبار بين نص الكتاب المقدس ومفاهيم الكنيسة الكاثوليكية ، فجعل عقيدة « التثليث » عقيدة أصيلة فى المسيحية ، كما جعل « الاعتراف بالخطأ » و « صكوك الغفران » من رسوم العبادة •• وغير ذلك مما يتصل بالكاثوليكية كمذهب وكنظام لاهوتى •

ويذهب جارودى الى أن هذه الثقافة المسيحية الأوروبية قد « تجاهلت كل ما يتعلق بالثقافات الأخرى النابعة من غيرها من القارات وبمنتهى ضيق الأفق تحولت السياسة العامة للكنيسة الى حروب قتالية صليبية دامية ، حاصرت منطقة البحر الأبيض المتوسط بمعارك طاحنة لمدة قرنين من الزمان فى فلسطين • ومعارك قاتلة فى الأندلس استمرت سبعة قرون من الزمان ، وهى البلاد التى استقبلت الفتوحات الاسلامية فى أسبانيا واعتبرتها فتوحات التحرير ، وأصبحت بعدها المصدر الثقافى المشرق لأوربا كلها » (١) •

ولقد لعب اليهود دور كبيرا فى الحروب الصليبية ، كما لعبت الكنيسة الانجليزية والغرب دورا كبيرا فى اقامة اسرائيل ، ويؤكد جارودى — أن اليهود كانوا من وراء الصليبيين وكانوا من الأسباب الخفية التى دفعت بالصليبيين لغزو البلاد المقدسة وقد اتخذ اليهود المال وسيلة لهم ، فأخفوا مشاعرهم الدينية والوطنية خلف المال ، اذ كانوا يمثلون أغنى مراكز التجارة على الساحل الشمالى للبحر المتوسط فساعدوا الصليبيين ليقوموا بهذه المؤامرات باسم الصليب ، ولكن الشعار اليهودى كان فى الحقيقة أقوى من الصليب وأقوى من المال • وأما الدور الذى لعبته الكنيسة الانجليزية فى خدمة اليهود فيوضحه وايزمان فى مذكراته بقوله :

---

(١) جارودى : المرجع السابق •

« وللقارىء أن يسأل ما هى أسباب حماســة الانجليز لمساعدة اليهود وشدة عطفهم على أمانى اليهود فى فلسطين ؟ والجــواب عن ذلك أن الانجليز لا سيما من كان منهم من المدرسة القديمة — هم أشد الناس تأثرا بالتوراة وهذا هو الذى دفع الانجليز ليساعدونا فى تحقيق آمالنا : وقد قدمت الكنيسة الانجليزية فى هذه الناحية أكبر المساعدات » •

أما الدور الذى لعبه الغرب فى الحالتين فهو دور واضح تماما ، ذلك أن ملوك الغرب أنفسهم اشتركوا فى الصراع والعدوان ضد المسلمين : وبعضهم قاد الحروب الصليبية على الرغم من الكنيسة ، مما نقل الحرب الى عدوان مسلح لا صلة للدين به بل كان موقف الكنيسة موقفا مضادا للملوك فى بعض الأحيان ، وكما ساعد الغرب الصليبيين فانه ســاعد اليهود مساعدة واضحة ليقيم لهم دولة بفلسطين (١) •

ان الحروب الصليبية — كما يقول المؤرخون — تمثل فصلا متوسطا من فصول تلك القصة الطويلة ، قصة الخلاف بين الشرق والغرب ، مبتدأة بحروب طروادة وفارس فى الأزمنة الغــابرة ، ومنتهيــة بالتوســع الاستعمارى الأوربى فى العصر الحديث : فهذه الحروب حلقة من هذه السلسة ، وقد شنتها أوربا فى هذه الجولة ليس على ســوريا وآسـيا الصغرى فحسب ، بل على أسبانيا وصقلية أيضا •

ويذهب المؤرخون الى أن العداء الأوربى للاسلام من بين دوافع الحروب الصليبية ، ذلك أن المسيحية قد ترعرعت فى أوروبا وانتشرت من كنائسها وجامعاتها مع أن الشرق كان المهد الحقيقى لهذا الدين ، وكانت هناك أديان أخرى سبقت المسيحية أو عاصرتها أو جاءت بعدها ، وذلك مثل اليهودية والاسلام ، ولكن الاسلام كان الدين الوحيد الذى زحف بقوة جارفة حطمت الاستعمار الأوربى فى سوريا ومصر وشمالى أفريقيا : ولم يكتف الاسلام بهذا بل اقتحم على أوربا أبوابها من الغرب عن طريق الأندلس — التى اعتبرها جارودى — كما تقدم « المصدر الثقافى المشرق

---

(١) د. احمد شلبي : الحروب الصلبية : ص • ...

لأوربا جميعها » ومن الشرق عن طريق القسطنطينية التى دق المسلمون أبوابها منذ العهد الأموى ، وكان الاسلام فى الحالتين متجها نحو قلب أوربا ومتخذا حول البحر المتوسط حركة تشبه ما يسمى فى الحرب الحديثة « بحركة الكماشة » (١) .

يقول جارودى :

« لقد رفض الغرب — منذ ١٣ قرنا — الارث الثالث : وهو « الميراث العربى الاسلامى » الذى لم يكن سيرتفع فقط بثقافة الغرب الى ما هو أسمى من مستويات الثقافات الأخرى ، بل كان سيساعد هذه الثقافة الناقصة والمبتورة فى التعرف على الأبعاد الالهية والانسانية التى فقدت من الغرب أثناء مراحل سيطرته الارادية على الطبيعة والانسان .

ولكن « لقد حان الوقت .. وناقوس الخطر يدق أجراسه .. لقد حان الوقت وأصبح الحوار بين الحضارات ضرورة مؤكدة وسريعة .

« والجدال الرئيسى والأساسى لن يكون الاختيار بين الرأسـمالية أو الاشتراكية .. لأن الرأسمالية هى مولد الاستعمار والحروب والأزمات المفتعلة ، والاشتراكية صورة أخرى من توسع الغرب ، توسع من نوع جديد أو استعمار استغلالى مثل الاشتراكية السوفيتية التى تحاول أن تفرض .. سيطرتها على دول العالم الثالث بصفة خاصة وتستغل ثرواته .. فالنظامان الرأسمالية والاشتراكية ليسا سوى نوع من أنواع السباق فى التسلح والسيطرة ونشر الخوف والفناء ..

انما الجدال الرئيسى أو البحث اللازم — فى عصرنا هذا — هو الذى يضع الحلول الفعالة للأسطورة الانتحارية التى يفرضها الغرب بفكرتى « التقدم » و « النمو » ، هذه الأيديولوجيات التى تتصف بالانشقاق بين العلوم والفنون من ناحية وبين الحكم من ناحية أخرى .. ان الفكر الغربى فصل بين مؤسسات الوسيلة والقوى من ناحية وبين التفكير العميق فى

---

(١) نفسه ، ص ٨ .

النهاية ومعنى الحياة التى نحياها •• هذا الأسلوب الانتحارى يجب أن نتفوق عليه ونتخلص منه ، ليحل مكانه أسلوب آخر يجمع بين فكرة « التفوق » وفكرة « الأمة » أى أن يعرف كل فرد منا أنه مسئول مسئولية كاملة عن المستقبل وكل فرد آخر غيره •• وأن يسخر عمله وكل الوسائل العلمية والفنية والاقتصادية والسياسية والثقافية لكل امرأة ورجل وطفل وأن يعطى كل الثروات الانسانية المبدعة التى بداخله بسخاء ودون تردد :

« بعيدا عن الفرص الضائعة خلال التاريخ الماضى •• بعيدا عن أبعاد الرجل الغربى الضائع ، يأتى واجبنا الذى يفرض اعادة الربط بين حضارات الشرق بالغرب واعادة الحوار بين هاتين الحضارتين لوضع نهاية حتمية لهذا الأسلوب الفردى والانتحارى الذى فرضه الغرب لعدة قرون مما جعل هناك عدة مآسى • تكبر وتنمو مع تقدم الوقت ، مآساة مادية تعانى منها دول العالم الثالث ومآساة روحانية تعانى منها الدول الغربية لهذا يجب أن يبدأ حوار الحضارات حتى لا تتسع الهوة أكثر من ذلك •• يجب أن يعلم الغرب أن الوقت قد حان للاعتراف بحضارات أخرى غير الحضارة الغربية الناقصة والمبتورة • ولا جدال أن الحضارة الاسلامية اليوم هى الطريق الوحيد المفتوح بعيدا عن هاوية الموت والفناء ••

« ولابد أن نعترف بالاسلام ونرد له الجميل •• انه ليس فقط جزءا من التاريخ •• ان الاسلام ليس هواية معينة •• أو حلما •• أو مفارقة من من المفارقات •• ان الاسلام دين وعمل وجهاد •• فيه يكمن مستقبل الانسانية •

لقد أنقذ الأسلام من قبل تفتت وتدمير بعض الامبراطوريات القديمة فى القرن السابع الميلادى وهو اليوم الدواء والعلاج الفعال للقلق الذى يسود العالم •• انه الاجابة السليمة والحقيقية على الأسئلة المطروحة من الحضارات الغربية والتى فى طريقها الى الفناء والموت » •

هذا هو المضمون الذى تدور حوله كتب جارودى الاسلامية : الاسلام دين المستقبل ، حوار الحضارات ، وعود الاسلام ، وهو المضمون الذى

يقدم فيه جارودى من الاسلام الحلول الناجعة لمشكلات الغرب المعاصر والدول التى تدور فى فلكه •• وقد لاحظنا من خلال دراساتنا لهذه الكتب أن هناك أفكارا رئيسية تتكرر فيها • ذلك لأنه كمفكر يدور حول أفكار محورية فى الفكر الاسلامى •• يعالجها فى هذا الكتاب أو ذاك ليؤكد ما يريد أن يصل اليه من نتائج بالغة الأهمية سواء بالقياس للفكر الاسلامى أو لمشكلات الانسان فى العالم بعامة والانسان الغربى بخاصة ، ومن هذه الأفكار التى يؤكد عليها ما يتضح فيما يلى ••

□ « الاسلام هو بدون أدنى شك « دين » و « أمة » •• الاسلام عقيدة عميقة وأسلوب للحياة المثالية » •

□ « أن ظهور الاسلام وتوسعه من الجزيرة العربية بصفة عامة ومن مكة والمدينة بصفة خاصة • يطرح تساؤلا هاما عن اختيار هذا المكان •• من العبث أن تكون راجعة الى أن هذه المنطقة ملتقى الطرق التجارية عبر الشرق والغرب والشمال والجنوب ، لأن هذه الاجابة تقوى من الدين الاسلامى ولا تضعفه ، فاذا كان الاسلام هذا الدين أو الرسالة ضعيفا كما يدعى الرغب لما كان قد فرض نفسه وهو فى منطقة تلاقى العديد والكثير من الحضارات المارة والآتية من الشرق والغرب والشمال والجنوب •• لقد خرج الاسلام من مكة والمدينة من شبه الجزيرة العربية التى كانت — فى ذلك الوقت — لا تضم الا الصحراء وبعض الواحات ليطل بنوره وشعاعه الدينى والدنيوى على ثلاث قارات من الهند الى أسبانيا ومن آسيا الوسطى الى قلب أفريقيا ، هذا الشعاع لم ينطفىء خلال قرون وحتى يومنا هذا •• مما يدل على أنه ايمان عميق •• وعقيدة خالدة ولدت منها ثقافة خصبة مجددة للثقافات الأخرى •

هذا الانتشار والتوسع الاسلامى يختلف تماما عن التوسعات الأخرى التى سبقته أو جاءت من بعده •• التوسع الاسلامى يختلف تماما عن الهجرة من « آسيا » ويختلف عن هجرة الأوربيين الى أمريكا •• وأفريقيا ، هذه التوسعات التى فرضت نفسها بقوة السلاح والحروب الدامية ••

أن شبه الجزيرة العربية — وقت ظهور الاسلام — لم تكن محصنة بالأسلحة والفنون الحربية التى تفرض من خلالها مبدأ أو عقيدة ، مثل الامبراطوريات التى سبقت الاسلام أو جاءت من بعده •• لقد انتشر الاسلام لأنه رسالة قوية وعقيدة راسخة وايمان بأن الله وحده هو مالك الكون وخالقه ، هذه الرسالة الدينية التى جاءت على لسان « محمد » عليه الصلاة والسلام احتوت فى نفس الوقت على مضمون معنى « الأمة » الواحدة التى تعيش فى ظل راية الاسلام •

« اذا افترضنا أن هذه الرسالة أو الفكرة أو الدين — الكلمة أو اللفظ المناسب — لم تكن قوية فى أصولها ومضمونها ، لما كانت قد انتشرت فى قارات بعيدة عنها حتى بقوة السـلاح ، كم من دول قامت وشـيدت امبراطوريات بقوتها القتالية وحاولت أن تستمر وتبقى على مدى العمر ، ولكن هذه الدول أو المبادىء انهارت ولم يبق منها سوى أطلال أو مجرد ذكرى عبر قصص التاريخ •• أما الاسلام فهو يختلف تماما عن باقى العقائد أو المبادىء ، لقد ذكرته الكتب السماوية التى سبقته وأكدت هذه الأديان ظهور الاسلام وانتشاره • ان الاسلام نبع للحياة ودين راسخ ، مستمر ، خالد ودائم أبد الدهر •

□ ان الدين الاسلامى ، دين كل العصور وكل الأزمنة ، لأنه دين ودنيا •• والنبى محمد عليه الصلاة والسلام لم يأت بدين جديد انه استمرار للرسائل السماوية التى سبقته ، استمرار وتثبيت للعقـيدة الخالدة التى عرفها ابراهيم عليه السلام •• فالاسلام امتداد لدين ابراهيم الذى نادى بأن لا اله الا الله •

□ نزلت الرسالة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى مكة بداية القرن السابع الميلادى — وكان بمكة اذ ذاك نظامان أو صورتان من صور الشكل الاجتماعى : الأول حياة الصحراء حيث تعيش القبائل فى الواحات وحول منابع المياه — والثانى حياة المدينة حيث تتحـول هذه القبائل الى بدنات تسكن المبانى المشيدة من الأحجار •

« وكانت القبائل — قبل ظهور الاسلام — تقوم على روابط ووحدة الدم للعائلة ولا يربطها نظام حضرى يعتمد على وحدة الأرض أو التكامل المهنى .. وكانت فكرة التضامن ضرورة لمواجهة حياة الصحراء ولم تكن هذه القبائل تعرف فكرة « الأمة » الواحدة .. بل كانت تقوم على شخصية كل قبيلة وقوتها وسط هذه الصحراء القاحلة .. وأكبر دليل على ذلك مجموعة القصائد الشعرية التى عرفت فى العصر الجاهلى وكانت أحداثها تدور حول الأطلال .. الحبيبة الغائبة .. الحنين الى الوطن أيضا التحدث عن صفات وفضائل أفراد هذه القبائل ، سواء من ناحية الشجاعة ، الكرم .. حسن الأخلاق والتضامن ضد الأعداء وتقلب المناخ الصحراوى على سكانها ..

« من ناحية أخرى كانت هناك حياة أو صورة اجتماعية أخرى عرفت بحياة الحضر أو الحياة فى الواحات وهى تختلف تماما عن حياة قبائل الصحراء .. انها مدن تعيش على الزراعة ، التجارة والملكية الخاصة .. هذه الظروف خلقت نوعا آخر من أساليب الحياة أو الارتباط » مثل تقسيم العمل » والتكامل ، وخلقت أنواعا جديدة من العلاقات الجيدة والسيئة فى نفس الوقت مثل الرغبة فى الامتلاك — التنافس .. عدم المساواة بين الطبقات .. الرفاهية عند البعض وحب السيطرة عند طبقات أخرى ..

هذه النظم أو الصور الاجتماعية ، نظام الحياة فى الصحراء .. والحياة فى المدن .. تداخلت واختلطت عن طريق اختلاف الأنشطة التجارية واحتياج كل فئة للأخرى ..

« من ناحية أخرى فى جنوب شبه الجزيرة العربية » حيث الطبيعة الجبلية وتساقط المطر والتقاء الطرق ، والاتصال بالثقافات الهندية .. الأفريقية .. السورية .. وأجزاء من آسيا الصغرى ، مع ازدهار الزراعة والتجارة والصناعة ، هذه العوامل مجتمعة أدت الى انتعاش سكان هذه المناطق . هؤلاء السكان الذى أطلق عليهم أسم « العرب السعداء »

أصبحوا فئة ثالثة أو نوعية ثالثة من سكان منطقة شبه الجزيرة العربية •• هذه الفئات الثلاث : سكان الصحراء ـ البدو ـ سكان المدن ، والعرب فى الجنوب أصبحت جماعات متنافرة الطباع ، فى الظروف والقيم • وبالرغم من ذلك كانت هناك علاقات تجمعهم ، مثل استخدام الرجال البدو فى حراسة المدن والدفاع عن أمنها •

« هذا الاختلاف والتنافر جعل هناك نظما متعددة ومتنافرة أيضا فى أنواع العبادات والأديان التى تتبعها كل فئة أو نوعية من السكان مما أدى الى انتشار عبادة الأصنام والشرك بالله ، فكان لكل ممجوعة اله خاص بهم ، يتعبدون له وضاعت فكرة التوحيد •• هذا الضـياع والتفـكك الاجتماعى والعقائدى وتعدد الآلهة وعبادة الأصنام جعل هناك ضرورة لظهور دين جديد أو رسالة جديدة » تعيد الرشد ، انها مجرد تذكرة فقط بأن الله واحد ، تذكرة بدين ابراهيم عليه السلام •

« بجانب هذا الاتجاه الملحد •• العابد للأصنام فى منطقة شبه الجزيرة العربية ، كان الدين اليهودى من جانب آخر قد جفت طقوسه ، •• والدين المسيحى أصبح رمزا للتعصب الأعمى ، هذه البدع والأيديولوجيات المتطرفة جعلت من الضرورى ظهور رسول جديد ودين آخر يعود بالبشر الى الحقيقة ، الى ملك الملك ، الى الله •• لقد جاء « محمد » عليه الصلاة والسلام ، وجاء معه نوع جديد من الايمان والعقيدة ، ايمان بسيط وقوى فى نفس الوقت •• رسالة سماوية احتوت فى مضمونها على قيام روح لأمة جديدة •

« فى بداية الأمـر لم يؤسس محمـد دينا جـديدا ، بل طالب البشر أن يسيروا تحت كلمات الله والعودة الى الدين الحنيف •• بمعنى الابتعاد عن الشرك بالله وعبادة الأصـنام والاعتراف بأن الله واحـد لا اله الا هو ••

□ الله أكبر •• الله أكبر من كل الملوك •• انه القادر •• المهيمن •• واليه ترجع كل الأمور •• لا تعبدوا الا الله وحـده ، انه الله الأحد

الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحدا .. لا وساطة بين الفرد وربه ، (ادعونى أستجب لكم) .. لم يتجاهل محمد صلى الله عليه وسلم فى رسالته الأديان السماوية الأخرى .. انه دعا الى الايمان الحق بالله الواحد . وأكبر دليل على ذلك أن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع « أكد أن لا تفرقة بين البشر ، والكل واحد أمام الله بدون تفرقة بين غنى وفقير ، أو سلالة أو أجرى وهذا الحديث مؤكد أيضا مى القرآن الكريم حيث قال الله تعالى (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) (١) . ولم يأت القرآن قائلا أن أفضلكم المسلم أو المسيحى — لقد قال الله تعالى فى قرآنه الكريم ما معناه أن أفضل الناس عنده من اتقى ربه ولم يحدد سلالة أو دما أو قبيلة أو فئة خاصة من الأغنياء أو الفقراء .

« أنه اعتراف ضمنى وشكلى .. يؤكد أن الدين الاسلامى امتداد لدين ابراهيم من ناحية قوة الايمان .. والاعتراف بالاله الواحد .. إن — الدين الاسلامى بصفة عامة ، وفى الظاهر والمضمون » دين ودنيا ، رسالة طالبت بالتفوق والعظمة لله من جانب . ومن جانب آخر دين أمة واحدة متحدة تحت لواء الاسلام ودين أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

. . . .

□ لا اله الا الله .. انه ليس الاله الواحد فقط ، بل الحقيقة الواحدة ولا حقيقة غير وجود الله والدليل على ذلك قول الله تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد) . « سورة فصلت الآية ٥٣ » .

□ ان كلمة « الاسلام » لها معنى واحد وهى أن معتنق هذا الدين وهذه الرسالة السماوية تجعله دائما خاضعا للارادة الالهية فكلمة اسلام يعنى أن يسلم الفرد كل ما عنده لله وحده ، سواء فى عمله .. صحته .. حياته وأسلوبه فى الحياة ، فالاسلام هذا الدين عميق الايمان بالله ، يجعل صاحبه ومعتنقه رجلا أو امرأة دائما تحت رعاية الله وفى رحابه ، وهذا

---

(١) الحجرات ١٣ .

أشد وأعمق أنواع الايمان التى عرفتها الأديان السماوية الكبرى .. أن كل شىء يرجع لله وأقوى صور الايمان أن يكون صاحبه « مسلما » أى يسلم كل أموره لله وحده .

□ لم يجبر محمد عليه الصلاه والسلام البشر على اعتناق أو دخول الدين الاسلامى ، فمن شروط الدين الاسلامى وأسسه أن يكون بمحض اختيار الفرد ولا يدخل فيه تحت تهديد أو سيطرة وأن تكون الرسالة بالمجادلة الحسنة والدليل على ذلك قول الله تعالى : (وجادلهم بالتى هى أحسن) وفى حالة اعتناق الدين الاسلامى يصبح صاحبه مسئولا مسئولية كاملة عن قواعد هذا الدين القويم لأنه اختار قبل أن يعلن أو يشهر اسلامه .

□ واذا كان الاسلام استطاع أن ينتشر عبر القارات — بعد ذلك — من الشرق الى الغرب ومن الشمال حتى الجنوب ، فهذا أكبر دليل على قوته وبساطته فى نفس الوقت ، لقد أعطى معانى جديدة للحياة التى كانت مفككة ومنهارة قبل ظهور الاسلام .. انه نظام دينى ودنيوى ، جمع بين طرفى الحضارة المتكاملة ، عنى الايمان العميق النابع من النفس الصافية ، أيضا احتوى على الأسلوب الأمثل لبناء أمة اسلامية موحدة تحت راية أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ..

□ لقد اعترف القرآن الذى هو رسالة محمد وكلام الله المرسل الى البشر ، بالرسائل السماوية التى سبقته ، لقد اعترف برسالة موسى وعيسى والدليل على ذلك قول الله تعالى : (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والاهنا والاهكم واحد ونحن له مسلمون) . « سورة العنكبوت الآية ٤٦ »

قال الله تعالى :

(قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل

واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) •

« سورة البقرة الآية ١٣٦ »

□ الدين الاسلامى ، هو الدين الوحيد الذى ألغى فكرة « الوساطة » بمعنى أنه لا رهبان فى الدين الاسلامى • ولا توجد أى حواجز •• أو موانع أو وسيط بين العبد والله • الطريق لله مفتوح لكل من يريده •• أيضا لا يوجد ممثل لله على الأرض •• لأن كل شىء على الأرض يدل على وجود الله فى كل زمان ومكان ••

□ الدين الاسلامى ، دين الايمان القوى الذى يربط الفرد بأصله ، ونشأته •• انه الدين الذى احتوى معانى الحياة من خلال أركانه الأساسية الخمسة (أعمدة الاسلام الخمسة) وهى :

١ — شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله •• هذه الشهادة هى الركن الأول فى الاسلام والتى ترجع كل شىء فى الكون الى المطلق •• بمعنى أن كل شىء فى الكون يدل على وجود الله سبحانه وتعالى •• الطبيعة والانسان وكل مخلوق على الأرض يعكس وجود الله والدليل على ذلك قوله تعالى : (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا) • « سورة الاسراء ، الآية ٤٤) •

٢ — الصلاة •• وهى عبارة عن فعل ارادى يقوم به الفرد ليسبح الله ويقف بين يديه •• ان الصلاة تربط بين الخالق والمخلوق •• والصلاة فى الاسلام لها مدلول آخر غير التواجد بين يدى الرحمن •• فهى تقام فى أوقات معينة وساعات محددة ، يتجه فيها كل مسلم تجاه القبلة (الكعبة) ليقف مصليا الى الله •• هذا التجمع الكبير فى وقت شبه موحد سواء فى الشرق أو الغرب يدل على فكرة الاتحاد فى أمة واحدة والتجمع تحت راية الاسلام وأن لا اله الا الله وأن

محمدا رسول الله •• قبل الصلاة يقوم كل مسلم بعملية « الوضوء » وهى نوع من الطهارة والاغتسال التى تزيل من الفــرد شوائب الحياة بحيث يصبح انسانا طاهر البدن والقلب ليقف بعد ذلك أمام الله فى أجمل صورة •

٣ ــ الصــيام •• وهو الامتناع الارادى عن ايقاع الحياة •• مما يؤكد حرية الفرد تجاه نفسه وتجاه غرائزه ، أن الصيام الاسلامى هو الامتناع عن كل ملذات الحياة من طعام وشراب وأفعال غرائزية ، هذا الامتناع عن كل شىء لفترة محددة ، يذكر الفرد أيضا بالجوع الذى يعانى منه الفقراء مما يدفعه الى مساعدة هؤلاء الذين يعيشون فى مأساة الفقر والجوع المؤديين الى الموت •

٤ ــ الــزكاة •• وهى ليست صدقة أو منحة شخصية •• انها عدالة اجتماعية يقوم بها الفرد تجاه المجتمع الذى يعيش فيه ، انها واجب انسانى يؤدى الى فكرة التضامن الاجتماعى فى الوقت نفسه فهى تساعد الفرد فى التغلب على صفات الأنانية والبخل وحب الذات •• ولأن كل شىء فى الكون ملك لله وحده ، فالفرد يجب عليه أن يخصص جزءا من ماله للفقراء •• فالزكاة فى الاسلام تشعر الفرد دائما بأنه عضو فى أمة واحدة •

٥ ــ الحــج •• الى الكعبة المشرفة بيت الله الحرام فى مكة المكرمة • هذا الركن من أركان الاسلام الخمسة له معنى آخر غير فكرة الأمة الواحدة وتجمعها فى رحاب الله •• ان الحج رحلة داخل الفرد يدعم بها ايمانه ويطهر بها نفسه ويزكى بها روحه •

ان الفكرة الرئيسية للاسلام تدور حول أن الفرد المسلم يعيش فى عملية مد وجزر مع الله والدليل على ذلك الآية الكريمة (انا لله وانا اليه راجعون) • « سورة البقرة ، الآية رقم ١٥٦ » •

□ أن الاسلام بتعاليمه الدينية والدنيوية أنشأ أسلوبا جديدا لحياة

اجتماعية • وفكرة «الأمة» الواحدة التي أسسها محمد عليه الصلاة والسلام •• هذه الأمة لا تشبه الحياة القبلية ، أو حياة المدن ولا يربطها رباط الدم أو الأرض الواحدة وأيضا لا يجمع بينها نظام وضعي • وانما الوحدة في هذه الأمة ترجع الى الايمان بأن الله واحد وهو المالك والمشرع العظيم •• هذه « الأمة » الواحدة أرقى أنواع الصور الاجتماعية ••

□ لقد انطلقت من فكرة « الأمة » مجموعة من أساليب الحكم المثالية •• فالدين الاسلامي جعل الحكم لله وحده وأن كل شيء مرجعه لله • وأيضا أقام الدين الاسلامي نظام الشورى في الحكم وهذا النظام استبعد تماما فكرة الوساطة أو الشفاعة — والشورى في الحكم الاسلامي تختلف تماما عن النظم الغربية المتبعة الآن ، مثل الديمقراطية أو الاشتراكية ، أو الفردية •• لأن الشورى في الحكم معناها الحرية والحرية هي مطمح الانسانية وأملها المنشود في كل العصور •

وبهذه الفريضة الاسلامية فريضة التفكير يذهب جارودي الى أن الاسلام هو الدين الحق الذي أنزل للناس كافة في كل مكان وزمان وأن عقيدة التوحيد هي العقيدة المثلى التي لا يصل اليها الباطل ولا يستطيع النيل منها مهما حاول — وأن مستقبل العالم يقطن في الاسلام ويسكن اليه — ثم أكد أن الحلول الاسلامية هي وحدها القادرة على انقاذ المجتمع الانساني من المشكلات العويصة التي تأخذ بخناقه والأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تتقاذفه بضراوة — وأن المنهج الاسلامي هو المنهج القويم الذي يتحتم على الانسانية أن تنهجه وأن تسير على هديه لتحقق أملها في الحياة الكريمة الآمنة القائمة على العدل والسلام •

لقد اهتم جارودي بالقضايا الانسانية وكان في كل منها صاحب موقف •

وكان موقفه ينبثق دائما عن عقيدة — ومن أهم وأبرز مواقفه دفاعه عن انسانية الانسان ومهاجمته للعنصرية بكافة صورها — القديمة والحديثة — ومطالبته بالمساواة بين البشر وتحقيق العدل — ولقد سمع يوما أن

الاسلام لا يعرق بين عربى أو عجمى الا بالتقوى وأن المسلمين يتمايزون بالعمل الصالح . فاتجه الى دراسة الاسلام ..

ومنذ عام ١٩٤٧ وهو يدرس ويبحث ويحلل تعاليم الاسلام وفلسفته وأحكامه به أنه توفر على دراسة الاسلام تاريخا واجتماعا وأحكاما وفروضا وفنونا ثم أخذ يقارن بينه وبين غيره من الديانات والأيديولوجيات ثم اقتنع به اقتناعا كاملا جعله يصدر كتابه (وعود الاسلام) الذى طبع عام ١٩٨١ وفيه يتحدث جارودى عن حضارة الاسلام ويقارن بينها وبين الحضارات الأخرى ويبين كيف استفاد الغرب بهذه الحضارة فى اقامة حضارته — ثم أصدر كتابه الثانى عن الاسلام بعنوان « مستقبل العالم يقطن فى الاسلام » .

وهكذا يؤكد لنا جارودى فى رحلته الى الله . أن الاسلام وحده هو القادر على انقاذ البشرية فى حاضرها ومستقبلها مما يحـيق بها من أخطار ، وأن الاسلام هو وحده الذى يقدم للانسانية المنهج القويم فى الابداع المادى والروحى ، ثم يؤكد فى نهاية الأمر للانسانية جميعا أن رحلته فى الطريق الى الايمان ، هى خطوة فى الطريق الطويل للانسانية نحو الهداية ، وأن الناس جميعا عائدون الى الله . والى المنهج الاسلامى القويم فى النظر والفعل على السواء . يقول جارودى (١) :

« ان الأمر يتعلق بمستقبلنا ، مستقبل البشرية الذى يتعرض مصيره للخطر . الاسلام كقوة حية ، ليس كامنا فقط فى ماضيه انما فى كل ما يمكن أن يقدمه لصنع المستقبل » .

(١) جاريدى : الاسلام دين المستقبل ، ص ٢١ .

(جارودى)

خاتمــــة

•• والمحــور : هو الانســان

تبين لنا مما تقدم أن جارودى فى رحلته الفكرية التى بدأت بالشك وانتهت الى سكينة الايمان ، كان قد عرف فى أول حياته بميوله الماركسية وبعضويته فى المكتب السياسى للحزب الشيوعى الفرنسى ، وما لبث منذ عام ١٩٥٦ يجرى حوارا فكريا مع الماركسية الجامدة التى تحجرت فى قوالب بعينها منعتها من الاستجابة لروح العصر • ولهذا وجدناه فى ذلك العام نفسه يمتنع عن اعادة نشر رسالته للدكتوراه وهى « النظرية المادية فى المعرفة (١) » • ومن ثم وجدناه ينقد الماركسية المتقولبة ، على نحو ما يتضح فى كتابيه « ماركسية القرن العشرين » و « نظرات حول الانسان » ، ثم ينقضها نقضا تاما بعد ذلك ، الأمر الذى أدى الى فصله من عضوية الحزب الشيوعى •

وخلال هذه الرحلة الطويلة الخصبة من الشك الى سكينة اليقين ، وجدنا جارودى يوظف منهجه النقدى فى الدراسات المقارنة للحضارات المختلفة ، بحثا عن « الانسان » مكانته وماهيته ودوره فيها ، فيجرى « حوار الحضارات » ، ويبحر عبر المذاهب والتيارات الفلسفية المختلفة ، حيث يبحث عن « الانسان » فى الفلسفة الوجودية الملحدة ، عن « الانسان فى الفلسفة الكاثوليكية » ، » الانسان فى الفلسفة الوجودية المؤمنة أو فى الستراطية الجديدة المسيحية » ، الانســان فى « الفلسفة الشخصانية » ، الانسان فى « فينومينوجية الطبيعة عند الأب تيياردى ساردان » ، « الانســان فى الفلســفة النيوية » — الانســان فى « الماركسية » •

---

(١) د. يحيى هويدى : مقدمة : نظرات حول الانسان تاليف جارودى ؛ الطبعة المترجمة .

حاول جارودى فى رحلة الابحار هذه أن يستخلص من التحليل النقدى لهذه المذاهب والتيارات الفكرية معـرفة « الانسـان الكلى » تأسيسا على أن « الحياة » — كما يقول — « تضع المشكلات ، والفلسفة تقدم الاجابات لها » • وهذه المشكلات التى تركز حولها التحليل النقدى فى رحلة جارودى الفكرية كما يقول · « تتلخص فى نوعين من المشكلات :

— المشكلات التى تثيرها أزمات وثورات العصر •

— والمشكلات التى تضعها أمام الانسان قدراته التى زودته بهـا العلوم والتكنولوجيا ، وكلها مرتبطة بالانسان » • وهـذه المشـكلات بنوعيها — قدمت لنا — كما يقول « مصدرين حيين للفلسفة المعاصرة ••• وأصبحت العودة الى النبع أمرا ضروريا » •

هذا النبع — لم يجده جارودى — بعد رحلته الطويلة المضنية الا فى الاسلام ، الدين الذى يقف من مشكلات الحضارة موقفا ايجابيا ؛ فى الوقت الذى يحذر الانسان من انخداعه بمتع الحياة ؛ ومن أن تصبح له فتنة ، ويصبح مفتونا بها « يركز نظرته فى الحياة اليها وحدها ، ويقصر نشاطه وسعيه على تحصيلها ، تاركا الهدف الأساسى فى الحياة كلها ، والوجود كله ، وهو الايمان بالله سبحانه وتعالى • وهذه المتع — لذلك — ان كانت زينة الحياة الدنيا ، فانها من جانب آخر موضوع لاختبار المتعين بها فى تصرفهم ازاءها وفى الايمان بالله بعد ذلك (١) » يقول الله تعالى :

(انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) • (٢) فالاسلام يريد أن تبقى زينة الحياة لمن يباشرها ، ويتمتع بها ، ولكنه يمنع من أن تتحول الى مصدر للاهلاك والشقاء فتخرج عن طبيعتها • ولذلك يقر الاسلام الدعامة التى تقوم عليها الحضارة الحديثة ، وهى دعامة العلم والمعرفة ، ويؤكد فى النصح بشأنها • ويشدد النكير على من ينفر الانسان منها ، ويدفعه على الوقوف ضدها • يقول الله سبحانه وتعالى :

---

(١) د. محمد البهى : الاسلام فى حياة المسلم ، ص ٤٧٨ •
(٢) سورة سبأ الآية ١٠

(قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) . « الأعراف ٣٢ » . فالله جل شأنه هنا ، يؤكد أن مباهج الحياة ومنافع الحضارة للمؤمنين خالصة ؛ بمعنى أن ليس على المؤمنين من شائبة نقص اذا استخدموها ؛ وسعوا اليها . ثم يزيد على ذلك فيذكر أن من يحرمها ليس من جنس عقلاء البشر (١) .

والاسلام لم يتجنب مسائل الاجتماع « لأن اجتنابها ليس من طبيعة الدين ، ولكنه عنى بهذه المسائل كما ينبغى أن تدركها عقيدة الانسان فى الجماعة البشرية ، ووكل الى عقيدته أن توفق بينهـا وبين الصـلاح الاجتماعى كما يقتضيه زمانه وتستوحيه الجماعة كلها من ضروراتها ومن قواعد دينها ؛ ولا فارق فى النهاية بين المصلحة كما تهتدى اليها الجماعة والمصلحة كما يوجبها الدين (٢) » .

والمذاهب الاجتماعية — كما يقول العقـاد — شىء واقع معـروف المبادىء والغايات فى العصر الحاضر ، فعلاقة الاسلام بها كذلك شىء واقعى لا حاجة به الى الخوض فى النظريات والفروض الذهنية ، لأن مواضع الوئام أو النزاع بين جميع هذه المذاهب وبين نصوص الدين الاسلامى مسطورة معلومة لمن يريدها وقد كشفت عنها تجارب العمل كما كشفت عنها بحوث الباحثين .. هذه المذاهب الاجتماعية ، ومعها المذاهب الفكرية ؛ كثيرة تتفرع على أصولها الكبرى .

واذا كان جارودى فى رحلته الفـكرية عبر المذاهب الفلسـفية والاجتماعية كان يركز على مشكلة الانسان ، فانه عند شاطىء اليقين ؛ أدرك أن انسان القرآن الكريم هو الهدف المنشود من وراء رحلته الفكرية . ذلك أن جارودى هو ابن القرن العشرين . وهو القـرن الذى « جمع الأسئلة ، فلم يدع سؤالا عن نسب الانسان لم يطلب جوابه ، على نذير

---

(١) نفسه : ص ٤٧٧ .
(٢) عباس محمود العقاد : التفكير فريضة اسلامية ، ص ١٣٧ .

بالهلاك لمن جهل الجواب ، وقد يكون هلاكا للجسد والروح •• ما مكان الانسان من الكون كله ؟ •• ما مكانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحياء ؟ •• ما مكانه بين أبناء نوعه البشرى ؟ وما مكانه بين كل جماعة من هذا النوع الواحد ، أو هذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع يضمها عنوان الانسان ؟ وهى أسئلة — كما يقول العقاد — لا جواب لها فى غير « عقيدة دينية » تجمع للانسان صفوة عرفانه بدنياه وصفوة ايمانه بغيبها المجهول ! •• تجمع له زبدة الثقة بعقله ، وزبدة الثقة بالحياة ! •• حياته وحياة سائر الأحياء والأكوان •• ان القرن العشرين كان حقيقا أن يسمى بعصر « الأيديولوجية » أو عصر الحياة « على مبدأ وعقيدة » • لأنه كلما ألقى على الانسان سؤالا من أسئلته تلك لم يعفه من جوابه ، ولم يسلمه الى جزاء أهون من جزاء الحيرة عند السكوت عليه •• فان يكن سكوتا عن الأجوبة جميعا فهو الهلاك المحدق بالأبدان والعقول • وليس أكثر من « المبادىء والعقائد » التى نسمع عنها فى هذا القرن ، ويسمونها بالمذاهب و « الأيديولوجيات » •

ولكن أجوبة القرن العشرين ، مهما يكن من شأنها ، فهى أجوبة العصر الذى يحل المشكلة الزمنية ولا يتعداها الى مشكلة الأبد : مشكلة ما مضى وما أتى من الدهر وما يأتى الى غير نهاية . ولا جواب لهذه المشكلة الا فى العقيدة الدينية التى تؤمن بها الانسانية ، فلا يغنى فيها ايمان فرد واحد بينه وبين ضميره ، أو جواب سؤال واحد لمن يقول : من أنت ؟ وماذا تعرف من نفسك بين عامة النفوس ؟ قصاراك أنك واحد منها بين ألوف الألوف ، عاشوا ويعيشون وسيعيشون ، لا يسكتون عن تلك الأسئلة عامة ، ولا أمان لهم ولا لك ان سكتوا عليها •

هذه العقيدة الدينية توجد كما ينبغى أن توجد ، وانما الضلالة فيمن يريدها على غير سوائها الذى تستقيم عليه ، ولا تستقيم على سواه (١) » •

---

(١) عباس محمود العقاد : الانسان فى القرآن الكريم • ص ١١ •

وتأسيسا على هذا الفهم ، نتابع في هذه الصفحات شوطا من أشواط الرحلة الجارودية عبر المذاهب الفكرية والفلسفية بحثا عن « الانسان » المنشود ، والذى لم يجده الا في الاسلام . فقد خلص جارودى الى أن المشكلات التى تضعها الحياة « مشتركة بين الجميع ، ولكن الحلول التى تقدمها المذاهب الفكرية والفلسفية على العكس من ذلك ، تتصادم (١) » .

ومن ذلك مثلا « المشكلة الواقعية العملية التى وضعتها فلسفات الوجود لنفسها وامام الانسانية هي أن تعطى للوجود الانسانى معنى وقيمة ، وأن تقرر ما اذا كان هذا الوجود يستحق الاستمرار أم اذا كان واجبنا أن نضع حدا لاستمراره . ووجودنا يتوقف على القرار الذى نتخذه في هذا الشأن (٢) » .

وهنا يذهب جارودى الى أننا عندما نتحدث عن « وجودنا فاننا نقصد به وجود النوع . وذلك لأن الأمر هنا ليس انتحارا فرديا . والمشكلة ليست تلك التى أثارها كبريلوف في قصة « دستوفسكى » المسماة : « الذين أصابهم مس من الجن » . فلم يعد اليوم مصير الانسان أو مصير مجموعة من الناس هو الذى نضعه في الميزان ، وانما مصير الانسانية جمعاء . ووجود الانسانية يتوقف على القرار الذى نتخذه في هذا الشأن (٣) » .

يقول « سارتر » : اذا كانت « الانسانية كلها ستستمر في الحياة فلن يكون ذلك لأنها كانت قد ولدت ، بل لأنها كانت قد قررت لحياتها الاستمرار . وذلك لأنه لم يعد هناك وجود « للنوع الانسانى » . اذ أن المجتمع الانسانى الذى جعل من نفسه حارسا للقنبلة الذرية سيكون أعلى قيمة من أى مستوى عرقى طبيعى خضع له فيما مضى ، لأنه مسئول عن حياته وعن موته ، وأصبح لزاما عليه كل يوم بل وكل دقيقة أن يقـــرر موافقته على الحياة . وهذا هو ما نشعر به اليوم في حسرة (٤) » .

---

(١) جارودى : نظرات حول الانسان ، ترجمة د. يحيى هويدى ، ص ٧ .
(٢) نفسه ، ص ١١ .
(٣) نفسه ، ص ١١ .
(٤) جان بول سارتر : مجلة الأزمنة الحديثة العدد رقم ١ ـــ التمهيد .

وفى الرحلة الجارودية نجد توقفا بازاء مشكلات العصر ، فلم تعد هناك ثقة بالعلم والتكنولوجيا « لأن الحياة الانسانية أصبحت بحاجة الى تبرير . وأصبحت امكانية الانسان تطرح مشكلات كبرى مثل مشكلة الاختيار ، ومشكلة الحرية ، ومشكلة الأهداف » . وهى المشكلات التى لم يجد لها علاجا فى أى من المذاهب الاجتماعية والفكرية ، الى أن هداه الله الى شاطىء اليقين ، فوجد فى الاسلام الحلول الناجعة لمشكلات البشرية .

وهى المشكلات التى ترتبط بالتطور الحضارى للانسان الذى أصبح — كما كان يأمل ديكارت — سيد الطبيعة ، ولكن — كما يقول جارودى — « الى الحد الذى أصبح يستطيع منذ الآن اما أن يمحو كل أثر للحياة ويخلف وراء ظهره سعير كوكب يحتضر ، أو أن يخلق لنفسه ولكل الناس فيه مأوى . بل انه الآن على وشك أن يضع يده على اكتشافات ستفتح أمامه طريقا آخر أو طرقا لا نهاية لها ستجدد له صور الحياة تجديدا لا حدود له . وذلك عن طريق الرحلات من كوكب الى آخر وعن طريق الأمل فى الهجرة خارج حدود الأرض . لم يعد شىء من هذا يبدو على انه فى نطاق الأحلام . فامكانية سيادة الانسان على الطبيعة وتملكها تماما جعلته يشعر بأنه لن يقنع بهذه السيادة ، وبأن أطماعه لن تقف عند حدود السيطرة على عالم أصبح يملك الحرية فى أن يمحوه وأن يتجاوزه الى غيره من العوالم (١) » .

ثم يذهب جارودى تأسيسا على ذلك الى أن التقدم التكنولوجى قد وضع أمام الانسان تلك المشكلة التى أوجدتها امكانياته ذاتها « وهى : أن وجود الانسان يعتمد على القرار الذى يتخذه هو . وفشلت الفلسفات المعاصرة فى تحديد ماهية هذا القرار ، لافتقارها الى الغاية الأساسية ، فشلت فى ذلك الفلسفة الوجودية كما فشلت الماركسية فى مواجهة العالم الذى نعيشه « عالم واحد .. لكنه عالم ممزق .. هو عالم واحد — كما يقول جارودى — لأن تطور التكنولوجيا والانتاج أنشأ سوقا عالمية »وأنشأ

---

(١) جارودى : المرجع السابق ، ص ١٢ .

اقتصاديات مترابطة أصبح مصير كل انسان فيها معلقا بمصير كل الناس الآخرين • وأصبحت الحياة اليومية لكل انسان تتأثر اقتصاديا وسياسيا وأخلاقيا بأكثر الأحداث بعدا عنه : انخفاض فى أسعار بورصة نيويورك ، تظاهر فى طوكيو ، تخطيط اقتصادى فى موسكو ، هزة أرضية فى أفريقيا أو آسيا • أصبحت الأزمات والحروب أيضا ذات صبغة عالمية •

لكن هذا التلاحم الدولى لا يعنى تآخيا دوليا • اذ أنه قائم على التناقضات والصراعات • والتعبير الواقعى عن التلاحم الدولى لا يظهر من الآن فصاعدا الا فى صورة تلك الصراعات التى عمت حتى أمست تعالج على المستوى الدولى كله : الصراع بين الطبقات ، الصراعات الوطنية أو القومية ، الصراعات الأيديولوجية •

ليس ثمة صراع الآن له طابع محلى • ولا توجد مسئولية ذات صبغة محددة • ولا معنى للحرية المنعزلة • حقا ، لقد أصبحنا جميعا مشاركين فى الخصومات الدولية الكبرى • هكذا أراد لنا التاريخ • ونحن نواجه هذا الموقف ولا حيلة لنا فى دفعه • وهى مسئولية كل فرد منا ، ولا يستطيع أحد أن يتخلى عنها (١) » •

هذه « المسئولية » التى فشلت المذاهب الفكرية والاجتماعية فى تحديدها ، وتاهت وسط تناقضات عصرنا ، ولم تصل الى مخرج منها ، أو الى وسيلة للتغلب عليها ، هى التى تجعلنا نذهب الى أن العصر الحديث « قد عرض العقيدة بعد العقيدة على الانسان وعلى الانسانية ، ولا نعلم انه عرض عليها حتى اليوم قديما معادا أو جديدا مبتدعا أوفق من عقيدة القرآن الكريم • وأوفق ما فيها أنها غنيت عن الاختراع والامتحان ، وأنها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية ، شملت ملايين الخلق وثبتت معهم رحدها فى كل معترك عصيب ، يوم خذلتهم كل قوة يعتصم بها الناس (٢) » •

---

(١) نفسه ، ص ١٣ •
(٢) عباس محمود العقاد : المرجع السابق ، ص ١٢ •

ولذلك نرى أن جارودى بعد طوافه الطويل فى المذاهب الاجتماعية والفكرية ، قد وصل عن اقتناع الى شاطىء اليقين ، ليعلن للانسانية أن القرن العشرين سينتهى بما استحــدث من مذاهب وأيدلوجيــات ، ولا ينتهى ما تتعلمه الانسانية من القرآن الكريم •

« وقد استمع الناس الى المادية التاريخية ، فقالت لهم ان الانسان عملة « اقتصادية » فى سوق الصناعة والتجارة ، تعلو وتهبط فى طبقاتها بمعيار العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد • أما الانسانية فقد أنصتت الى المادية التاريخية ، فقالت لها انها شىء لا وجود له مع طوائفها التى تخلقها الأسعار والأجور •• واستمع الناس الى الفاشية فقالت لهم أن الانسان واحد من عنصر سيد أو عنصر مسود ، وأن أبناء الانسانية جميعا عبيد للعنصر السيد ، والعنصر السيد قبل ذلك عبد للسيد المختار ، بغير اختيار •• واستمع الناس الى « العقلية » فقال لهم قائل منها أن « انسانيتهم » شىء لا وجود له ووهم من أوهام الأذهان ، وأن الشىء الموجود حقا هو الفرد الواحد ! •• وبرهان وجــوده حقا أن يفعــل ما استطاع من نفــع أو أذى ، كلما أمن المغبــة من ســائر الأفــراد والأحداث •• !

وغير جديد ما أسمعوه من أهل العقائد الكتابية عن مكان هذا الانسان من الأرض والسماء ، ومكانه من اخوته فى آدم وحواء •• سمعوا أنه روح وجسد ، ودنيا وآخرة ، ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره ، ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبى الفناء •• وسمعوا أنه انسانان •• •• انسان صحيح مقبول وانسان زائف مدخول •• صحيح مقبول كل من اجتباه مولاه على هواه ، وزائف مدخول كل من خلقه ونفاه ، أو لعله لم يخلقه ودعاه اليه من دعاه وسمعوا أن الانسان يولد بذنب غيره • ويموت بذنب غيره ، ويبرأ من الذنب بكفارة غيره ، ويمضى بين النعمة واللعنة بقدر من الأقدار ، لا نصيب له فيه من عصيان أو طاعة ، ومن اباء أو اختيار •

« وسمعوا من القرآن الكريم غير ذلك ، فهم متدبرون يستمعون الى العقل كما يستمعون الى الايمان اذا اطمأنوا اليه وثبتوا على اطمئنانهم اليه .. فالانسان فى عقيدة القرآن الكريم هو المخلوق المسئول بين جميع ما خلق الله .. يدين بعقله فيما رأى وسمع ، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب ، فلا تدركه الأبصار والأسماع . و « الانسانية » من أسلافها الى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد واله واحد ، أفضلها من عمل حسنا ، واتقى سيئا ، وصدق النية فيما أحسنه واتقاه (١) » .

فالاسلام اذن هو الذى فى مقدوره وحده أن يعالج تناقضات العصر ، التى فشلت فى معالجتها المذاهب الاجتماعية والفلسفية ، وهى التناقضات التى يرى جارودى أن نقطة البدء فيها كانت الأزمة الكبرى : أزمة عام ١٩٢٩م . فقد هبط الانتاج العالمى فى الفترة بين عامى ١٩٢٩م ، ١٩٣٢م بمقدار ٤٠٪ عن معدله ، وهبطت التجارة العالمية ٦٠٪ . وكانت النتيجة بطالة ثلاثين مليونا من العمال . وتحطمت حياة أناس كثيرين ، وأصبحت بلا هدف ، وظهرت مآسى عالم فى مأزق . « تناقضات دفينـــة بين متنافسين ، ببن طبقات متصارعة ، بين أمم تتسابق . والرخاء الذى بدا حينذاك على أنه رخاء وقتى مصطنع ، وضع موضع البحث وأثيرت شكوك حول وجوده ووجود نظم وأشياء مشروعة لم يكن أحد يناقشها حتى ذلك الوقت ، وعم الشعور بأن الثقافات والحضارات من الممكن أن تكون عناصر للفناء .

« وقد أدى هذا الاحتدام بين كل هذه التناقضات ، وهذا الاستقطاب للقوى البشرية الى ميلاد الفاشية بتعصبها العنصرى المطلق ، بوقوفها الى جانب العنف والطغيان والحرب ، بادعاءاتها فى انكار قيم الفرد والشخص وفى انكارها لوجوده نفسه لحساب مفهوم للدولة المتسلطة التى تحكم من غير مشاركة لوعى النـــاس ، بتمجيدها لارادة القـــوة ،

---

(١) نفسه ، ص ١٤ .

بتفخيمها للقـول بوجود جس مختـار ، وبفلسـفتها فى اليـأس واللامعقول (١) » •

وهناك فى شرق أوربا أدت الاشتراكية الى زيادة حدة التناقضات الاقتصادية والسياسية والفكرية ، على حد تعبير جارودى ، الذى يقول أيضا أن « وجودها قد حمـل هجـوما ماديا على المثـاليات والمذاهب الروحية » •

وتأسيسا على هذا الفهم ، يذهب جارودى الى أن الفلسفة المعاصرة ، والتى فشلت فى مواجهة هذه التناقضات ، قد نشأت منها أساسا ، ومن الأحداث التى ترتبت على المواجهات الانسانية الكبرى : الجبهة الشعبية عام ١٩٣٦م ، حرب أسبانيا ، ميونيخ ، الحرب والهزيمة ، الاحتلال النازى لفرنسا والمقاومة ، ومن أحداث أخرى أكثر شمولا ؛ مثل انقسام العالم الى قسمين ، واليقظة الكبرى لشعوب آسيا وأفريقيا « تلك اليقظة التى ألقت على كل شيء أضواء غامضة ، التهديد الذرى الذى سد الأفق ، لكن ظل هذا الأفق بالرغم من ذلك مفتوحا أمام المغامرات الكونية التى يقوم بها الانسان (٢) » •

ويستعرض جارودى هذه التيارات الفاسـفية ومواجهاتها لهـذه التناقضات ، فيذكر أن « ميرلو بونتى » مثلا قد قال عن الصفات الرئيسية للتيار الفينومينولوجى والوجودى : « يقال ان هذه الفلسفة هى التعبير عن عالم متفسخ • وهذا حقيقى • بل وهو ما يعبر عن سر وجـودها الحقيقى • فالمسألة كلها قائمة ، فيما اذا كنا نأخذ صراعاتنا وانقساماتنا مأخذ الجـد ، وفى معـرفة ما اذا كانت داءنا أم دواءنا » • ويوضـح « ميرلوبونتى » فى كتابه « النزعة الانسانية والرعب » أن الحوادث منذ عام ١٩٣٩م قد كشفت عن أن « المساواة تقوم على أسس غير ثابتة » وأنها « وضعت موضع السؤال أشياء ما كنا نناقشها » وكتب أيضا فى

---

(١) جارودى : السابق ، ص ١٤ •
(٢) نفسه ، ص ١٥ •

« معقول ولا معقول » أنه يشعر أكثر من أى وقت مضى باهتزاز المستقبل وبعدم قيام حرية الانسان على أسس ثابتة .. انه يشعر بأنه أصبح بعيدا عن عصور الايمان التى كان الانسان يعتقد فيها أنه واجد فى الأشياء صورة لمصير مرسوم (١) .

وهكذا يصور لنا جارودى التناقضات التى واجهتها ونبعث عنها الفلسفة المعاصرة ، وهى التناقضات التى تمثلت فى عالم مليء بالفوضى والآمال ، ومظاهر العنف والانحراف ، والتطلع نحو المستقبل ، وكان على جارودى ، كما كان على فلاسفة العصر — أن يواجهوا هذه التحديات ، وأن يحاولوا الاجابة عليها ، وفى الوقت الذى ضلت فيه الفلسفة المعاصرة ، كان جارودى قد اهتدى الى الاسلام الذى قال الكلمة السواء فى كل العصور .

فى حين بقى زملاؤه من فلاسفة العصر فى مرحلة تشخيص أمراض الحضارة ، دون أن يهتدوا لاجابة واحدة تهديهم الى العلاج . فهذا جبريل مارسيل فى بعض ما كتبه من كتابات فلسفية حول سيرته الذاتية يقول بعنوان « نظرة الى الوراء » : « لا أعتقد أن أحدا منا يشك فى تفاهة وضياع هذه الحضارة ... التى بدا لنا أن قرونا كثيرة أسهمت فى ارساء أساس صلب لها .. كنا نظن أن من الخرق ، بل ومن عدم التقوى ، أن نشك فى قيمتها ... وفيما يتصل بى ، يبدو لى أن الوهم الذى كنا نعيش فيه قبل حلول الطوفان لم يتح لى الا انجاز الجزء التمهيدى من بحوثى ، وهو الجزء الجاف منها .. وفى القسم الثانى من اليوميات تغيرت اللهجة وتغير أسلوب تسجيل اليوميات ، وكان هذا التغيير مرجعه فى الجزء الأكبر منه الى الهزة التى أحدثتها الحرب فى نفسى (٢) » .

ويشير جارودى الى عنوان مسرحية جبريل مارسيل : « عالم به شرخ » ليصور « الكتل التى فقدت صوابها وقسمت عالما متهاويا » على

---

(١) نفسه ، ص ١٥ .
(٢) جارودى : السابق ، ص ١٦ .

حد تعبير مارسيل نفسه ؛ ولذلك يتجاوز جارودى فلسفات الوجود : الوجودية الملحدة ، الفلسفات المسيحية ، والماركسية ؛ ولا يجد فيها « اليقين » الذى وجده فيما بعد فى الاسلام •• ذلك أن فلسفات الوجود تلك قد « حامت الشكوك حولها » كما يقول ؛ وقد تهاوت « أوهام كثيرة ؛ وهم رخاء الرأسمالية الذى لا حدود له ، وهم الديمقـراطية التى كان يتصورها الناس على أنها « جمهورية الذوات الواعية » ، وتصوروا وجودها يسمو على مصالح الأفراد والجماعات ، الأوهام التى قدمها الرئيس ولسون فى قيام جمهورية من الشعوب تحقق فى الواقع وجود « هيئة الأمم » وأوهام فلسفية أخرى تقابل تلك الأوهام التاريخية •• كما حدث فى الوجودية التى انتهت الى جعل الانسان يشعر بمسئوليته الشخصية وبحريته وسط عالم كله أشلاء •

وكان لشيوع الاضطراب والكارثة بعد هزيمة ألمانيا عام ١٩١٨م ، وفرنسا بعد هزيمة ١٩٤٠م ؛ أثره فى نشأة أسـلوب جديد ذى طابع درامى فى الفلسفة المعاصرة ، فى ألمانيا من هيدجر حتى ياسبرز ، وفى فرنسا من سارتر حتى جبريل مارسيل •

واضطرت الفلسفات القديمة الى ادخال تجديدات يائسة على فكرها استجابة لمتطلبات العالم الجديد •• وكان على الفلاسفة الكاثوليك أن يجيبوا على الأسئلة التى أثارتها الوجودية الروسية على يد شستوف وبردييف ، وفلسفة الظاهرات لهوسرل ، والوجودية الألمانية عند هيدجر وياسبرز ، والوجودية الفرنسية عند سارتر (١) •

وفشلت هذه الفلسفات جميعا فى الاجابة عن تناقضات العصر ؛ ولم يجد فيها جارودى اجابة مقنعة عن التساؤلات التى طرحها عصره ؛ ودخل جارودى مع هذه الفلسفات فى حوار تحول الى ضرب من « المباراة الحقيقية » على حد تعبيره ؛ وقام بدراستها فى حركتها وفى محاولتها لتطوير نفسها ؛ ولكنه وجد فيها تناقضات ذاتية تشهد على عدم اتساق

---

(١) نفسه ، ص ١٩ •

المذاهب من جهة ، وبرغبة الفيلسوف فى أن ينقل حياة مذهبه الخاص الى التاريخ وأن يلقح مذهبه بالديالكتيك المعقد للتاريخ •

ويخلص جارودى من هذه الدراسة او الحوار الى أن الأساس فى « نشأة التفكير المعاصر كان افلاسا مزدوجا : لاتجاه تزمتى له جناحان : افلاس لتزمت مسيحى وأفلاس لتزمت علمى (١) • وانتهى من دراسة هذا الافلاس المزدوج الى ضرورة البحث عن « طريق ثالث » لم يجده الا فى الاسلام ، الذى يمثل « الحل الوحيد » كما تقدم فى فصول هذا الكتاب •

ومن أجل ذلك رفض الحركة الوضعية الجديدة ، والمذاهب الفلسفية التى سادت الجامعات الفرنسية حتى عشية الحرب العالمية الثانية ؛ ذلك أن أى « مذهب من هذه المذاهب لم يقدم لنا الأدوات العقلية الضرورية الصالحة للتفكير فى الواقع الجديد الذى فرض نفسه على الفكر الفلسفى : واقع العصر وواقع التاريخ ، واقع الفعل أو واقع الذات الفردية •

كان هيجل قد قدم منهجا لتعقيل الواقع الزمانى ، وهو الديالكتيك ، تماما كقيام العقل الديكارتى بتعقيل المكان الميكانيكى الآلى • وبرجسون لم يحاول أن يحصر نفسه فى وجود الديمومة الا لأنه قد ضحى بالمعقول لحساب اللامعقول ، وضحى بزمان العلم لحساب الديمومة السيكلولوجية • وهملان أقام ديالكتيكا لم يكن بينه وبين الديالكتيك الهيجلى أدنى وجه شبه لأنه قام على احتقار العلم • ولهذا فبدلا من أن يكون هذا الديالكتيك النبض الحى للتاريخ أصبح يجرى بعيدا عن التاريخ الواقعى (٢) » •

وفى جميع الأحوال ، سواء كنا مع « فلسفة هملان أو برجسون فان ما يعوز كل هذه الفلسفات هو « الحياة الواقعية للانسان » ، سواء نظرنا الى الانسان فى واقعه الاجتماعى الذى يمدنا به

---

(١) جارودى : المرجع السابق ، ص ٢٠ •
(٢) نفسه ، ص ٢١ •

تاريخه أو فى واقعه الشخصى الذى تطلعنا عليه حياته الذاتية الخاصة (١) » • على حد تعبير جارودى كذلك •

ويخلص جارودى من هذه الرحلة الفلسفية الى أن « الوضعية لم تنجح فى تجنب المشكلات • وأن المثالية قد أخفقت فى حلها » كذلك • وكما قال جارودى فيما تقدم ، فان « منشأ هذه المشكلات كان يتمثل فى افلاس مزدوج للنزعة التزمتية : سواء كانت تزمتية مسيحية أو علمية (٢) » •

ويذهب جارودى الى أن « الحل التنسيقى الذى قدمته الوضعية فى محاولتها المخنوقة ، مع اللا أدرية لفتح طريق ثالث بين المثالية والمادية ولتوفر تعايشا سلميا بين العلم والمسيحية بوضع حاجز فاصل بينهما لا يمكن عبوره ، لم يقبله هؤلاء الذين لم يسمحوا بقيام هذه الرقع ذات الحواجز فى قلب الوجود — فحلف عدم الاعتداء اللا ارادى كان مؤسسا على تفتيت مزدوج لحياة الانسان : ألقى فيه بالدين المسيحى خارج الحياة الواقعية والشخصية للانسان ، وقذف بالعلم الذى استحال الى نزعة علمية متطرفة ومقفلة — خارج حدود التاريخ الواقعى للانسانية : ذلك التاريخ الواقعى للانسانية : ذلك التاريخ الذى كثيرا ما قام فيه الانسان بعمل مبدع فى غزواته للعالم (٣) » •

ويتلخص موقف جارودى من الوجودية فى التعبير الذى كتبه « جون كانابا » فى كتابه المعروف باسم « الوجودية ليست فلسفة انسانية » ؛ حين قال : « ان الوجودية رائعة اذا شوهدت عن بعد غير أنها تبدو على حقيقتها حين نقترب منها فنكتشف أنها ليست الا بناء من ورق » •

فيذهب جارودى الى أن الخطوتين اللتين اتخذتهما الفلسفة الوجودية تكمل احداهما الأخرى • ذلك أنها قامت فى الخطوة الأولى

---

(١) نفسه ، ص ٢٢ •
(٢) نفسه • ص ٢٢ •
(٣) نفسه ، ص ٢٣ •

يرفض العالم لكى تبتعد عنه ، وفى الثانية ، وكنتيجــة لهذا التمــلص أو لهذه الهوة الأنطولوجية أو لهذه القطيعة التى أقامتها بين الانسان والعالم أقدمت على الفعل لتمارس به قدرتنا المطلقة على الاختيار ومسئوليتنا الكاملة . وقد عبر كيركجورد عن هذا الموقف المستغلق بقوله : « ليس الأمر أمر اختيار تقوم به الارادة بين الخير والشر بقدر ما هو اختيار للارادة نفسها (١) » .

ويرى جارودى أن « هذه الصيغة تعبر تعبيرا دقيقا عن استغلاق الوجودية . وذلك لأن اللحظة الهامة فى حياة الانسان » لحظة حريته . لا تمثل عندهم لحظة مليئة بالفعل والاقبال عليه بل تدل على العكس من ذلك ، على افتقار وغياب وثقب فى قلب الوجود . وبهذا يصبح — العدم — الشخصية الرئيسية فى المأساة الوجودة : لأن الوجود الواقعى للانسان عندهم ليس الا وجودا غائبا .

والانسانية كلها تهوى الى قرار هذه الهوة ويهتز الوجودكله بسببها . « ان وجودى يتغلغل فى وجود العالم حتى أقصى أطرافه » ووجوده يتغلغل فى وجودى حتى أعمق أعماقى (٢) » .

وهكذا يخلص جارودى الى أن الوجودية قد فشلت فى الاجابة عن تناقضات العصر ، ومواجهة مشكلة الانسان .. وهى الاجابة التى وجدها فى الاسلام ، حيث الانسان هو « المخلوق المسئول » عن عمله — فردا وجماعة — لا يؤخذ واحد بوزر واحد ، ولا أمة بوزر أمة .

« فالانسان خليق ألا يدين لسلطان غير سلطان الضمير ، لأنه يحاسب على أعماله ونياته ولا يغنى عنه أمر الجماعة ولا أمر ذوى السلطان ، وذلك هو حق العقل فى الاسلام ، بل هو فيه واجب العقل لا يغنيه أن يعتذر منه بطاعة السلف أو طاعة الجماعة أو طاعة الرؤساء والأحبار ، وقد وصل العقل الانسانى الى هذا الحق ، وهذا الواجب ، بفضل العقيدة

---

(١) نفسه ، ص ٧٨ .
(٢) نفسه ، ص ٧٨ .

الاسلامية قبل أن يصل اليه من طريق الجدل العقيم فى التفرقة بين وجود الذوات ووجود الماهيات (١) » .

وهكذا تؤكد لنا الرحلة الجارودية من الشك الى اليقين ، أن المذاهب الفكرية ينبغى أن ترعى للدين حرمته ، وأن تنهل من ينابيع الفكر الاسلامى ، ذلك أن المذاهب تذهب والاسلام باق . الاسلام الذى قال الكلمة السواء فى كل العصور .

و « ليس أتم من التوافق بين تمييز الانسان بالتكليف وبين خطاب العقل فى القرآن الكريم ، بكل وصف من أوصاف العقل ، وكل وظيفه من وظائفه فى الحياة الانسانية . وخليق بالمسلم . وبكل دارس للاديان . — كما يقول العقاد — أن يتنبه الى هذه الفضيلة التى تحسب لأول وهلة كأنها شىء من الواقع البديهى لا يحتاج الى التنبيه : ولكن حاجته الى التنبيه انما تظهر عند المقارنة بين القرآن الكريم وبين جملة من الكتب الدينية الكبرى ، فى فضيلة التبليغ المقصود ، الذى يراد ويتناسب فيه البيان على حسب الأحكام والأرقام (٢) » .

وهذا ما قام به جارودى فى رحلته الفكرية نحو الاسلام ، حيث قام بدراسة الأديان ، والكتب الدينية الكبرى ، دراسة الناقد البصير ، على نحو ما نجد فى كتابه الشهير « حوار الحضارات » وفى كتابه « نداء الى الأحياء » . وفى الأخير يقول جارودى : « ان الانسان فى الاسلام هو الانسان الكامل ، الذى يوقظ فيه دينه الوعى الأسمى بصلاته مع الله ومع الانسان ومع الكون (٣) » .

ويذهب جارودى الى ان الاسلام هو الحل الوحيد لتناقضات الحضارة المعاصرة ، ولتناقضات حضارة المستقبل ، كما كان فى الماضى صانع الحضارة الانسانية .

---

(١) العقاد : التفكير فريضة اسلامية ، ص ١٤٥ .
(٢) العقاد : الانسان فى القرآن الكريم ، ص ٢٢ .
(٣) جارودى : نداء الى الأحياء ، ص ٢١٢ .

فالاسلام ينشيء فى العقل والقلب آثارا متفردة ، لا ينشئها مذهب آخر من مذاهب الفكر ، ولا تنشئها ديانة من الديانات ، كما أن الاسلام ينشيء فى الحياة الانسانية مثل هذه الآثار العظيمة ، انه ينشيء فى القلب والعقل حالة من « التوازن » لا تتأرجح معها الصور « ولا تهتز معها القيم . كما أن الاسلام يكفل تجمع الشخصية والطاقة فى كيان المسلم الفرد والجماعة ، وينفى التمزق والانفصام والتبدد « التى تسببها العقائد والتصورات الأخرى (١) .

فالكينونة الانسانية — التى هى وحدة فى أصل خلقها — تواجه عقيدة التوحيد التى تتعامل معها فى كل نشاط لها ، اعتقادا وشعورا ، عبادة واتجاها ، تشريعا ، ونظاما .. وتتعامل معها فى الدنيا والآخرة ثم ان الاسلام ينشيء فى ضمير المسلم وفى حياته ، وفى كيان المجتمع الاسلامى وفى نشاطه بخاصية التوحيد التى يتضمنها ويقوم عليها ، أثرا متفردا .. هو : تحرير الانسان . يقول الله تعالى :

(ان الحكم الا لله . أمر ألا تعبدوا الا اياه . ذلك الدين القيم) .

« يوسف : ٤٠ »

— (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) .

« الشورى : ٢١ »

— (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) .

« المائدة : ٤٤ »

(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) .

« النساء : ٦٥ »

---

(١) سيد قطب : خصائص التصور الاسلامى ص ١٩٥ .

فالاسلام — وحده — يرد أمر التشريع والحاكمية لله وحده — هو الذى يخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده . وهذا هو « تحرير الانسان » — على حد تعبير سيد قطب (١) — الذى يقول أن هذا « التحرير للانسان » هو الهدية التى يملك أصحاب عقيدة التوحيد أن يهدوها — بدورهم — للانسانية كلها . وهو النعمة التى يملكون أن يفيضوا منها على الناس ، بعد أن يفيضوها على أنفسهم ، ويرضوا منها ما رضيه الله لهم . وأن هذا هو الجديد الذى يملك أصحاب عقيدة التوحيد أن يتقدموا به للبشرية اليوم ، كما تقدم به أسلافهم بالأمس فتلقته البشرية يومها كما تتلقى الجديد . ولم تستطع أن تقاوم جاذبيته لأنه يمنحها ما لا تملك بالفعل ، فلا يعف لجاذبيته اباؤها العنيد .. وهو اليوم يمنحها ما لا يملك ، فهو شىء آخر غير كل ما لديها من تصورات وعقائد ، وأفكار وفلسفات ، وأنظمة وأوضاع (٢) .

لقد قال ربعى بن عامر رسول جيش المسـلمين الى رستم قائد الفرس ، وهو يسأله : ما الذى جاء بكم ؟ ..

— « الله ابتعثنا ، لنخرج من شاء ، من عبادة العباد الى عبادة الله وحده . ومن ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والآخرة . ومن جور الأديان الى عدل الاسلام » .

ان اسلام جارودى اليوم ، وحمله راية التوحيد فى العالم الغربى ، واتجاهه الى الدعوة الاسلامية ، يجعلنا نذهب الى أنه يريد أن يقول للعالم ما قاله « ربعى بن عامر » : « ليخرج من شاء الله من عبادة العباد الى عبادة الله وحده .. ومن ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والآخرة . ومن جور الأديان والعقائد والفلسفات الملحدة الى عدل الاسلام وسماحته . وبذلك يقدم هذا المفكر المسلم لعالمه هدية الاسلام فى « تحرير الانسان » ،

---

(١) نفسه ، ص ١٩٨ .
(٢) نفسه ، ص ١٩٩ .

وهى الهدية التى طالما بحث عنها فى رحلته الخصبة العميقة ، وافتقدها فى جميع المناهج والمذاهب والأنظمة بلا استثناء . وهذه هى النعمة الكبرى التى يمن الله بها على عباده ، وسبحانه وتعالى يقول :

(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا) .

« صدق الله العظيم »

« تم بحمد الله تعالى »

محتويات الكتاب

الصفحة

البـــــاب السادس :

البـــــاب الســـابع :

خاتمـــــة :

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقى
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الايداع ٨٤/٣٢٤٤
الترقيم الدولى ٣ ـ ٠١١٥ ـ ١١ ـ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه